صلاح شبّر



بوصلة الثورات

أزقّة النجف

حامد جواد شبّر رمزاً



بوصلة الثورات... أزقّة النجف
حامد جواد شُبّر رمزاً

كتاب يؤرخ عقدي الستينيات و السبعينيات من
القرن الماضي ونمو الفكر المبدأي في النجف والعراق

صلاح جواد شُبّر



بوصلة الثورات... أزقّة النجف

حامد جواد شُبّر رمزاً

صلاح جواد شُبّر

الطبعة الأولى 2014
القياس: 14 x 21
عدد الصفحات: 268
ISBN 978-9953-574-??-?

نشر وتوزيع

شركـة العـارف للأعمـال ش.م.م.



بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن – هاتف/فاكس 4650624 00962
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

الإهداء

لا تبحث عن الفكر، لأنك إن وجدته شوّهتَ عقلك،

ولا تبحث عن العظماء من الشهداء، لأنك إن
وجدتهم ستفقد ثقتك بنفسك

بل ابحث عن قرينهم، فإن قرينهم الذي يعيد لك
العقل والثقه بالنفس

وها أنا وجدتهم فما طمعت أن أفقدهم....

و أمام عظمة عطائهم لا أملك إلّا أن أهدي كتابي
هذا أملاً في فيوض كرمهم.

وإنما أُهديه إلى شعبي الطيب ..العراق

والى كل أفراد عائلتي: أبي، أمي، إخوتي،
أخواتي، زوجتي



المقدّمة

في المفهوم الميكانيكي لمسيرة الحياة، وفي قوانينها وسننها، نجد هنالك أن التأثير يضعُف كلما ابتعدت الحركة عن مركز الثقل، وهو الشيء الذي فُرض على الحياة أن تتحرك بالاتجاه الدوراني في كل شيء: من الأفلاك والشموس والمجرّات الأرضية التي تسبح في فلكنا... وتتجنب غالباً تلك الأشياء انعتاقها من مركز الثقل، لكي تبقى تحت التأثير المسلَّط عليها من مركز الاستقطاب، ولكن وفي ذات الوقت تقلُّ بدرجات متفاوتة تلك التأثيرات الحرارية والجاذبية تبعاً لبُعدها عن المركز.

وقد نجد ذلك القانون شيئاً ثابتاً في أطوار الحياة، ولكن قد لا تتلمس له من مصداقيّة في عالم البعض من الأفكار التي لا تجد لذلك القانون تأثيراً، فالقضية الحسينية، والقضية الفكرية الإسلامية عموماً ربما تتبادل التأثيرات بعدم التغييّر في مساحة شُحنتها مهما ابتعدت عن زمن الرسالة، أو زمن التضحيات، وقد نجد دليل ذلك في عمق وضخامة الشهداء المتقدمين إلى سوح المواجهة في سبيل القضية الكبرى (مركز الثُقل) والتي مرّ اليوم أكثر من 1400 سنة على حدوثها.

في الوقت الذي نرى أن الأفكار الأخرى التي انطلقت في العالم وما أكثرها إنها ربما تموت وهي حية في طور معيشتها.

وهكذا يبرز السر الأعظم لضمور هذه، وتعملُق تلك، بطريقة ربما يصفها البعض بالقانون الإعجازي الرباني أو القانون الغيبي المجهول.

هنا نحن أمام شخصية أُخرى من الشخصيات الفريدة في التضحية التي أبت أن تنصاع إلى القانون الميكانيكي، وقانون الحركة في مسيرة كبرى يتعامل بها مع الفكر وكأنه الآن ظهر إلى الوجود. ذلك هو شهيدنا السيد حامد شبر الذي قدّم مسيرة عملاقة كبرى من العطاء في التضحية، والقدرة

والفكر في حركة استمرت منذ البدايات في بيت مملوء بالعلم والتضحية.

ولكننا وبسبب أننا أعطينا لمساحة ذلك الجهاد من الحديث في صُلب الكتاب، فإننا لابد وان نطرح السؤال الذي بدأنا في أولوياته، ذلك السؤال هو القدرة التي يمتلكها الإنسان في كسر قانون الواقع الطبيعي، التي - كما ذكرت - يعتبرها البعض قضية تتعامل بمفردات ما وراء العقل، وما وراء القدرة الإنسانية. . .

من واقع معيشتي مع أحداث العالم الفكرية والاجتماعية والدينية، فإنني أرى أن للفكر قانوناً ومبدأً، كما هو قانون الميكانيك والحرارة، فله مؤثرات، وله مسببات وله عوامل للتفعيل. وهي إن لم تتوفر فإن القانون سوف يتجمد، وربما وبمرور الوقت يموت. . . هذه العوامل في مسألتنا، مسألة ثراء التضحية والشهادة في تاريخ الفكرة الإسلامية عموماً، والفكرة الحسينية خصوصاً. . . إذ أنّهُ لمن الصحيح أن نقول: إنها عامل من عوامل تربية الإنسان المضحي وقدراته واطلاعه وتشربه بحب الفكرتين. . .

ولكنَّ العامل الأكبر هنا هو عامل (الفكرة الذاتية) التي تحمل في ذاتها قدرات التطوير، كما هي البذرة التي تحمل في ذاتها عاملاً في أن تكون حنطةً أو شعيراً أو شجرةً.

وما نحن وما الشهداء من أمثال السيد حامد شهيدنا الكبير إلّا عامل مساعد من عوامل نمو البذرة وتنضيجها، كما هي الظروف من الحرارة، ومن الجو السياسي، ومن الوعي العام، وما إلى ذلك من مسببات أساسية يعرفها السياسيون وأصحاب المبادئ، والعاملون في الحقل التغييري الإسلامي.

وعندما يكتشف الإنسان نصاعة الفكر، ونصاعة المصدر وصحته، فإن التضحية ستأتي بصورة ذاتية، لأنها ستكون المركز الاستقطابي الذي ينجذب إليه الكل، ليولّد في ذاته القوة على الحياة، كما هو مركز الذرة، ومركز الشمس، ومركز الأرض، وغيرها.

هذه العملية هي عملية أزليّة لا يمكن لها أن تهدء إلّا بتغيير العالم، وتغيير العالم هو اليوم الذي وعدنا به القرآن بقوله (يوم تبدّل الأرض غير الأرض) أي أن القانون قد تبدّل، وعند ذلك تجد أن صراع الحق والباطل قد انتهى. فعندئذ سوف تنتهي مسؤولية الإنسان في إحياء هذه الأرض.

وهكذا تسير الحياة وتسير الأمم لا بقدرة العوامل المساعدة على النمو والنضج والانجذاب أولاً، وإنما تستمر تلك الحياة بالقدرة الكامنة في ذات الفكر. وهو الفكر الإسلامي الإمامي، الذي ترشّح منه الفكر الحسيني. ذلك الفكر الذي لا يمكن له أن ينضب يوماً إلّا بعد أن تتبدل الأرض غير الأرض كما ذكرنا.

بهذه الجدلية الكبرى تسير الأمم وتسير الطاقات، وتنبع قدرات الأنبياء وقدرات التابعين من المجاهدين، لكي يقولوا لمن يشكّكهم في ذات الفكرة قائلين: فو الله لو هزمونا إلى (هجر) لَعَلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل، إنه شعور فكري وليس شعوراً شخصياً، وأن المتكلم ليس هي الجوارح، وإنما العقل وشتان بين هذا وتلك.

وهناك قانون آخر مهم في مسيرة حياتنا. وهو قانون التوثيق المهم الذي يجب أن نعتبره مسيرة طبيعية من مسيرة المعرفة، التي لولاها لما كنا نعرف الحسين ولا عمق الفكرة، ولا عمق ذات الروحية التي كانت العنصر الفاعل فيها، ولقد وجدت وبعد هذه المدة الطويلة من استشهاد أخي السيد حامد أنه يجب علينا أن نوّثق مسيرته، لأن التاريخ لن يرحم أبداً. . . لا يرحم الخانعين ولا الكسالى، ولا يرحم من استهان بقدراته وتأريخه، كما هو شأن أي شيء آخر في الحياة.

تاريخ النجف والمدن الأخرى في العراق التي ساهمت في العمل الفكري، والعمل الثوري ضد النظام الديكتاتوري خلال حكم البعث وصدام، ربما يعتبر من التاريخ الوضاء الذي علينا أن ننقله لأجيالنا الذين عايشوا فترات ما بعد 2003 ولم يكن لهم الحظ في الاطلاع على ما قبل

ذلك التاريخ من ثورات وانتفاضات، وأحياناً أقول لهذا الجيل بأن الثورة الآن هي جبل الجليد الذي رأيتم منه تُسعاً واحداً، وبقيت ثمانية أتساع تنتظر من يغوص في أعماق تلك الثورة ليكتشف حجم المأساة وحجم الدموع التي سكبت في هذا الطريق.

ولقد تفاجأت كثيراً وأنا أعود من الغرب لبناء وطني العراق، فوجدت أن الجيل الجديد من الوطنيين والمؤمنين لا يعرفون من هو محمد باقر الصدر، ولم يطلعواعلى عطائه، إذ أنني وجدت أن كتبه لم تكن بتلك الشهرة والاتساع، وكذلك لم أجد للكثير من هؤلاء الأبطال من ذكر في أدبيات وعناوين هذه المرحلة، وهذا أمر في غاية الخطورة على مستقبل وتاريخ البلد برمته، فالشهداء والقادة والمضحون يمثلون الخزين العميق لرصيد الأمة وعمق تاريخها. . . ولذلك وجدت أن الواجب يدعوني إلى أن أكتب عن الشخصيات التي اطّلعت عليها في حياتي، وأثناء وجودي في العراق ما قبل 1979 وقبل أن أغادر إلى أمريكا.

وقد بدأت بهذا المشروع تدريجياً في أن أبدأ من المعارف الذين أملك المعلومة التي تقودني إلى الكتابة عنهم، فاخترت الشهيد حامد لا لأنه أخي الصغير، ولكن لأنه الشخصية الكبرى التي تأثرت بأخلاقها وعمق إيمانها، بالإضافة إلى دوره في الحياة الجهادية في النجف والمجتمع العراقي آنذاك.

بالتأكيد هنالك الكثير ممن هم أكثر وزناً وأكثر عطاء من أخي السيد حامد، ولكنني وبسبب امتلاكي معلومات عن شخصيته، وجدت أن الواجب يدعوني أن أبدأ بسلسلة الشهداء من الخط المجاهد تباعاً.

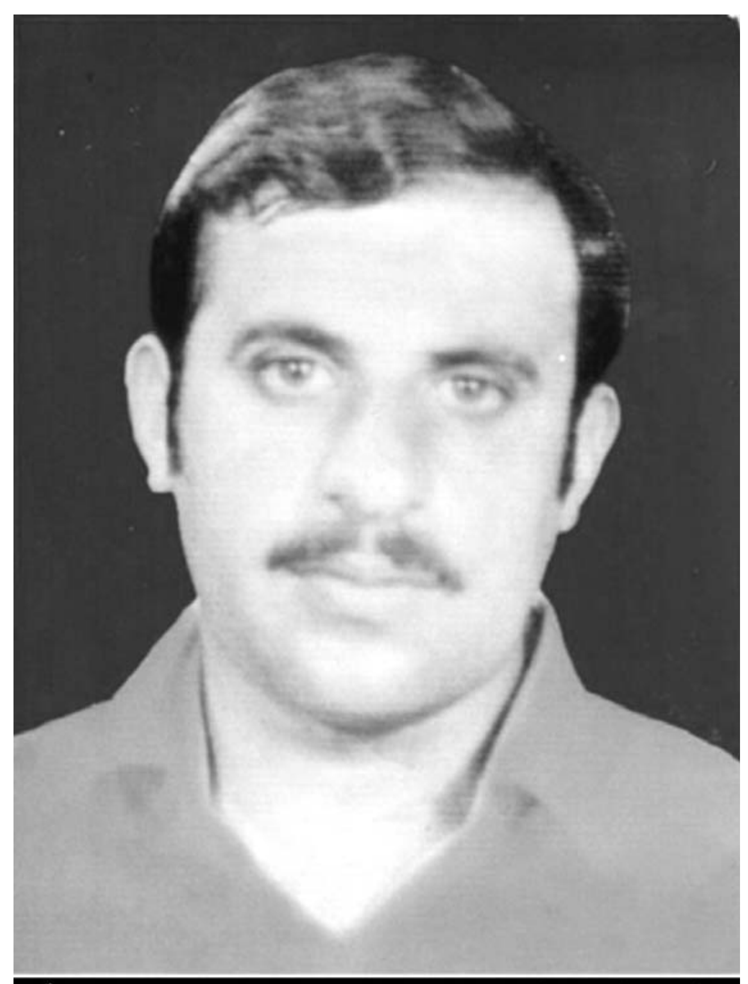
أملي من كل الباحثين والكتاب إلى المبادرة لتسجيل هذا التاريخ الوضاء وتقديمه إلى الأجيال القادمة التي تريد أن تعرف سلسلة عمقها في التاريخ، وفي التضحية، بالإضافة إلى الرسالة التي تركوها لنا لكي نكمل ما بدأوا به.

أشكر الله كثيراً في الوقت الذي أتمنى أن أكون قد أديت الأمانة، وأسأله تعالى أن يتقبل عملي وأن يسددني على طريق الخير، كما أستميح العذر من شهيدنا الغالي إن كنت لم أوفه حقه كما يجب علي أن أوفيه في الكتابة والوصف والاطلاع ولكنني في كل الأحوال بذلت جهدي كي أكون تلميذاً له، قبل أن أكون أخاً يكبره بأربع سنوات. بعد أن كان في فترات النضج تلميذاً لي في بدايات التدين. . . فالدنيا هي هكذا ينال الشهادة فيها من هو الأقرب إلى بارئه بينما تتعسر أحياناً على من لا يستحقها.

صلاح شبر

مستشار في وزارة الصحة العراقية

يناير، 2014



الشهيد السعيد السيد حامد جواد شبر استشهد عن عمر ٢٩ سنة



قسوة التاريخ

التاريخ غالباً ما يتعامل بقسوة مع الشخصيات الكبرى التي تحاول تغيير مسيرته. وهي مقاومة صورة الرفض لعملية التغيير التي هي سمة من سمات الكل سواءاً أكان ذلك الكل كائناً حياً أم مسيرة تاريخية.

وكرد فعل لرفض العملية التغييرية التاريخية يقسو التاريخ على المغيرين، بل يقاوم محاولاتهم في عملهم المستمر لتغيير الوجه الذي ألفه التاريخ، وألفته المسيرة المعتادة. . . وكأنّ الأمر يقترب من وقوف التاريخ إلى الصف الآخر، صف الناس العاديين أولئك الذين لا يفهمون ولا يدركون المعنى لعملية التغيير.

هذا الوقوف إلى الصف الآخر، ربما هو الذي رسم اللوحة الكبرى في التضحيات، وفي المسيرة المخضبة بالدماء والدموع، والتي استمرت الريشة في تلوينها منذ القدم ولحد الآن، وستستمر هكذا إلى أن يستسلم التاريخ أو تستسلم الإرادة، إرادة الإنسان المغّير، وبما أن الاحتمال الأول غير معهود، وليس من المفاهيم التي تتوافق مع العقل الإنساني، إذن تكون بالمقابل عملية الرفض مستمرة، وعملية التغيير مستمرة ما دام هنالك إنسان ومادام هنالك عقل وإرادة.

أثبتت مسيرة الأمم بأن الثورات يصنعها المغمورون، ويفجرها العاديون من الناس، أما الأسماء اللامعة فهي من تحاول أن تقطف ثمار ذلك التغيير، حيث تقترن الأسماء بعالم أولئك المضحين في الوقت الذي تغيب فيه وسائل الدعاية عن عرض الواقع العملي، فيدرك الناس البسطاء بأن التغيير جاء من تلك الأسماء اللامعة المعروفة لديهم، بسبب فقدان ثقة الأمة بالأسماء البسيطة وبقيادتها الكامنة فيها.

وهذه سُنّة أخرى من سنن التاريخ التي قد نكتشفها ونحن نطالع مسيرات التغيير، فنجدها شعلة انطلقت من عقول عوام الناس وبسطائهم من أولئك الذين عاشوا مع المجتمع، فعرفهم المجتمع بأنهم أناس عاديون. ولذلك قيل سابقاً لنبينا الكريم ﴿وما أنتم إلّا بشر مثلنا﴾ [الشعراء: 186] وقيل للسابقين من المغيّرين الأنبياء والمصلحين، ثم يقال لمن اتبع عملية التغيير تلك ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرازلنا بادي الرأي﴾ [هود: 27].

وهكذا تنتقل هذه السُنّة وهذا القانون ليتوسع ليس في محيط الرسالات السماوية فحسب، وإنما في محيط الناس بأجمعهم. سواء أكان أولئك الناس من المحيط الفكري، أم من المحيط المادي. . . فهذا (لينين) كان رجلاً يعيش في النمسا إنساناً عادياً أطلق عليه أصدقاؤه الرجل الغريب، وذلك الذي صنع ثورة الفقراء في إيران الحدّاد الذي فجر مسيرة الثورة، وكذلك (سبارتاكوس) في إسبارطة الرجل العبد الفقير الذي أسقط قلاع روما وحطم أباطرتها، وهكذا تنتقل دروس التغيير ومسيرة الثورات من إنسان إلى إنسان ومن بيت إلى بيت ومن قطر إلى قطر، حتى يفجر ثورة النجف، أو ثورة العشرين شخص مغمور إسمه (نجم البقال الدليمي) ليقود مسيرة بدأت في العشرينيات من القرن الماضي، وتُوّجت الآن في أوائل العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين.

ولم تقتصر العملية، عملية خزين الأمة من عوامها في تغيير الأفكار على أقطارنا المشرقية، حتى نجدها قد اندلعت في مسيرة ما يسمى بالربيع العربي ويفجر (محمد بو عزيزي) المسيرة العملاقة في تغيير شعوب كانت كامنة في سبات عميق أيقظها عندما وجد أن النار والحرق هو ما يجب أن يكون الشرارة لتغيير العقل والروح...

وقد وجدت القانون نفسه فاعلاً ليس فقط في عوالم الشرق الحالم بتطبيق القانون ما وراء الطبيعة، وإنما كان تطبيقه أشد وأكثر قسوة في عوالم الغرب عوالم المادة والدولار، فقد وصل إلى رئاسة المؤسسات

الكبرى وإلى سدة الرئاسة بسطاء الناس فتغيّر المجتمع تبعاً لوصول أولئك البسطاء. . . ولو كان هنالك في عالم الغرب من وسائل للحرق أو للثورة أو للقتل لوجدت أيضاً أن ألف (بو عزيزي)، وألف (نجم البقال) في مسيرة التغيير، ولكنهم لهم مسيرتهم وأفكارهم وسياقاتهم في التغيير والتي تتبلور في الاقتصاد والسياسة وفي العمل التكنولوجي والعلمي.

فالذي غيّر العالم باتجاه الربط الإلكتروني في بداية السبعينيات كان (رالف ألنس) الذي وضع أسس الكومبيوتر الشخصي (PC) مما نقل العالم والأمم إلى ما وصلت إليه من التطور والقدرة العلمية. . . وهكذا هي المسيرة الكونيّة تبتدئ من بسطاء الناس، وتندلع الثورات بسبب فطرية الإنسان العادي والبعيد عن تعقيدات الأفكار التي تعيق مسيرة التاريخ وقوانينه.



النجف...

إسمٌ في خط النهاية



ومن أولئك الكبار الذين اكتب عنهم في هذا الكتاب هو السيد حامد جواد شبر، أخي الذي يصغرني بأربع سنوات في حساب التاريخ العددي، ولكنني أفرقه صغراً في مسيرة الفكر والتقوى والإنسانية وبُعد النظر والإيمان بالمبدأ.

كانت ولادته في سنة 1954 في البيت الذي يقع في النجف الاشرف وفي محلة (الجديدة) في الطرف الجنوبي من المدينة التي كانت آنذاك. وفي ذلك التاريخ تمثل تلك المحلة سكناً جديداً للعوائل التي خرجت تواً من المحلات الأخرى التاريخية في هذه المدينة، وهي محلات (البراق، المشراق، الحويش والعمارة) التي كانت أصلاً تمثل المدينة، وكانت محاطة بسور يسمى (سور النجف) القديم الذي ربما لم يبق من آثاره شيء حتى على نطاق ضيق. إذا حرص النظام البعثي السابق أن يزيله كله وبشكل منظم (Systematic) لأنه عنوان من عناوين الثورة، وشعار من شعارات الرفض والمواجهة.

ولا بأس بأن يراجع القارئ العزيز تاريخ سور النجف وتاريخ المواجهة في ثورات متعددة منها ثورة 1918 التي تسمى تأريخياً (ثورة النجف) والثورة الأخرى التي تلتها وانتشرت على مساحة أرجاء العراق كله والتي تسمى (ثورة العشرين) في سنة 1920 ومن ثم ثورات المواجهة المسلحة مع القوات البريطانية. وكذلك فيما بعد ذلك التاريخ، وفي زمن المواجهات الحديثة ما بعد استيلاء البعث على حكم العراق في مواجهات السبعينيات وغيرها.

وفي أواسط الأربعينيات من القرن الماضي، وبعد ثورة رشيد عالي

الكيلاني، وبعد حسم المواجهة والتوجه إلى الاستقرار في بناء الدولة على أساس انتصار الحلفاء في الحرب الثانية. وجدت النجف نفسها أنها في وسط العاصفة الهوجاء التي كان عليها أن تأخذ دورها الواقعي في قيادة الناس والجماهير. في الوقت الذي حدث هنالك فراغ كبير بسبب انكشاف واقع القيادات التي كانت أنذاك تمسك بزمام السياسة العراقية.

في ذلك التاريخ هاجر العراقيون إلى النجف، بعد أن كانت مدينة مقتصرة على أولئك الذي يطلبون العلم الديني من أقطار الأرض. وكأنها جامعة كبيرة أو مدينة جامعية كما هو المصطلح الحديث[1].

هاجر إليها الكثير من العراقيين، وبدأ ضغط ازدياد عدد السكان يتفاقم شيئاً فشيئاً، إلى أن قررت النجف أن تفتح أبوابها وتجتاز حدود سور النجف باتجاه الجنوب ليتكون أو يبدأ أول حي هنالك والذي سمي بالبداية (المنطقة الجديدة)، ثم بعدها اختصاراً أطلق عليها الجديدة (بتخفيف الدال) وهنالك بدأ البعض من العوائل معظمها غير المنتمية إلى الطبقة الحوزوية الدينية بشراء وبناء مساكن متواضعة ضمن مساحة صغيره قد لا تتجاوز المائة إلى مائتين متر، ثم يقام عليها طابق ومن ثم سطح الدار.

وكان من الطرف الثاني الشارع الجنوبي المحاذي للنجف الذي أسمته العامة (شارع المدينة)، وكان مأوى القوافل التي تتنقل في الصحراء الجنوبية الممتدة إلى الحدود السعودية، التي ترتبط مع النجف بصلات تجارية واسعة، بالإضافة إلى طريق الحج البري الذي كان سالكاً أنذاك، إذ كانت قوافل العراقيين وقوافل الدول الأخرى التي تقع شمال العراق كتركيا تسلكه للوصول إلى الديار المقدسة.

وكان النجفيون في تلك الفترة عرّابي التجارة والنقل إلى رحلات

---

(1) مدينة النجف عبقرية المعاني وقدسية المكان، د. محسن عبد الصاحب المظفر.

الحج. في الوقت الذي تنعدم أنذاك الطرق المبلطة وغيرها، وكان السير إلى الصحراء الجنوبية محفوفاً بالمخاطر والمصاعب حتى الوصول إلى المنطقة المحايدة، أو إلى مدينة (عرعر) الحدودية التي تشارف على السعودية.

كان شارع المدينة يمثل حدود النجف الجديدة الجنوبية وكان شارعاً كما ذكرت مميزاً بأن تأوي إليه إبل البدو المتسوقين من أطراف الصحراء أثناء انتقالهم من منطقة إلى أخرى، حيث أطلق على أماكن شارع المدينة ذلك ما يسمونه (المناخة) المنطقة التي ينيخ فيها البدو نياقهم لحين تسوقهم وتزويدهم بالطعام.

ما بعد ذلك الشارع تبدأ الأرض بالانحدار الكبير باتجاه الصحراء التي كانت تسمى أنذاك (بحر النجف) وهي منطقة صحراوية يفيض فيها أحياناً الماء فيكوّن مستنقعات وأهواراً تبتدئ من الجزء الشرقي في مناطق المشخاب وأبي صخير والحيرة لتمتد إلى أعماق كبيرة في الصحراء ويظهر لسكنة المدينة وكأنه بحر من الماء حيث أطلقوا عليه بحر النجف، مع أنه عبارة عن صحراء ممتدة إلى أعماق الحدود الصحراوية الجنوبية السعودية[1].

وكان بيتنا يقع في الجزء الشرقيّ من الشّارع الرابع ومساحته 120 متر مربّع يضمُّ في الطابق الأرضيِّ منه غرفتين إحداهما للأبوين والأخرى للعائلة، وهنالك أيضاً مساحة كبيرة من البيت ذات سقفٍ مرتفع كان يستعمل للجلوس، وقد حوّله والدي المرحوم فيما بعد ذلك إلى غرفة لاستقبال الضيوف.

---

(1) قُسّمت شوارع المحلّة الجديدة التي سمّوها (الجديدة) إلى خمسة شوارع تتفرّع من الشارع الرئيسي شارع (الرسول) أو شارع القبلة يميناً ويساراً، وقد بقيت أسماء تلك الشوارع قائمة إلى الآن في تسميتها بالشارع الأول والشارع الثاني وهكذا إلى الشارع الخامس الذي يليه كما ذكرت شارع المدينة.

وفي الطابق العلوي كان هنالك جناحٌ صغير كان والدي الشهيد يستعمله كمكتبة له، بالإضافة إلى استقباله لأهل العلم وفي المطارحات النقاشية والاجتماعية.

في الأعلى سطح يغطي كل مساحة البيت تنام فيه العائلة في أيّام الصّيف الحارّة، وكان في الواقع مقسّماً إلى قسمين قسم لأبويّ، وقسم آخر لبقية أفراد العائلة، والسطح كان يشرف على باحة البيت والذي يسمّونه (حوش).

وكما هو في كل بيوت النجفيين، كان فيه سرداب تحت الأرض ننزل إليه بسلالم عديدة قد تتراوح بين 18 إلى عشرين. يقينا حر أيام الصّيف اللاهبة، وكان هذا السرداب مقسّماً إلى قسمين أيضاً: قسم ننام فيه في أيام الصيف الحارّة، وقسم آخر أعدته الوالدة كمخزن، بالإضافة إلى أن البعض من أفراد العائلة كان يستعمله للنوم، ومن أرضية الدار كان هنالك شبابيك ومنافذ تدخل الهواء والنور إلى السردابين أسفل الأرض.

إلى جوار بيتنا كان هنالك بيت تابع لنا أيضاً مساحته تقريباً 150 متر مربع اشتراه والدي في تلك الفترة، لكي يكون مصدراً للرزق في حالة تأجيره، وعندما كبرت العائلة تحول ذلك البيت إلى مكان خاص للضّيوف من الأقارب والأصدقاء عند زيارتهم النجف، كما نقل والدي مكتبته إليه، وصار هذا الجزء تقريباً خاصاً للرجال وللضيوف، بينما اتّخذ البيت الأصلي صفة الجانب النّسائي والعائلة، فكان النجفيون يسمّون الأوّل (البرّاني) أي الخارجي، والثّاني (الدخلاني) أي بيت العائلة[1].

إنتقلنا إلى البيت في حدود سنة 1952 إذ يبدو لي بأنني أتذكر ذلك

(1) هذان البيتان كانا قبلاً ملكاً إلى أحد خياطي النجف المشهورين بخياطة البدلات الرجالية، وخياطة طقم جبّة علماء الدين أو عوام الناس (الصاية) وكان هذا الخياط من الوجوه المعروفة في النجف بسبب صنعته الدقيقة والمتميزة في حسن إخراجها، وقد اشتراهما والدي في حدود سنة 1948.

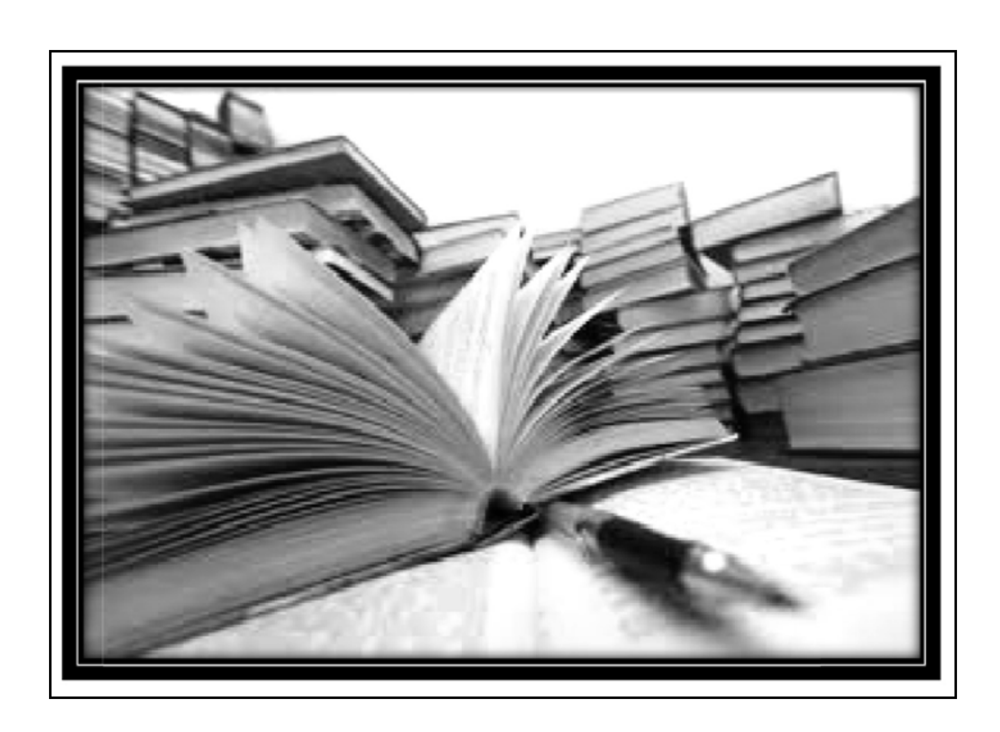
اليوم وأنا صغيرٌ وكأنه نقاطٌ متناثرة من أحلام تتراقص في رأسي(1) من بيت كان في محلة العمارة (بيت جدّنا) الكبير العلّامة المجتهد السيّد علي شبّر والّذي كان يضمُّ كلّ أولاد الجدّ في بيت ربما لا تتجاوز مساحته أكثر من مائة متر مربع إلى هذا البيت، ولا بأس أن أذكر أيضاً بأنّ بيت جدي العلّامة لم يكن بيتاً بالمعنى المتعارف عليه، وإنّما كان في الأصل مقبرة لآل الجرجفجي(2) تقع مقابرهم في الطابق الأرضي ويسكن جدّي وعائلته وأولاده الخمسة. وكان الطابق العلوي يستعمل لاستقبال الضيوف، بينما كانت الغرف الخمسة الصغيرة موزعة في أرجاء البيت. . . كلٌ من تلك الغرف لا تتجاوز مساحتها 3 أمتار طولاً وربما 3 أو أربعة عرضاً وهي الغرفة التي تنام فيها كل العائلة مع أولادها.

ولد أخي الشهيد السيد (حامد) في ذلك البيت في بيت الجديدة بعد أن سبقه أخ آخر وهو (زيد)(3) ثم الخطيب السيد أمين شبر، وكانت ولادة شهيدنا الكبير في فصل من فصول الشتاء لم يؤرخه والدي، ولم أكتشف بالضبط شهر الولادة، أو اليوم في مذكراته رحمه الله.

(1) يرى علماء النّفس بأن القصة عندما تعاد مرات ومرات أمام مسامع الطفل فإنه ولكثرة الإعادة ترتسم في ذهنه، وكأنه رأى الحادثة مع إنه لم يرها في الواقع، وهذا هو ما حدث معي حيث لازلت أعتقد بأنني رأيت اليوم الأول الذي انتقلنا فيه إلى هذا البيت مع أنني كنت في عمر سنتين. (الجسماني، عبد علي، علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية).

(2) آل الجرجفجي عائلة من بغداد برزت منهم شخصيات كبيرة مثل أمين الجرجفجي الشخصية السياسية المعروفة، وكانت المقابر في النجف تستعمل كبرانيات للبعض من علماء الدين. محمد جعفر أبو التمن، د. خالد التميمي.

(3) مواليد 1952 غُيّب في أثناء الحرب العراقية الإيرانية ولم نعرف عنه شيئاً وقد ترك بنتاً رضيعة، ثم تلاه أخوان آخران وأختان توفي أحدهما وهو (أديب) في عمر مبكر بسبب مرض لازمه منذ ولادته إلى عمر الثلاث سنوات.



الجذور



لم تأتِّ عظمة شهيدنا الكبير -مدار بحثنا- من فراغ، وإنّما كان هنالك ما هو أصلاً قد وُضع بهذا الشكل لكي يؤهله حتى يكون شهيداً عظيماً كبيراً تفاخر به الملائكة في السماء، فلا يمكن للنبتة الصالحة أن تنموَ إلّا بتوفر التربة الثّرية والرعاية المتكاملة بالإضافة إلى الاستعداد الفطري الخالي من الأمراض ومن المنغصات العضوية.

فقد ورث هذا الشهيد تاريخاً مليئاً بالفخر والعزّة والشّهامة، سارت معه في جيناته (Genes) الحاملة للصفات الوراثيّة، وفي أخلاقه إلى الحين الّذي كان على الباري عز وجل أن يدعوه إلى جواره فلبّى نداءه مستجيباً، ولولا ذلك التاريخ وذلك الإبداع في الاستقامة ما كان على خالق الكون (عز وجل) أن ينتقيه لكي يكون في أعلى عليين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فوالده هو العلّامة الكبير الخطيب الّذي لقّبوه (بخطيب المنابر) أو صوت (العراق السياسي) أو (الشهيد الحي) ذلك هو السيد جواد شبّر صاحب الصوت الكبير والشخصية المميّزة، الذي ملأ الدنيا عطاءاً لا في خطاباته فحسب، وإنّما في مؤلفاته، وكتاباته وعمله الاجتماعي وصراعه السّياسي مع الحكّام الظّلمة الّذين تواتروا على حكم العراق منذ أواسط الخمسينيات وإلى حين استشهاده في سنة 1982، وعندما اعتُقل وغُيّب إلى يومنا هذا. . . لمراجعة ترجمة السيّد الوالد ومواقفه السياسيّة ومؤلفاته يمكن مراجعة ذلك في كتب كثيرة الفت حديثاً[1].

(1) كتاب خطيب الأمة للأخ السيد أمين شبّر، وكتاب الإعلام السياسي في مدرسة =

كان للوالد الشهيد دورٌ كبيرٌ في التأثير على شخصية أخي السيد حامد فقد لازمه في حياته وفي عمله واقترب منه كابن يبتغي أن يتسلّق قمّة المجد من خلال التّحلّي بشجاعة الأب وقدراته وأسلوبه في التأثير على النّاس.

الجدّ الأوّل هو العلّامة الكبير السيّد علي شبّر الّذي توفّي في سنة 1973 والّذي كان يمثّل المرجعية عندما أرسله آية الله البروجوردي في الخمسينيات من القرن الماضي ليمثلها في الكويت في الوقت الذي كان الوضع السياسي في هذا البلد معقّداً، وخصوصاً في أعقاب ادّعاء الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم ضمّ الكويت إلى العراق، وفي خضمّ التعقيدات الاجتماعية للتحوّلات الّتي حدثت في الكويت، حيث بقيت شخصية الجدّ السيد علي نوعاً من العقلائية المتميزة التي وحّدت الجالية الشيعية التي كان يُراد لها أن يلحقوها بالجانب غير العربي، بالإضافة إلى الحرب الطائفية التي كانت تشنّها بعض البلدان العربية المجاورة آملين في ذلك أن يؤخرّوا من مسيرة الفكر الإمامي.

للجدّ العلّامة الكثير من المؤلفات، ولكن أعلاها شأناً هو كتاب (العمل الأبقى) الذي يعبر عن مجمل آرائه الفقهية.

خلف العلامة جدي الكبير السيد علي في مركزه القيادي في الكويت بعد وفاته عمّي العلّامة المميّز السيد صباح شبّر صاحب الخلق العالي والورع والذي يقود الآن المسيرة الفقهية الإمامية في الكويت جنباً إلى جنب مع الآخرين من العلماء الأفاضل.

والجدّ الآخر، العلّامة الكبير شيخ الشهداء السيد قاسم شبّر، أخ السيّد علي شبّر، وعمّ السيّد جواد شبّر الذي أعدمه صدّام في سنة 1980

= النجف الأشرف، خطيب الأمة السيد جواد شبر أنموذجاً للدكتور خليل الأعسم، كتاب معجم الخطباء للسيّد داخل حسن، وغيرها من كتب التراث.

بعد أن عذّبه تعذيباً شديداً، وهو يعتبر من أكبر الشهداء الذين أُعدموا في العراق سناً، وكان أنذاك قد تجاوز الواحد والتسعين من العمر، كان الشهيد السيد قاسم ممثلاً للمرجعية في النعمانية التّابع لمحافظة واسط الآن، وكان يمتلك رصيدا شعبياً كبيراً ليس في تلك المحافظة فحسب، وإنّما في أرجاء العراق لما كان له من قدرات وقابليات جهادية وعلمية، وبعد مقتله لم يسلّم جثمانه إلى عائلته منذ أن أُعدم في حدود سنة 1981 ولكن ذلك لم يفت في عضد أهالي المنطقة فتحول بيته الواقع في قضاء النعمانية في محافظة واسط إلى مأوى ومزار للناس لا تجد لك في زيارته من موطئ قدم بسبب كثرة زوّاره وروّاده وصار قبره في قلوب محبيه[1].

والجدّ الآخر العلّامة الكبير السيّد جعفر شبّر عمّ الخطيب الشهيد جواد شبّر عالم بغداد في منطقة الكرادة، وفي مرقد حسين بن روح في قلب بغداد[2].

والعلّامة الكبير السيد عبّاس شبّر الشّاعر وقاضي الشّرع الشّريف في البصرة ابن عم الشّهيد جواد شبّر وشريكه في العمل وفي الدراسة والذي توفّي في سنة 1971 ودفن في النّجف الأشرف بعد أن ترك مؤلفات كثيرة ودواوين شعر متقدمة[3].

والعلّامة الكبير الشّهيد السّيد عصام ابن العلّامة السّيد عبّاس شبّر الّذي اعتُقِل وعُذِّب في أواسط الثمانينيات[4] (والشهيد السيد عصام شبّر

(1) للشهيد العلامة كتب كثيرة أهمها (المؤمنون في القرآن) وكتاب (المنافقون في القرآن).
(2) أحد نوّاب الحجّة الأربعة في فترة الغيبة الصّغرى، له مؤلفات كثيرة ودراسات فقهية واسعة. (المهدي المنتظر عند الشيعة الاثنى عشرية، د. جواد علي).
(3) منها جواهر وصور، ومنها ديوان الموشور.
(4) وقد اعتقلوه بعد أن هرب إلى كربلاء تخفياً فتابعوه إلى هناك، ثم بعد إلقاء القبض عليه مارسوا معه التعذيب، ثم تقطيع جسده ورمي قسماً منه في باب داره.

ومع فارق السنين مع الشهيد السيد حامد ولكن الإثنين عملا معاً عندما كان الشهيد السيد عصام يدرس في النجف الأشرف في المدرسة الشبّرية[1].

والشهيد الأخ السيد زيد شبّر الأخ الذي يكبر شهيدنا بسنتين والذي كان قريباً وحميماً من الشهيد السيد حامد مع الاختلاف في الكثير من الصّفات الشّخصيّة التي كانت تميّز كلاً منهما.

وهكذا إذا تسلسلنا في نسب العائلة الكبيرة وإلى جذورها لوجدنا أنّ هنالك سلسلة ذهبية علمية تحمل في كلّ جوانبها من الإشعاع والمعرفة ما يعجز القلم عن وصفه، كما هو جدّنا الكبير العلّامة صاحب المؤلفات الواسعة والمسمى (بالمجلسي الثاني) السيد عبد الله شبر (ت 1826م)[2].

كذلك من معالم هذه العائلة هنالك الكثير من المبدعين الكبار في العلوم الأكاديمية وفي علوم الاقتصاد فأخونا غير الشقيق الدكتور كاظم شبّر[3]. كذلك أمامنا ونحن نغوص في تاريخ هذه العائلة العميقة الجذور

---

(1) المدرسة الشبرية هي المدرسة التي تقع في قلب مدينة النجف بناها جدّنا السيد علي شبّر في سنة 1967 وأوقفها لطلبة العلوم الدينية.

(2) السيد عبد الله شبّر الذي سمعت أنا شخصياً وفي سنة 1969 في مجلس عند السيد الشهيد الكبير الصّدر الأول عندما زرته في بيته الذي كان أنذاك خلف ثانوية الخورنق وبعد حديث معه ذكر لي هذه القصة التي لازالت ترنّ في أذنيّ وقال: إنه مستغرب جداً لقدرة علمين عظيمين من علماء الإمامية، هما صاحب كتاب جواهر الكلام، والسيد عبد الله شبّر، وأضاف الشهيد الكبير بأنّ سبب استغرابه هو أنّه لو قسم عدد سنين عمرهما الشريف على عدد ما ألفاه لوجدنا بأن الحصيلة ستكون رسالة ب 25 ورقة يومياً، وهو أمر في غاية الإبداع في الوقت الذي نرى أنّ هذين العالمين قد فارقا الحياة في أواسط الخمسينيات من عمرهما، وأنهما بالإضافة إلى التأليف كانت لهما حاجاتهما الخاصة وتدريسهما وسفرهما وغيرها مما تتطلبه معيشة الإنسان... ثم قال الشهيد العظيم بأنّه فخور بأن الطّائفة تمتلك مثل هذين العلمين الكبيرين... راجع ترجمتهما في كتب السيرة وفي الذريعة للشيخ آغا بزرك، حرز الدين: معارف الرجال 2/ 10، الأمين: أعيان الشيعة 39 / 80، المامقاني: تنقيح المقال 2/ 212.

(3) خرّيج جامعة لندن وأستاذ في جامعة (وست منستر) في علم الإدارة الاقتصادية والصّناعية، له أكثر من عشرة مؤلفات في علوم الاقتصاد وفي الإدارة. وهو الذي =

في العلم والتأليف أن نرى محافظات العراق الجنوبية لها النصيب الأكبر في المبلّغين من آل شبّر في العمل مع سكّان تلك المحافظات على ترسيخ مبادئ الإسلام ومقاومة الظّالمين من الطّغاة ونذكر على سبيل المثال:

في الدغارة السيّد عبد الكريم شبّر.

في خانقين السيد محمّد شبّر.

في البصرة السيّد عبّاس والسيد عصام والسيد نوري شبّر.

في الشعيبة السّيد نعيم شبّر.

تستمر هذه الشجرة الوارفة في ظلّها وعطائها إلى الناس حتى تصبح شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وصارت ترفد المسيرة الإسلامية بقدرات كبيرة وطاقات هائلة في طريق العلم والصّراع مع الباطل[1].

= ترجم كتاب اقتصادنا للشهيد الأول الصدر إلى اللّغة الإنكليزية، بالإضافة إلى كتب أخرى كان قد أتحف بها المكتبة الإسلامية، وقد كان قبلها أستاذاً في جامعة بغداد وفي المستنصرية أكثر من عشر سنوات. . .

(1) يمكن مراجعة ترجمة العائلة الكريمة في ما كتبه الدكتور حامد حفني داوود في مقدمة تفسير القرآن الكريم لجدّنا الكبير السّيد عبد الله شبّر.



النّشـأةُ

في محيط النّجف والشّارع الرّابع ومحيط المدرسة الابتدائية الّتي نشأ فيها كان المرتع الذي بدأت فيه حياة الشّهيد الكبير، إذ كان يتسم بشكل مميز في هدوئه وأخلاقه، وابتسامته، ودماثة خلقه بحيث صار عنواناً للولد الذي تجتمع العائلة على حبّه ومودّته.

فكنت شخصياً أرى فيه الحبّ الخاص الذي يربطني به، لأنه كان في غاية الهدوء والأدب والحبّ للآخرين، فكنت أرغب في أن أصطحبه معي إلى السوق وإلى الأماكن التي نحبّ أن نرتادها في فترة الصبا وفترة المدرسة الابتدائية، وكان في ذات الوقت محل إعجاب معلّمي المدرسة وكانت تسمّى مدرسة (النّضال) الابتدائية وهي لا تبعد عن بيتنا **إلاّ** شارعين، أي في الشّارع الثّاني من تفرّعات شارع الرّسول (ص)، وهي المدرسة العتيدة التي تغيّر اسمها من مدرسة (غازي) إلى (مدرسة النّضال) بعد انطلاق ثورة 1958 التي قادها عبد الكريم قاسم وكنت أنذاك في الصف الثالث الابتدائي، وعندما صرت في المرحلة السادسة في سنة 1961 كان السيد حامد إمّا في الصفّ الأول أو الثّاني وأرجّح أنه كان في الصف الثاني[1].

ومع أنّ الشّهيد السيد حامد لم يكن من المكبّين على الدّراسة، وهي

(1) كان المعلم كما أتذكّر اسمه هو نعمة رجيب يعرف العائلة ويعرف أنّه أخي الصّغير، فكان أحياناً عندما ألتقيه في بعض الدروس كان يشيد بأخلاقه وبذكائه وهدوئه وكان مختلفاً عن بقية الأطفال في الصّف، وقد قال لي مرة بأنّ حامد يجب أن يكون له صف خاص به، قلت له لماذا يا أستاذ نعمة؟ أجابني: بأنني لا أريده أن يختلط ببقية التّلاميذ من الطلبة بسبب نظافته وحسن هندامه وهدوئه.

صفة لازمته في حياته، وفي توجهاته، فكان منذ صغره يتميّز بقدرة من الذّكاء، ولكنّه لا يرغب بأن يواصل الدراسة في المدارس الأكاديمية الحكومية بسبب شعوره بأهمية التوجه نحو العلم الدّيني الذي كان أنذاك طريقاً فيه الكثير من العقبات والمصاعب لأسباب كثيرة لسنا في مجال الخوض فيها أو مناقشتها[1] ولكنّه في ذات الوقت كان هادئاً غير مشاكس كما هي عادة الطلبة غير المحبيّن للدراسة الذين يبدون معارضة لما يلقى إليهم من المواد الدّراسيّة أو أنّهم يتحولون إلى طلبة مشاكسين يؤثرون على مسيرة الدراسة.

وأتذكّر أنّني رجعت يوماً إلى البيت فوجدت أخي الصّغير السيد حامد يبكي بكاءاً مراً، وكان يومها طالباً في الثّاني الابتدائي، فتعجّبت من الأمر ودخلت البيت مسرعاً فوجدته قد وضع يده على جانب وجهه وهو يشكو من ألم شديد، أبعدت يده عن مكان الألم[2]، فما كان مني إلّا أن حملته على كتفي وركضت به نحو طبيب كان قريباً من بيتنا[3] وطرقت باب البيت بشكل غير هادئ حتى خرج الطبيب وهو يسأل عن سبب هذا الطرق الشديد، فقلت له وآثار الألم على وجهي: إن أخي هذا يحتاج إلى علاج، ثم أريته مكان الحرق، فقال لي لا عليك سأعالجه الآن، وأدخلني إلى الداخل ثم سألني عمّن أكون أنا، قلت له إنّني ابن السيد جواد شبّر، أتذكر أنه قال لي بعد الانتهاء من العلاج ووضع لصقة على جانب صدغه

(1) في ذلك الوقت كان الطالب إذا أراد الالتحاق بالحوزة العلمية فإن عليه أن يترك المدرسة الحكومية في المراحل الابتدائية وفي سن مبكّرة ويلتحق بالمدرسة الدينية للابتداء معه بتدريس اللّغة العربية الصّحيحة لا لغة المدارس العامّة.

(2) فعرفت بأنه اقترب من المكواة التي كانت والدتي تستعملها لكي الملابس وكانت أنذاك من النّوع الذي يتوجّب أن يُطفأ بمجرّد أن ترتفع حرارته وليس من النوع الحديث الموجود الآن في الأسواق، ويبدو أن الوالدة الكريمة لم تدرك ذلك، لأنه وللمرة الأولى نشتري مثل هذه المكواة فنسيت أن تطفئها، واقترب منها السيد حامد ولا أعرف وبأية صورة كيف لامست المكواة وجهه فتركت أثراً للحرق على جانب خده الأيمن.

(3) اسمه كما أتذكر د.محمود شوكت.

الأيمن، قال لي بأن علي أن أخبر والدي بأنه فخور به، ومع أنني لم أفهم ولم أسال عن جانب ذلك الفخر الذي رفعه الطبيب إلى والدي، ولكن بعدها وبعد أن أخبرت والدي كان عليه أن يذهب إلى بيته لإعطائه أجرة العلاج، وكان ذلك بعد شهر من الحادثة، فأبي وقتها كان في سفر خارج النّجف، وعندما ذهبنا معاً إلى الطّبيب أخبر أبي بعد أن استقبلنا بأحسن استقبال: بأنه يفتخر بمواقفه الوطنية في مقاومة الهجمة الشرسة للمدّ الأحمر الغوغائي الذي انطلق أنذاك في العراق.

بدأ شهيدنا الصّلاة في مقتبل عمره، ربما كان في السادسة، أو السابعة من عمره، وكان يحرص على أدائها في أوقاتها وفي المساجد المنتشرة في النّجف، وخصوصاً في الحضرة المشرّفة لضريح الإمام علي عليه السّلام، إذ كان يصلي في معظم الأحيان خلف العلّامة الكبير الشيخ حسين مشكور الذي كان أنذاك يؤدّي صلاة الجماعة في الجانب الشرقي من الصحن، ويؤدي المرحوم السيد محسن الحكيم صلاة الجماعة في الجزء الغربي منه[1] وعندما تقدمت به السنّ ربما في السّادس الابتدائي فإنّ وعيه العام بدأ في النضج والتّطور وكنت أنذاك في المراحل المتوسطة وكانت الظّروف السّياسية قد اتّجهت بعد ثورة البعثيين الأولى والشّراكة مع

(1) الشيخ حسين الشيخ مشكور (ت1967) عالم كبير من علماء النّجف الأشرف ومن فقهائها ومتحدّثيها، وكانت تربطنا به علاقة عائلية كبيرة، كان يحتوينا وكأنه أبونا، ويفيض علينا من رقته وسماحة خلقه، ولم تتوقف العلاقة مع هذه العائلة الكريمة بوفاة الشيخ العلّامة وإنّما استمرّت مع ابنه العلامة الكبير أستاذ الأخلاق والفخر الشيخ نوري مشكور ثم أولاده رموز العمل الإسلامي والتّضحية في العراق د. فخري مشكور، الشهيد عبد الأمير مشكور، الشهيد د. علي مشكور، د. محمد حسن مشكور ثم الآخ الصّيدلي محمد تقي مشكور، د. عماد مشكور، الأخ كاظم مشكور ثم ضياء وشمسي. . . الشّخصيات الّتي رفعت أسمى قيم العلم والجهاد فضلاً عن التدين والتقوى والورع، ولو شاءت الظّروف أن أروي ما يمثّل كل من هؤلاء من سيرة عطرة لملئت الصفحات بما يملكونه من قدرات علمية وفكرية وإنسانية. (راجع سيرته في كتاب أدب الطف، للخطيب السيد جواد شبر).

التيّار القومي في سنة 1963 قد تعقّدت أشد تعقيد، في الوقت الذي كان التيار الديني محصوراً في المساجد، والحسينيات، ولم يكن أنذاك قد ظهر إلى الواقع الاجتماعي والواقع السياسي في زمن كانت صور التشكيل السياسي الإسلامي تظهر خجولة بين الفينة[1] والأخرى على يد الأحزاب التي بدأت توها في التشكيل مثل (الشباب المسلم) الذي أقامه، وأسّسه المرحوم العلّامة عزّ الدّين الجزائري[2] وبعضاً من أواسط المثقفين، والمعلمين في النّجف، ومن الكسبة الشباب فأصبح عنواناً أولياً للوعي الذي لم يعرفه الناس، ولم يتعودوا عليه بعد، مع أن المجموعة المؤسّسة لتجمّع الشباب المسّلم برزت من رحم النجف ومن رحم الحوزة العلميّة ومن شخصياتها المثقفة.

وقد كانت هذه الحركة التي حلّت نفسها فيما بعد. قد بثّت الوعي الإسلامي في النّجف وشاركت في بناء جيل إيماني رصين انعكست آثاره على واقع النّجف التوعوي[3] كان السيد حامد غالباً ما أراه وبالرغم من صغر سنه يرتاد تجمعاً يومياً علنياً يلقي فيه الموعظة شخص طيب النفس اسمه (حاج رزاق)، وكان يرتدي العقال قبل أن يرتدي العمامة فيما بعد، وكان هذا الرجل يلقي موعظته إلى تجمع من الأطفال في صحن الإمام علي عليه السلام بعد صلاة المغرب والعشاء في طرف الباب الذي يفضي إلى شارع الطّوسي، وكان يحضر ذلك التجمع ما يقارب الخمسين طفلاً أو أكثر ومن أعمار مختلفة، يتعلّمون الصّدق والأخلاق والصّلاة وفوائدها وغيرها من المفاهيم التي لم يتم التطرق لها في أيّ من المحافل الدينية أو المحافل

(1) هكذا ما كان يتراءى لنا أنذاك وربما الصورة مختلفة عما كنّا نراها.

(2) عز الدين الجزائري مؤسس حركتين إسلاميتين، للكاتب د. جودت القزويني.

(3) مع أن الدكتور القزويني يرى بأن حركة الشباب المسلم قد كونت حركة إلى جانبها لكي تكون ذراعاً لها في الجامعات تلك هي (العقائديون) الحركة التي لازالت تعمل في أوساط الواقع الإسلامي. ولها أمين عام ساير انتقال الحركة من طور إلى آخر.

المدرسية، الأمر الذي دفع بالكثير من صغار السن للتوجه إلى معاقرة الأفكار الوضعية مثل الشيوعية والقومية والبعثية وغيرها، فكان هذا المجلس مع بساطته منبراً جيداً يبثُّ المفاهيم في عقول أولئك الصّغار، ومع إنني كنت أرتاد مثل هذه المجالس في الوقت الذي كان الوعي لدي هو أكبر من الكلام المطروح في هذا المجلس بسبب المواصلة التي كنت قد اكتسبتها من الاتصال مع روّاد الوعي، وكنت غالباً ما ألتقي بالبعض منهم في مكان بيع الكتب في النّجف (قيصرية الكتب)[1].

---

(1) عبارة عن زقاق يتكون من جزأين يرتبطان عند منعطف كل واحد لا يتجاوز طوله ربما عشرين متر، تقع القيصرية والتي يأتي الإسم من شكل البناء الذي هو عبارة عن سوق داخلي وليس في مسيرة السوق العام أمام ضريح الإمام علي عليه السلام تماماً، لها ثلاثة مداخل أحدهما على سوق الحويش، والآخر على دورة الصحن، والثالث على ارتفاع يقال له (الطّمّة) والتي تعني المرتفع... وكنت أرتادها في البداية مع والدي الشهيد، ومن ثم عملي مع أحد بائعي الكتب في العطلة الصيفية، ساعدني هذا السوق كثيراً في أن التقي مع البعض من روّاد الأفكار هنالك، وكان ممن التقيت بهم هنالك هم الآن في قيادات الأحزاب الإسلامية وقيادات الحركة الإسلامية في إيران الآن وفي لبنان، وكان أكثر ما كنت أستأنس بلقائه (كأب) هو الشهيد الصّدر الأوّل الذي كان يعود من الدّرس الصّباحي مخترقاً قيصرية الكتب ذاهباً إلى البيت من الصّحن الشّريف. في الوقت الذي كانت القيصرية لم تفتح أبوابها في الصباح الباكر، وكنت أحرص على ذلك بعد أن أستيقظ مبكراً وأذهب إلى حيث أرتّب رزم الكتب ثم الاطلاع على البعض منها، ثم التّعرف على القادمين من المحافظات الأخرى من الذين يشترون الكتب في أثناء مرورهم بالنجف، وكان الشهيد الأول عندما يخترق القيصرية وهو يحمل كتاباً كبيراً ولعله كما أعتقد الآن كان كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري الذي غلفه بورق أكياس الاسمنت وهو يسير بكل بهاء وثقه بنفسه، ولم يتردد يوماً ما ولم يتأخر عن أداء التحية لي وأنا طفل صغير أجلس في محل باعة الكتب، وبدأت علاقتي معه منذ أوائل ذلك الوقت وربما في بداية سنة 1960، كان كتاب (اقتصادنا) و(فلسفتنا) قد نزل إلى الأسواق أنذاك وكنت أعرفه من كتابيه هذين، وكان الكثير من الباعة والمؤلفين في ذلك السوق يطأطئ هامته عندما يمرّ بالسّوق احتراماً له وتقديراً لعلمه، مع أن كتبه لم تجد طريقها بعد إلى الأمة في العراق، ولكنني أتذكّر بأّنّ الكثير من القادمين من المحافظات كان يسأل عن هذين الكتابين، وكان يسألنا أن نقوم بتجليدهما لهم إذ كانت النسخة الاولى من الكتابين قد طبعت في إحدى مطابع النجف وكان الورق غير ملتصق جيداً في داخل الكتاب. وهو السّبب الذي يدعو المشتري إلى =

كان الفرق ما بيني وبين أخي الشهيد يتميز بأنني كنت قد سبقت الآخرين من أترابي في شكل الوعي المتكون وكما أستشعر الآن وبعد أكثر من خمسين سنة على الحادثة بوجود الكثير من الخطأ بالرغم من التبكير في الوعي، وفي العمل وفي الثقافة... لأنّ التقدم عن السن الواقعي له مساوئه من الصعوبة أن يستشعر بها الإنسان وهو في ذلك العمر... لأنّني أرى الآن وفي الوعي الحاضر -وربما لا أكون دقيقاً بالمعنى العملي- بأنّ الطبيعة قد جعلت لكل عمر قدرات عقلية وثقافية، وتجاوز تلك المرحلة له تبعات سلبيّة على شكل التطوّر المستقبلي، وأعتبرها الآن قضيّة استعجالية غير مخطّط لها.

= أن يطلب تجليده. الذي وغالباً ما يستغرق أسبوعاً وهي الفترة التي تستلزم لإنجازه بطريقة يدوية... كذلك لم انسَ الأخ المجاهد عبّود مزهر قيادي حركي وعامل إسلامي له كتب منها (العمل الحركي في القرآن) وهو أخ الوجيه عبد الحسن الراضي صاحب دار التربية الإسلامية... وقد كنت أحرص عند فتح باب المكتبة أن أقرا آيات من القرآن. وهو من الأعراف النّجفية التي تعودنا عليها في أنها تجلب الرّزق، والقراءة هنا تكون بصوت منغّم بما يتمكن الإنسان... وأتذكر في أحدى الأيام وعندما كنت اقرأ القرآن كان الشهيد الصدر قد وصل في أثناء عبوره السوق من الصّحن الشّريف إلى بيته أو إلى جامع الهندي، وكان يحرص أثناء تلاوتي للقرآن أن يبطئ من سيره وأن يصحّح لي بعض الكلمات التي أخطأ في إخراجها وتنغيمها... كذلك كانت من الأسماء التي ترتاد السوق أنذاك هو الشيخ احمد الوائلي، العلامة الخطيب القبانجي، الشاعر جمال الدين...، كذلك الآخرون من أمثال الشهيد السيد جابر أبو الريحة والشيخ كاظم الكتبي والشيخ الورّاق، والشيخ الأعلمي... والحاج ابو عصام دخيل وغيرهم مما انتقل إلى عالم الشهادة إلى جوار آل محمد ﷺ. (راجع المصدر السابق مدينة النجف للمظفر).



بدايات

كان أخي الشهيد يرافقني أحياناً في صغره إلى المكان الذي أعمل به في العطلة الصيفيّة، وكان يجلس طفلاً صغيراً لا يفقه التغيّرات التي تجري على السّاحة، وكان الولد الصغير غالباً ما يكون صامتاً مستمعاً هادئاً[1] وقد وجدتُ بأنّ مجلس الأطفال الّذي يقام في الصّحن الشّريف ربما هو أنسب الأماكن لأخي الصّغير الذي بدأ ينحو منحى الدّعاة في جلب الأطفال الآخرين إلى ذلك التجمع بشكل لا يخلو من البراعة والدّقة، وقد وجدته يوماً في أوائل الستينات ومعه حوالي عشرة أطفال من أبناء حارتنا وهو متوجّه إلى ذلك المجلس، وعندما رأيته همست في أذنه وقلت له: أنت إنسان قائد، في الوقت الذي لم يعرف معناها ربما أنذاك، فضحك في وجهي، ثم قلت له لا تتأخر ليلاً في العودة إلى البيت.

وتزداد نشاطات الأطفال في ذلك العمر في مناسبات شهري رمضان ومحرم الحرام، مع ازديادها في شهر رمضان لما له من طعم آخر بسبب الدقة في تنظيم المناسبات، بالإضافة إلى الوقت الّذي كان يحلّ فيه الشهر المبارك في الشّتاء، بينما كان شهر محرم يحلّ في الصّيف حيث تختلط فيه العطلة الصيفية بنشاطات المواكب الحسينية، وقد كنت ألتقيه كثيراً في الصحن الشريف وهو يؤدي عبادته بكاملّ الخشوع والاحترام للمكان الذي تؤدى به تلك الشعائر، ولم أجده يوماً إلّا ومعه مجموعة من الجيران ومن أصدقاء المدرسة يمارسون معه الصلوات والعبادة وقراءة القرآن.

وعندما تعدّى سنّه الثانية عشرة كان الشّهيد الكبير يلتقي في مجالس

---

(1) كان باعة الكتب في تلك السّوق الضّيقة يضعون أمامهم منصّة خشبيّة صغيرة لعرض الكتب عليها وكانت أيضاً تستعمل للجلوس.

روحانية يقيمها العلّامة الكبير المربّي (الشيخ سيبويه) التي كان يحييها في رمضان في جامع الشيخ الطّوسي، وكانت تلك الدروس متميزة بعمق الجانب الإيماني والجانب الفقهي والتربوي، حيث كان الشيخ الكبير العلامة مدرسة في الأخلاق والسلوك، وضعت الكثير من الشباب في هذه الأعمار على الطّريق القويم نحو العمل ونحو الجهاد.

ولا أخفي أحداً سراً بأنني كنت أينما التفتُّ في عملي الدعوتي في الاتصال مع الشباب والناس إلّا وأجد أخي السيد حامد قد سبقني إليه في الأماكن التي كنت أعتقد بأن الوعي الإسلامي من الممكن أن ينموَ فيه أو أن يبتدئ فيما بين أبنائه.

وقد كنّا في أعمار السنين الأولى من الجامعة في الفترة التي وصل بها البعث إلى الحكم، وعندما كنا نعود إلى النّجف في العطلة الصيفية كنا نحمل الكثير من الطاقة للعمل الإسلامي مقابل التحدّيات البعثية واليسارية التي كانت مسيطرة على السّاحة العراقية السياسية عموماً، وأعني به الشيوعية التي بالفعل كانت الحركة الفكرية المسيطرة على مجريات الواقع الشّعبي، فالشيوعيون هم المثقفون والشخصيات التي لها عمق شعبي فيما بين الناس من الشعراء، والأدباء وأصحاب المهن وغيرها، وليس أدل على ذلك من شخصية القائد الكبير اليساري الذي أكنّ له احتراماً مع اختلافي العقائدي معه ذلك هو السيّد حسين الرضوي عضو اللّجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي[1].

وكنت أتساءل حينها عن سبب تحول هذه الشخصيات التي عاشت وترعرعت في المحيط الديني في النجف أن تتوجّه إلى فكر مادي اشتراكي،

(1) اسمه الحركي سلام عادل الذي كان قد نمى وترعرع في المحيط القريب من دارنا، مع أنني لم أره، ولم ألتق به بسبب فارق السن الكبير بيننا، ولكنني كنت أعرف إخوته وأباه وبقية أقاربه، وأتذكر الوقائع التاريخية المبدئية في طريق التّوجهات اليساريّة، سلام عادل قتل بشكل وحشي لا مثيل له بعد تعذيب وحشي ويقال بان رجله قد سحقت بماكنة تسوية الارض فمات من وقتها ذلك بما نشرته مذكرات نشرت في جريدة الحياة اللندنية، كذلك كتاب (سلام عادل سيرة مناضل) لثمينة ناجي يوسف ونزار خالد.

وكان هذا السؤال غالباً ما يلازمني في ذلك الوقت الذي أحاول من خلاله أن أتفهم تلك الدوافع التي أدت بأولئك الشّاب الذي تربّى وتعلّم في مدينة علم، وفي منطقة لا تبعد عن ضريح أروع قائد إسلامي في العالم ذلك هو الإمام علي عليه السلام، وفي أرفع مدرسة إسلامية تلك هي مدرسة النّجف وفي محيط مليء بالعلماء والفطاحل من أصحاب الفكر وفي جوّ تزدهر به الثّقافة، ثقافة الكتاب وثقافة الحديث أن ينتهلوا من الأفكار اليساريّة. . . ؟

وعندما كبرت واجتزت مراحل كثيرة في حياتي، وعندما انفتحت على الشعوب وخصوصاً الشعب الأمريكي وتعلمت طرق نشر الوعي والأفكار تفهمت مبدأين مهمين، ذينك المبدآن هما: (مبدأ الفكر) و(مبدأ تسويق الفكر) وهما اختصاصان مختلفان جداً ليس بينهما عوامل إرتباط، وإنما كلٌّ له رجالاته ولكلّ له طاقاته وتخصصاته المتباينة[1].

ففي العراق نحن نملك فكر ونملك أعداداً من المفكرين، ولكنّ ينقصنا المسوقون للفكر (الجانب الإعلامي)، ومادام التسويق غير فعّال، فإنّ الفكر سوف لا تجد له محلاً فيما بين عقول النّاس ﴿أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن﴾ [النحل: 125] فالشّخصيات مثل (سلام عادل) و(هادي العلوي)[2] وغيره لم تصلهم أفكار الإسلام بالشكل العملي، وبالشكل الذي يفترض أن يكون، ولذلك فإن تلك الأفكار لم تدخل إلى قلوبهم وعقولهم. فالإنسان يمكن أن يملك أفضل إنتاج صناعي أو طبي، ولكن هذا الإنتاج سيبقى على الرف مركوناً إذا لم يقترن ذلك الأنتاج بأفكار تسويقية ناجحة.

(1) يعطي علماء الاقتصاد أو علماء التسويق الفكري نسبة كبيرة من مجمل عملية دورة البيع أو دورة الإقناع إلى أكثر من 25% من مجمل التأثير، وقد ترتفع أكثر من ذلك في حالة الأدوية أو في حالة تسويق الفكر الديني أو الفكر الإقناعي. Theology, Evolution and the Mind, By: Neil Spurway, Cambridge Scholars Publishing.

(2) كاتب يساري معروف له مؤلفات كثيرة أهمها هو كتاب (الحركة الجوهرية) وكتاب (التعذيب في الإسلام).





الوعي المبكر



ويتطوّر وعي الشّهيد الكبير أخي السيد حامد ليتحوّل إلى عمل مبرمج، انتقل من ذاته إلى نشر الوعي العام مع أخواته الصغيرات، ومع جيرانه، ومع أشقائه في المدرسة الابتدائية التي كان الأطفال أنذاك يعتبرون أنّ الصّلاة والعبادات شيء من التأخر، وذلك في سنيّ أوائل الستينييات التي عاشها العراق، وفي خضمّ الهجمة الماديّة الكبيرة التي اجتاحته واجتاحت مجتمعاته، حيث كانت الصلاة مقتصرة على كبار السنّ والعجائز، وأنّ على الشباب أن يُمارس الأفكار التقدمية التي هي في الواقع الفكر اليساري الذي بدء يسير بدرجة متقدمة في كل البلدان العربية عموماً والعراق خصوصاً.

إذ كان الواقع الاجتماعي يملأه الفقر، فالوظائف شبه معدومة، والحرمان يملأ كل جانب من جوانب المجتمع. وأخص بالذكر منهم الجنوبيين من الشيعة ومن الطبقات المحرومة، إلّا من وظائف متدنيّة لا تدر على العامل فيها شيئاً يُذكر.

كان الصّراع مستعراً ما بين الفكر اليساري والفكر الديني الذي كان يُوصف (بالرّجعية).

وكانت أجلى صوره هي النجف التي كانت تعاني من مشكلة الفقر، ومشكلة لجوء أعداد كبيرة من الجنوبيين الشيعة لها طلبا للمعيشة، ولذلك تحوّلت هذه المدينة وبسبب عوامل الفقر إلى ساحة خصبة لنموّ الأفكار اليساريّة الّتي جاءت بمفاهيم المشاركة مع الغنيّ في رأس المال، وشعار إلزام الدّولة توفير الغذاء والوظائف. وهو ما لاقى قبولاً كبيراً في أوساط الكثير من أفراد المجتمع النجفي، وليس بمستغرب أن نجد السكرتير الأول

للحزب الشيوعي العراقي كان من النّجف الذي ذكرته تواً تلك الشخصية التي برزت من رحم الجوع والحرمان، بالإضافة إلى أسماء أخرى كلّهم كان الدافع لهم في سلوك طريق الأفكار اليسارية هو الحرمان والفقر، ولكي لا نغمط للفكر حقه مهما كان توجهه وقربه أو بعده عما نؤمن به فإنه من العقل أن نرى في كل الافكار التي يبدع بها الإنسان وخصوصاً تلك التي ترمي إلى تحريره من قبضة التسلط والديكتاتورية إلى تقديرها واحترامها بما يتناسب مع القدرة الابداعية التي فكر بها المؤسسون أو العاملون عى نشر ذلك الفكر.

وكانت الحوزة العلميّة، المؤسّسة التي تُديرالوضع الثيولوجي للعالم الشيعي تعيش حالة خاصّة من الشدّ والجذب، خصوصاً بعد الفشل الذي أصاب الثوّار في ثورة العشرين، والتي تمكُّن بعدها البريطانيون من السّيطرة الكاملة على التّراب العراقي وغياب التأثيرات الدّينية السِّياسية على الواقع السّياسي مع الاعتراف بفاعلية الأفكار الدّينية المحافظة ما بين الأوساط الاجتماعية الخاصة التي توارثت الالتزام الديني اجتماعياً.

في هذا الجو الذي وفّر أرضية طبيعية لنشأة الأحزاب التي تأسست تواً واتخذت السرية شعاراً لها بشكل لا يمكن الإحساس بمنهج تلك السرية اجتماعياً أو تأثيريّاً (كالشّباب) قبلاً و(الدّعوة) في إبان ثورة 1958 أو ربّما قبلها بقليل.

ولكننا وبغض النظرعن دقّة يوم التأسيس فإنّ المسألة التي كانت تشغل الواقع السّياسي والاجتماعي أنذاك هو أين هي القيادة...؟ وأين هو المستقبل...؟ وأين موقع الطّائفة الشيعية من كل التغيرات التي تحدث في العالم وفي المنطقة...؟ وأين هي القيادة الواقعية التي ستحمل شعار القدرة على رفع مستوى المجتمع إلى الدّرجة التي يدرك حقوقه وحريته... أين هي؟

هل أن شاه إيران المقبور ومحاولاته في إلحاق الطائفة الشيعية

بالقومية الفارسية في العالم هو الذي يمثل الرمز الاجتماعي والسياسي. . .؟ وهل هي الشخصية التي من الممكن الركون إليها لحماية شيعة العراق من المخطّط المرسوم لها، في التخلُّص منهم وتذويبهم في محيط المجتمع العربي كله. . .؟ أو سحب عروبتهم وإلحاقهم بالقومية الفارسية التي كانت ترقص على أنغام هذه الخطّة والتي عمل جاهداً شاه إيران لإنجاحها في زمن كانت تلك الدولة تغلي على واقع السياسة التي قادها الإمام الخميني في أوائل الستينيات بما يُعرف بثورة (خردار) التي على أثرها حُكمَ على الإمام الخميني بالإعدام ثم خُفّفَّ إلى المؤبَّد ثم النّفي خارج البلاد.





عُمق الصّراع في حركة الإمام الخمينيّ في 1963



في **تلك الفترة بالذات** شمّرت حركة (الشباب المسلم) عن ساعديها لمساندة حركة الإمام الخميني، التي استعرت في إيران في الوقت الذي يبدو الشعب العراقي أنه كان بعيداً عن مسيرة الصراع الدامي السائد هناك، أمّا حركة (الدعوة) فكانت أنذاك فتيّة في خوضها صراع المواجهة مع الشاه إلى جنب حركة الإمام الخميني، بينما اندفعت الحركة الأولى في مواجهة أفكار الشاه في توجهه إلى إعدام الإمام الخميني وذلك من خلال تنظيم الاعتصامات وتوزيع المنشورات وصور الإمام والاتصال المباشر مع المراجع الموجودين أنذاك في النّجف والذين كانوا ربما أكثر من خمسة[1].

كان كاتب السطور مع بعض الشباب له شرف الاشتراك في بعض هذه الاعتصامات والاحتجاجات، ففي فترة الظّهيرة، وعندما يخرج المصلّون من الصّحن الشّريف كنّا قد وضعنا طاولة عليها دفتر لجمع تواقيع الاحتجاج على قرار نيّة الشاه في إعدام الإمام الخميني، وكنا في وقتها نحث الخارجين من الصّلاة على وضع أسمائهم وتواقيعهم، وأتذكّر بأنني يوماً من الأيام قد انتدبت أخي الشهيد لمساعدتي في إعلام النّاس وهم في أثناء انتهائهم من إكمال صلاة الظهر في حرم الإمام حيث وضعت الطاولة

(1) أبرزهم الإمام الحكيم رحمه الله، ثم السيد محمود الشاهرودي رحمه الله، ثم السيد الخوئي رحمه الله بالإضافة إلى أسماء أخرى مثل السيد عبدالهادي الشيرازي والسيد محمد الحسني والسيد الحمّامي والسيد عبد الله الشّيرازي والشيخ علي كاشف الغطاء والشيخ حسين مشكور والشيخ مرتضى آل ياسين والسيد جواد التبريزي وأسماء أخرى ممكن للمطّلع على التّاريخ أن يجدها في كتب التاريخ التي سجلت تلك الحقبة من الصّراع. (محمد باقر الصدر، أحمد العاملي).

الصغيرة، وطلبت منه أن يذهب حاملاً صورة السيّد الخميني، ثم تشجيع المصلين قبل أن يعودوا إلى بيوتهم أن يضعوا تواقيعهم في الدفتر الموضوع[1]. وكنا نحن صغار السن قد التقينا صدفةً بشخصية عبد الرحيم محمد علي[2] وشخصية أخرى ثانية لم اتمكن من أن أتذكرها وكان من

(1) وأتذكر جيداً بأنّ أخي الشّهيد عندما عاد إلى البيت كان قد أخبر أبي بالنشاط الذي كنا نقوم به والذي كنت أخفيه عن والدي رأفة به من أن يتحمل متاعب أخرى من جانبي، ولكن أبي الشهيد الوالد لم يعترض، وإنّما قال لي بأنه يجب عليّ أن أحسب خطواتي، ثم سألني عن الجهة التي كلّفتني في إدارة الطاولة في باب الصحن الشريف.

(2) عبد الرحيم محمد علي كان شخصية مغمورة في النجف من وسط غير حوزوي يعمل معلماً في المدارس الحكومية، ولكنه كان يتميز بقدرات ثقافية وتأليفية كبرى منها (مصادر الدراسة عن النجف) وليس لي كامل العلم فيما إذا كان أنذاك ذو توجهاً قومياً كما بدى لي في تلك الفترة أي أواسط الستينيات أم لا. ولكنه كان دائم التردد على أماكن العلم وقيصرية الكتب وكان له حضور في مكتبة الشيخ الاميني، برع في جانب مهم جداً وهو كتابة سيرة العلماء الأحياء مع الصعوبة الكبرى التي واجهته في ذلك، فكان آخر ما كتب في فترة أوآخر الستينيات والسبعينيات هو عن شخصية الامام الخميني مع الصعوبة التي لا توصف التي واجهها من قبل الإمام ذاته في الحديث عن نفسه والسماح في تسجيل ما يفهم منه في أنه يبغي في ذلك من الدعوة إلى ذاته، وهي قضية حساسة جداً في الاوساط العلمائية. انتهى من الكتاب في حدود سنة 1977، لا أعرف من أين عرفت المخابرات العراقية في أوآخر عام 1978 بالكتاب الذي لازال مخطوطاً وهو الكتاب الأول من نوعه في أوساط الحوزة والعالم الشيعي ربما، وهنا يروي الاستاذ عبد الرحيم القصة لكاتب السطور شخصياً وأنا أرويها للتاريخ ليس إلّا، والآن الحديث إلى المؤلف: كنت في النجف خارجاً إلى السوق أحاط بي في الشهر السابع من عام 1979 رجال الامن، وأخذوني إلى البيت مباشرة وأخبروني بأن هنالك كتاباً مخطوطاً من تأليفك عن الامام الخميني، فقلت لهم نعم صحيح، قالوا نأتي لنأخذه، فوافقت مباشرة. وأنا في أشد حالات الخوف والرعب وفعلاً كان قراري في أن أعطيهم الكتاب مع كامل مسوداته وملحقاته. دخل كلنا المكتبة وجلست أفتش عن الكتاب تفتيشاً دقيقاً وبشكل جدي لأن الخيار الآخر هو السجن والاعدام، وقد لاحظ رجال الامن جديتي في التنفتيش وكانوا يفتشون معي وكانت مكتبتي تضم حوالي أربعة آلاف والكتب منتشرة في كل مكان من الحجرة، فقضيت ثلاث ساعات في التفتيش وبشكل كي يخلصني من الاعدام، وأخيراً لم نتوصل إلى ذلك. فخرجوا بعد أن تحسسوا جديتي في الامر (و هنا يقسم لي الأستاذ عبد الرحيم) قال: وبمجرد أن خرجوا وإذا بالكتاب أمامي وكأن الله قد وضع غشاوة على عيني من أن أراه. لم أسأله أنذاك =

قادة التيار الديني المنظم وهما اللذان زودانا ببعض تلك المنشورات. . .[1].

فبالرّغم من حداثة سن أخي السيد حامد، فإنني وجدت في دفاتر دراسته أكثر من صورة للإمام الخميني كان قد احتفظ بها لتوزيعها على الطلبة من أعماره، وقد نهيته وقتها عن الاستمرار فيها بسبب خشيتي عليه من الضرب أو الانتقام من قبل مؤيدي الطرف الآخر من أعوان الشاه، وفعلاً كان هنالك بالقرب من بيتنا مدرسة تديرها السّفارة الإيرانية وهي مدرسة ابتدائية، كما هي المدارس التي تقيمها سفارات الدول لأبناء جالياتهم[2].

وقد تعرّض أخي السيد حامد عندما مرّ يوماً وبعد ثلاثة أيام من الحادثة وإذا بطفل يكبره بثلاث سنوات وجّه له على لكمة، رجع على أثرها أخي إلى البيت وعليه آثار من تلك الضّربة[3] ولكنّ كلّ ذلك لم يغيّر من

= أين الكتاب، ولم أسمع عنه أي شيء، كل ما عرفت فيما بعد أن غادرت العراق إلى أمريكا بأن الأستاذ قد التحق مع قافلة الشهداء إلى بارئه.

(1) لم تكن السّلطة أنذاك في الوضع الّذي ترى في حركة السيد الإمام من خطورة على واقع الحكم. ولذلك لم تكن في وضع الاعتراض أو المجابهة، وإنّما كانت المعارضة الكبرى في النّجف هي من الخط الديني المحافظ الذي كان لا يرى في مقاومة الشّاه من مصلحة للتشيّع، قولاً منهم بأنّ البديل للشّاه هم الشيوعيون، ولذلك كان هذا الخط المحافظ يمثّل قوّة كبرى في محيط الحوزة فضلا عن آرائهم في تجنّب العمل السياسي عموماً، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة منها الحساسية ما بين حوزة إيران وحوزة النّجف، وما إلى ذلك من أمور كانت السبب في تولّد المعارضة ضد العمل الذي كنّا نقوم به، في تأييد حركة الإمام الخميني رحمه الله. (Hamid AlGar, 'Development of the Concept of velayat-i faqih since the Islamic Revolution in Iran).

(2) تقع قرب محكمة بداءة النجف في محلة الجديدة والتي كان الكثير من أبناء المعمّمين العرب يفضلون في تدريس أبنائهم فيها بسبب الخصوصيّة والإلتزام الذي تتمتّع بهم فيما يخصّ الأخلاق وغيرها.

(3) لم يكن يصدر من المدارس الإيرانية ما يشين بسلوكها العام، وإنّما كانت تتميّز بأنّها بعيدة عن السّياسة والصّراعات الدّينية، وكان القائمون عليها من الشخصيات المعروفة في النّجف.

موقف الشهيد حامد، بل زاده إصراراً على الاستمرار في نهج التغيير ونهج بناء رؤية صادقة لمستقبل الفكر الإسلامي الذي كان يتبلور في مسيرة الحوزة العلمية ومسيرة المجتمع، ولم يكن في ذلك الوقت من الأفكار ما تدعو إلى الفصل الاصطناعي ما بين السياسة وبين الدّين كما هو الآن، إذ أنّ أدبيات التشيّع الذي نفهمه هو أنّ (الدولة) هي التي يقودها المرجع، أمّا غير المرجع فإنّها دولة لا تحمل من الشرعية شيئاً، وهو التّصور ربّما السائد أنذاك فضلاً عن الآراء التي كانت تنطلق من الواقع التاريخي في مسيرة المواجهات ما بين الحكام وبين التشيّع الحركي.

كانت هذه الحادثة ربما الأكثر تأثيراً ليس على عقل الشّهيد الصّغير وإنّما كان لها واقع على عقلي، وأنا في الثالثة عشرة من العمر، في المحيط الذي كنت أرمي في طموحي الشبابي إلى عمل شيء ملموس في اتّجاه الصّراع في طريق إنقاذ مستقبل الطائفة الشيعية في العراق، في الوقت الذي تبدو هذه الطائفة وهي تعاني من مستقبل غامض أمام تكالب القوى الأخرى في إبقائها متأخرة وبعيدة عن اللّحاق بركب العالم.

وكانت أيضاً هذه الحادثة طريقاً آخراً للتعلّق بالإمام الخميني منذ ذلك التاريخ والذي كنا نرى فيه الشّخصية الّتي فهمت واقع التشيع وواقع الدولة عموماً.

وعندما رحل الإمام إلى العراق في أواسط الستينيات قادماً من تركيا كانت النجف تعرفه وكأنه ليس ذلك الغريب الذي وصل، وإنما كانت قاعدته الاجتماعية مبنيّة ومهيّئة لتقبل أفكاره واتجاهاته، مع صعوبة الظروف التي خلقها المناوئون لخط مسيرته.

وكنت أتذكر أنذاك وأنا في السنة الأولى أو الثانية في الجامعة في سنة 1968 إذا لم تخنّي ذاكرتي رجعت يوماً إلى النّجف في عطلة نهاية الأسبوع وإذا بأخي الشهيد السيد حامد يطلب مني أن نذهب لزيارة السيد الإمام الخميني، حيث أخبرني بأنّه ومجموعة من الشباب كانوا قد زاروه

في داره وسلموا عليه، وأنه يدعوني إلى زيارته أيضاً، ويريد أن يرافقني في زيارتي له، شجّعت الشّهيد السيد حامد واحترمت فيه هذا الموقف النّبيل، في وقت كانت عيون المخابرات منتشرة في كلّ زاوية من زوايا النجف وحول بيت الإمام في السنة الأولى من وصول حزب البعث إلى الحكم.

في ذلك الوقت رحّبت بالفكرة أيّما ترحيب وأعددت العدّة للزّيارة، وكنت قد هيأت نفسي لكي أسأله عن فكرة الحركات الإسلامية في العراق بطريقة خاصّة لكي لا أثير الأجواء وأحرج شخصيته بهذا السؤال الذي كان ربما قد تكرر أمامه عشرات المرّات، والذي قد يجد الصّعوبة في تفصيله بسبب الظّرف السّياسي المعقّد، ولكنّ الأمر -أي نيّة الزيارة- لم تلق ترحيباً من قبل الكثير ممن استشرتهم إذ أخبروني بخطورة هذه الخطوة، ولكنني لم أتوقف عند هذا الأمر، بل قررت على أبسِط الأمور أن أسلم على الإمام[1].

ولم نزر الإمام **إلاّ** بعد حادثة إعدام الشهداء الخمسة في عام 1974[2]

---

(1) وفعلاً وفي ذلك اليوم انتظرت الإمام مع أخي الشهيد حتى إذا وصل إلى الشّارع توجهت نحوه بشيء من العاطفة الجيّاشة لتقبيل يده والكلام معه، ولكنّه رحمه الله كان هادئاً جداً، بل إنه لم ينطق بكلمة أو حتى ترحيب أو ما شابه، وحتى أنّه لم يسمح لنا بتقبيل يديه وهو عُرف اجتماعيّ في النّجف وربّما في العالم الدّيني عموماً، خصوصاً مع المراجع الكبار، وغالباً لم يكن مقتصراً عليهم فقط، وإنّما كانت العائلة تعلمنا على تقبيل يد الأب والأم والعمّ وكل كبير. ومن هم في موقع الإحترام سواءاً كان الإحترام الدّيني أم الإحترام الشّخصي مما أصابني نوع من التعجب لأنني لم أتوقعها من مرجع، ولم أواجه مثل هذا الموقف قبلاً، بادر أخي الصّغير بعد أن شاهد أثر ذلك سلبياً على وجهي إلى الإمام ليعرّفه رحمه الله عليّ وبشكل أثار إعجابي وأزال خجلي. عندها ابتسم الإمام بشكل هادئ بحيث سمح لي بأن أمسك يده وأنحني قليلا أمامه، وأقرّب وجهي نحو يديه المباركتين، وبعد كل ما حصل قررت أن لا أسمح لنفسي بالسّلام على السّيد الإمام أو تقبيل يديه في المستقبل، وأكتفي بالسّلام العادي فيما إذا صادفته أو رأيته في الضّريح الشريف، أمّا أخي السيد حامد فكان ردّه لم يتعدّ أكثر من ابتسامة عادية ودون إظهار أيّ نوع من التأثر أو غيره.

(2) وهم الشيخ عارف البصري، السيد عماد بن السيد جواد التبريزي، السيد عز الدين =

وكنا نرمي من زيارتنا له نوعاً من التوجيه مقابل هذه الفداحة الكبرى في إعدام قبضة الهدى، وهل إنه في الموقع الذي يسمح له أن يقول بالتحرك أو الثورة. . .؟ وكانت الكلمة الوحيدة بعد نصف ساعة من الحديث من قبلنا وإظهار أسفنا وألمنا مع غزارة دموعنا أن قال كلمة واحده فقط لا غير، تلك الكلمة هي: (سأدعو لكم. . . ثم قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون) وانتهت المقابلة بشكل لم نفهم ماذا يعني ذلك، ولم ندرك نحن آنئذٍ المغزى والحكمة من كل ذلك، ولم يدر في خُلدنا خيار آخر **إلاّ** أن نقول: بأنّه سبحانه عز وجل يعلم أين يجعل رسالته.

أقام الشهيد السيد حامد علاقة صداقة مع أحفاد السيد الإمام الكبير، وصار قريباً من دارته المباركة[1].

وكان يعلمني عن أي إصدار أو عمل أو مبادرة يقوم بها الإمام الخميني بما يخصّ التوجه والتهيؤ للثورة أو المقاومة ضد نظام الشاه آنذاك، وكنت كلما التقيت شهيدنا السيد حامد وكان يومها في المرحلة الثانوية، كنت أطالبه دائماً توخّي الحذر من عيون المخابرات التي كانت تبحث عن الفرص لإلقاء القبض عليه، ولكنه كان بعمق خلقه مثار محبة ومودة حتى من قبل أعدائه ومبغضيه، فعناصر المخابرات كانت ترى فيه وفي سلوكه واعتداله نوعاً من الإنسانية التي من المؤلم أن يلقى القبض عليه وهو في هذا السن المبكّرة من العمر.

= ابن السيد حسن القبانجي، السيد نوري طعمة، السيد حسين جلوخان. . . وهم من أوائل طلائع الشهداء في مسيرة الصراع مع البعث في العراق، ويمكن مراجعة ترجمتهم في الكثير ممّا كتب عنهم وهم الطليعة التي سميت (قبضة الهدى). (راجع موقع مؤسسة الشهداء (www.alshuhadaa.com)).

(1) ذكر لي المسؤول الإعلامي لرئاسة الوزراء في العراق وهو ممن تربى علي يد السيد حامد بأنه هو وأحد رؤساء وزراء العراق في العهد الحالي واجهوا مشكلة في انتقالهم إلى إيران من سوريا في بداية نجاح الثورة الإسلامية فقرّروا أن يتّصلوا بالسيد حامد من سوريا لكي يبحث الأمر مع حفيد أو ابن الإمام الخميني لتسهيل الأمر لهم.



وثيقة مبايعة الدّم



كانت الأحداث في بداية السّبعينيات ساخنة بشكل كبير بين السّلطة البعثيّة وبين التيار الجماهيري الواسع الذي بدأ يأخذ طريقه بين النّاس، على أساس العودة إلى الدّين. وهو التيار الذي بدأ بعد نكسة حزيران 1967 التي كانت قد فتحت الطّريق الواسع أمام وعي الجماهير للتّوجّه نحو أصولها وأفكارها التي فارقتها بسبب الضّربات الكبيرة التي وجّهها له التيار المادّي اليساري، الذي كان الاتحاد السوفيتي يقوده بقوّة في المنطقة العربية، بل في كلّ العالم أملاً في فرض السّيطرة على العالم الإسلامي وعلى المياه الدافئة كما يسمونّها.

وكان العائق الأكبر لها هو الفكرة الدينية التي تعتمل مع نفسية الإنسان بشكل مستمرّ وفعّال في رفضها للافكار الإلحادية التي تحملها تلك النظرية المادية الماركسية، ولكن الغرب سبق الاتحاد السوفيتي بالقفز والسّيطرة على العراق من خلال مجيء البعث إلى الحكم في سنة 1968[1] وهو الزّمن أو الفترة التي غُيرّت الكثيرمن الأنظمة العربية مثل ليبيا وسوريا والعراق واليمن والصومال والجزائر، في الوقت الذي كان هذا الإجراء يتمّ من خلال امتصاص النّقمة الشّعبية العارمة التي اجتاحت الشّعوب الإسلامية والعربية من جرّاء نكسة حزيران المذلّة التي أفقدت ثقة الجماهير بقادتها ورؤسائها، وهو ما دعى المخطّطين الدوليين من الشّرق والغرب للاستفادة من الفرصة والقفز في هذا البلد أو ذاك، وتحقيق ضربة كبيرة والسّيطرة عليه.

---

(1) قول عبد الرزاق النايف أول رئيس وزراء بعد انقلاب 1968 إذ اعترف بأنّ الإنقلاب جاء من خلال قطار أمريكي، وقد اغتيل النايف فيما بعد من قبل صدّام وعصابته. (أوكار الهزيمة، الفكيكي).

ولقد كانت انقلاب 17 تموز من سنة 1968 التي قادها التيّاران البعثي (اليسار واليمين) كما يسمونّه. قد خططا للعمل على إزاحة الشخصية الضعيفة (عبد الرحمن عارف) من الحكم والذي كان أنذاك نظاماً يتحكم به (جمال عبد الناصر) بطريقة (الروموت كنترول) في الوقت الذي كانت المخابرات والمصالح الأمريكية ترى مصلحتها في احتواء نظام عبد الناصر (المارق) ومن تبعه كسوريا والعراق وضمّها إلى أهداف سياستها البعيدة الرؤية، وهو ما كان يسمى في العرف العام.

أما نظام البعث السوري أنذاك فإنه كان في تناغم من التوجهات الأمريكية بطريقة ما، وبالتوافق مع الواقع السوفيتي (بعث اليسار) كما يسمّى، أمّا (البعث اليمين) الّذي كان يقوده (ميشيل عفلق) المؤسس. فقد كان يقيم علاقات متينة مع التوجهات البريطانية التي كانت أنذاك وفي زمن ما يسمّى (بالحرب الباردة) على نقيض مصلحي، لا سياسي مع التّوجّهات الأمريكية التي بدأت تحتلّ المواقع التي بدأت تسقط تحت الضّربات الغربية. . .

هذا الانطلاق والاستعلاء الأمريكي أثار حفيظة الوجود البريطاني الذي كان يرى في المنطقة العربية إرثاً تأريخياً له، وهذا ما خطّط له منذ بداية القرن العشرين، فليس من العقل أن تأتي القوّة الأمريكية بشركاتها وقدراتها لتستوعب ما بناه البريطانيون خلال أكثر من ثلاثة أرباع القرن، هذه الفكرة كانت جليّة إبّان الحرب الخفيّة التي تستعر أحياناً ما بين السياسة البريطانية وبين السياسة الأمريكية في المنطقة العربية، ومن الطّريف أن نذكر أنّ السياسة السوفيتية كانت في معظم الأحايين تميل إلى السّياسة البريطانية منها إلى الأمريكية.

وهكذا وبعد اتّفاق الطّرفين بعثي اليسار واليمين على انقلاب 17 تموز من سنة 1968 ونجاح الانقلاب وجد الخط البريطاني أنه أمام واقع قوي لضرب شركاء الأمس والاستحواذ على العراق كله، وهو ما قامت به الخطوط التي كانت متماسكة بقيادة ميشيل عفلق التي كان صدام يمثل رجل المواجهة والتّهور فيها، وكانت النتيجة أن ألقي القبض على شركاء

الأمس[1] والتي على أثرها صفى الجوّ إلى الخط البريطاني بمساندة الاتّحاد السوفيتي. وهي شراكة سياسية كان لكلا الطرفين حصته من اللّعبة التي قادها بعث (البكر-صدام- عفلق) والتي تمّ على أثرها الاستحواذ على العراق وبالتالي بدأت المخابرات البريطانية المتفننة في معرفة الظّرف العراقي وتعقيداته، وعمق تأثير القوى الدّينية وخصوصاً الحزبية منها بالعمل جدّياً على التقاط القادة الفكريين الدينيين للتّخلّص منهم، وترك المجتمع يسير بدون قيادة، وهي أول خطوة أقدم عليها نظام البعث بعد إتمام سيطرته على مقاليد السلطة، وبعد أن أتّفق مع الحزب الشيوعي العراق بجناحه الكبير وبالاتفاق مسبقاً مع الاتّحاد السوفيتي على استيعابه لكي يتفرّغ إلى التّيار الديني واستئصاله.

كانت أولى المواجهات التي استعرت في النّجف في المواجهة بين التّيار الشعبي الديني المتمثّل أنذاك بالمجاميع (الحسينية) التي كانت تتّخذ من خطّ الإمام الحسين عليه السلام مثلاً أعلى لمواجهة الظّلمة والظّالمين، وخصوصاً أولئك البعثيين ممّن سيطروا على العراق وتمكّنوا من ضرب القادة الإسلاميين الحركيين، حيث اعتقل البعث وفي أوائل وصوله إلى الحكم قائد الحركة الإسلامية العراقية (الدّعوة)[2]، كما اعتقل قادة تنظيم (الشباب المسلم)، وفتحت لهم سجون رهيبة خاصة أطلق عليها أسماء مخيفة مثل (قصر النهاية) السّجن الرّهيب، (نكرة السلمان) وغيرها من الأسماء التي لازالت عالقة في أذهان العراقيّن، كما أعطى قيادة المخابرات الرّهيبة إلى شخصيّة مجرمة سفّاحة هي ناظم كزار[3].

---

(1) وهم عبد الرزاق النايف وحردان التكريتي وعبد الرحمن الداوود (إبراهيم الداوود) وهم المجموعة التي كانت تدير مخابرات وجيش النظام السابق في زمن عبد الرحمن عارف وتمّ طردهم شر طرده يوم 30 تموز من نفس العام بعد أن أصدروا أمر تعيينهم سفراء خارج العراق وتم قتلهم فيما بعد في تلك الأقطار التي يوجدون فيها.

(2) وهو القائد الشهيد عبد الصاحب دخيّل (أبو عصام).

(3) كان المخطط الدولي أن يكون الجهاز المخابراتي مفصولاً عن مسيرة السّلطة التّنفيذية، وعن الخطّ السّياسي. وهو ما سارت عليه معظم دول العالم التي تواجه وضعاً خطيراً. . . =

وقد كانت فكرة الفصل هذه قد أثارت حفيظة الطاغية صدام، وعدم استيعابه للأستقلالية والعمل بطريقين متوازيين لحفظ نظام البلد، وهو ما دعى صدام إلى التحرك في سنة 1973 إلى اعتقال وقتل ناظم كزار مع مجموعة أخرى كانت معه، بعدها تم إخراج المسرحية أنذاك بشكل رديء أظهر فيها صورته التي كانت تحوي الكثير من الدكتاتورية والفردية كاتّهام تلك المجموعة بأنّها كانت ترمي إلى قيادة انقلاب ضدّ النّظام.

في خضمّ هذه الأحداث كانت فكرة (الشباب الحسيني) تنضج بصورة تدريجية في المجتمع النجفي، مجتمع الثّورة، ومجتمع الانتفاضة، وكان أعضاء هذا التجمّع هم خليط من الشّباب المثقفين والكسبة والعمال والرياضيين والبعض من الفنانين وأبناء العوائل المعمّمة أو المتدينّة تأريخياً بحيث كان القاسم المشترك الذي جمع ابن الحوزوي مع ابن الكاسب لم تكن تحدث في هكذا مجتمع لولا إلهام وعمق القضيّة الحسينية ومعانيها والتي تحوّلت وبمرور الوقت إلى فكرة أو خطّ يختلف عما كان سابقاً في أن تكون تلك القضية مقتصرة على البكاء والمواكب والذكرى.

تلك التي كانت خالية من الأهداف أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السّلام، إذ بدأت تنضج لتتّخذ طابعاً آخر له إطاره العام الذي من الممكن أن نسمّيه الطابع الثّوري.

فمصطلح (الحسيني) في ذلك الوقت يعني هو الثّوري، والثّوري هو فقط الحسيني، لانّ البعث كان قد قضى على كل الثوريين من اليساريين ومن البعض من التشكيلات الحزبية[1] وبقي التيّار الوحيد الذي يتنفّس فوق

= إذ يقرّر كبار مخططي ذلك البلد فصل المسار المخابراتي عن المسار السياسي، ولا يجعل لأحدهما أي تأثير على الآخر، كما هي حالة الدول المجاورة للعراق مثل الأردن الآن التي تقود مخابراتها قوى خاصة غير معروفة للجانب السّياسي.

(1) نعم كان هنالك البعض من التيّارات اليسارية الشيوعية من تلك التي لم تنضمّ إلى الجبهة القومية التقدّمية. منهم خطّ الكفاح المسلّح في النّاصرية الذي بقي يقاوم زمناً ليس بالقصير.

الأرض هو التيار الحسيني ذو الصفة التي تحمل معاني كثيرة أهمها: هو الرّفض للظّلم، وهو شعار كبير وواسع ينضوي تحته اليساري والشيوعي والكاسب والمتديّن والعامل والفلّاح والأمّي وكل من يعيش حبّ الحسن عليه السلام، وهو الحب المتشرّب في نفوس ربما أقول كل العراقيين أو كل المسلمين قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها.





غضب الكبار



هذا الخطّ الحسيني الجديد كان من أوائل من أسّسه هم الشباب المتحمّس من أمثال شهيدنا الكبير السيد حامد شبّر الذي كان العقل المخطّط والقائد المتّبع من قبل بقيّة الحسينيين، لأسباب عدّة سأذكرها فيما بعد، وقد بدأ بالتّحديد هذا الخطّ بالظّهور في أعقاب إتّهام السيد مهدي الحكيم من قبل السلطة بالتآمر وذلك في عام 1969، وشعر المجتمع النّجفي أنذاك بأنّه مستباح من قبل النّظام البعثي، وبأنّ للنظام القدرة على تناول أيّ شخص مهما كان موقعه كما حدث مع السيد المرجع الكبير الامام الحكيم عندما ضايقوه في بيته بشكل بعيد عن اللياقة السياسية والاجتماعية.

هذه القفزة الفكرية الحسينية صارت إلهاماً للكثير من النّاس خصوصاً المجتمع الشبابي العراقي عموماً، والنجفي خصوصاً، والذي بدأ بالتوسّع والاستقطاب، وصار ينتشر في المدارس الثّانوية وفي البيوتات، وفي الشّوارع بحيث تحول إلى (حالة) أو تيار له تحديداته وعناوينه، هذا في الوقت الذي كانت أنذاك تغيب التّنظيمات الحزبية الإسلامية عن الساحة بسبب القسوة التي كان النّظام يستعملها في ضرب تلك التيارات والأحزاب.

ولكنّ الشيء المميّز الذي كان عصيّاً على الكثير من العاملين الإسلاميين تفسيره. هو القوّة الضّاربة للتيّار الحسيني في كيان المجتمع الذي فرض نفسه على الساحة الاجتماعية والسياسية بسرعة قياسية.

والسؤال الذي كنا نردّده دوماً هو فيما إذا كان المجتمع قادراً على إنتاج هؤلاء المضحّين من الحسينيين، فإنّ كان كذلك -و هو الواقع- فلماذا لم تتمكن الحركات الإسلامية الواعية من استيعاب هذه الأعداد

المضحّية التي تحمل روح المواجهة والاستشهاد. . .؟ أو لماذا لم تتمكّن الحركات الواعية تلك من أن تربي المنتمين إليها على مبادئ التضحية والشهادة لمواجهة الظّرف الاستثنائي الذي تعيشه مع نظام البعث القاسي. . .؟ ولا ندري بالضبط السبب وراء إنحسار الفهم التضحوي في المواجهة من قبل الحركات الإسلامية الفكرية في ذلك الوقت والتي وقفت موقفاً سلبياً من أسلوب المواجهة وعناوين التّضحية. . .؟ فقد اعتقل الشّهيد الصدر أكثر من مرة[1] وأرسل إلى السجن كما اعتقل العشرات بل المئات، واغتيل المئات منهم في الفترة بين بداية السبعينيات من القرن الماضي إلى نهاية حكم البعث، حتّى في الفترات التي ضعف بها نظام الحكم ما بعد حرب 1991. لم تبادر الحركات الإسلامية إلى الاستفادة من الظرف في تهيئة نفسها إلى انتفاضة كبرى أو حركة تضحوية لإسقاط النّظام، ولم تفكر في أن تبني قواعدها الجهادية مرة بعد أخرى في طريق التّخلّص من نظام البعث.

هذا السؤال الكبير الذي يسأله التاريخ قبلاً ويسأله قادة الحركات الإسلامية الأخرى في العالم العربي والعالم الإسلامي. فما هو السّبب في رفض مبدأ الانتفاضة لدى الحركات الإسلامية العراقية في الوقت الذي نرى أنّ الانتفاضات التي اشتعلت ربما في كل البلدان الإسلامية والعربية ضدّ حكّامها كان عنيفاً وشديداً وخسرت بذلك تلك الحركات خيرة قادتها مع أنّها لم تحققّ ما تطمح إليه من إسقاط النظام في حركتها تلك.

وقد نجد الشيء نفسه ليس مع الحركات الإسلامية فقط، بل إنه ربما أمرٌ اشتركت فيه الكثير من الحركات التغييريّة الجماهيرية، دينية كانت أم وضعية أم غيرها، فقد انتفضت الكثير من الشّعوب العالمية في فترة

---

(1) اعتقل الشهيد الصدّر أربع مرات كانت أولاها: في بداية السبعينيات، ثم كانت آخرها في المرّة التي اغتيل فيها رحمه الله في سنة 1980. (المصدر السابق، محمد باقر الصدر، لأحمد العاملي).

التسعينيات وما بعدها وتمكنت من إسقاط جلّاديها، وإقامة حكم جماهيري مناسب لوضع ذلك البلد[1].

في الواقع الإسلامي الإمامي (الشيعي) تبرز التّضحية كأهمّ إشراقة من إشراقات الفكر، وإشراقات التكوين المذهبي، ولذلك سمى الأعداء أتباع هذا المذهب بطائفة (الرفض) بسبب التّاريخ المضيء للثّورات التي قادتها في مسيرة حياتها، فهذه إيران الشيعية التي تعيش إلى جنب العراق وتاريخ ثوراتها الكبرى التي يقف أمامها التاريخ حائراً في تفسير تلك الروح الوثّابة المتجسدة في ذهن الثّوار، وأمامك هذا البطل الذي رأيناه كلّنا في مرحلة السبعينيات إلى أن توفي في الثمانينيات ذلك هو الإمام الخميني الذي يبدأ ثورته في تاريخ 1979 وفي وقت كان الشاه يمثل أعتى وأقوى وأقسى حاكم تشهده المنطقة، بل في العالم، ولكن الشّعب الإيراني والثوار والقيادة لم تهدأ أبداً ولم تعرف معنى الانتظار.

فالثورة لا تنتظر أحداً، وإنما الذي ينتظر هم المستكينون والضعفاء. وتمكنت تلك الشخصية من إقامة نظام عملاق في جارة العراق. بعد أن كان يوم الجمعة الأسود الرّهيب 8 سبتمبر 1978[2].

---

(1) استمرت الانتفاضات الجماهيرية منذ نهاية السبعينيات وابتدأت بعد الثورة الإسلامية في إيران، ثم نيكاراغوا وقبلها تشيلي والسّلفادور، ثم أحداث مصر ثم بولونيا وبعدها رومانيا ثم أوروبا الشّرقية برمّتها، بعدها تحولّت إلى الجمهوريات السوفيتية مثل لثوينيا بعدها الجمهوريات الإسلامية السوفيتية مثل قرقيزستان وتركمانستان واوزبكستان وطاجيكستان وكازاخستان، جيورجيا وأذربيجان وأوكرانيا ودول عديدة أخرى في مساحة العالم، هذا فضلا عن شعوب جنوب أفريقيا بقيادة القائد الفذّ نيلسون مانديلّا.
(Andrew Scott Cooper. The Oil Kings: How the U.S., Iran, and Saudi Arabia Changed the Balance of Power in the Middle East).

(2) كان ذلك في زمن جمشيد أموزيكار وبختيار الذي جئ بهما في وقت هو من أشد أوقات الثورات قسوة ودموية والذي تحول ذلك اليوم إلى عنوان للشهادة والذي كان اليوم الذي غيّر معادلة سقوط الديكتاتور بسبب ضخامة التضحية وعدد الشهداء، تلك الجمعة التي لم تتمكّن الدبّابات الإيرانية من مواصلة الزّحف بسبب تراكم الجثث في شوارع طهران، أكوام هائلة من أولئك المضحين الذين وقفوا أمام رصاص وقذائف الدّبابات =

أبداً ليس ذلك كله، وإنما ذلك هو عين ما رأينا الثورة الإيرانية وعشنا أيامها يوماً بعد يوم، هذا كلّه حدث في زمن كانت الحركات الإسلامية العراقية ترى في نفسها إنها الأعمق في التّأسيس وفي المبادرة والعمل والوعي وهي تمتلك ربّما خيرة قادة الفكر والتّاريخ كالسيد العظيم والمفكر الصدّر صاحب المدرسة الفكرية العظمى والشهيد الذي يطأطأ له الشهداء رؤوسهم في خضمّ الصّراع مع الباطل.

لم يتمكن المطلعين على أحوال الشعوب وعلى القادة السياسيين من فهم كيف تُرك الشهيد الصّدر وحده يعاني ألم الاحتجاز والتعذيب في الوقت الذي كانت الحركة الإسلامية التي أسّسها والتي كانت تتميز بالقدرة الشبابيّة الصاعدة، أقول كيف بقيت صامتة بدون أن تتحرك أو تبدء انتفاضتها أمام العالم إسوة بالتأريخ وإسوة بما تعارفت عليها دول العالم التي التي تحررت من نير حكامها الظلمة. . .؟[1].

= الإيرانية الحكوميّة، ليتحوّل المشهد بعده إلى سقوط مريع في تلك الجمعة من أيام محرّم الحرام، وتحولت كل جثة من تلك الجثث إلى مشاعل كبرى تفجّرت في إيران برمّتها، وتحوّلت إلى بلد كله ثورة وانتفاضة، فلم يخف الأب على ابنه، ولا الأم على وليدها، بل كانت الشهادة عنواناً من عناوين الفخر ليس للشّخص فحسب، وإنّما لكلّ من ينتمي إلى ذلك الشهيد، هذا المشهد عشناه كلّنا، وعايشناه مع تلك الشخصية العملاقة التي حلّت بين ظهرانينا، شخصية الإمام الخميني وهي التي لم تتحوّل إلى تاريخ ولم يخبرنا التاريخ عنه بعد، كما يخبرنا عن أحداث قد تبدو لنا أحياناً بأنها لا تناسب الوضع والزّمن الذي نعيشه، أو إنّها نوع من صيغ المبالغة التي يستعملها العرب في لغتهم وفي إسلوب الوصف.

(1) كتاب الشيخ النّعماني الموسوم (سنوات المحنة وأيام الحصار) في مذكراته التي سطّرها أشار إلى أكثر من مرّة إلى المرارة التي كان الشهيد يعيشها بسبب تخلّي الآخرين عنه، وتركه يواجه الموت بنفسه، ولا أدري بالضّبط إلى من كان الشهيد يأمل في أن يتحرّك إلى النجف عموماً، أم إلى الحوزة، أم إلى العالم الشيعي بشكله الكبير، أم إلى إيران حكومة، أم إلى (الحركة) التي كان ينتمي إليها في وقت من الأوقات، أم إلى طبقة خاصة قريبة منه كان يأمل فيها أن تكون المبادرة إلى التّحرك. . .؟ ويا حبذا لو كانت هنالك قراءة أو مراجعة أخرى لأفكار أخينا العلّامة النّعماني في التّفصيل لما فيه خدمة المستقبل الثّوري الشيعي أو الحركي الّذي سيكون بالتأكيد المعين المستقبلي للحركات التي سوف تظهر فيما بعد في العالم الإسلامي. . . فتسجيل الأحداث أمر مهمّ جداً، وهو لا يعني بالضرورة =

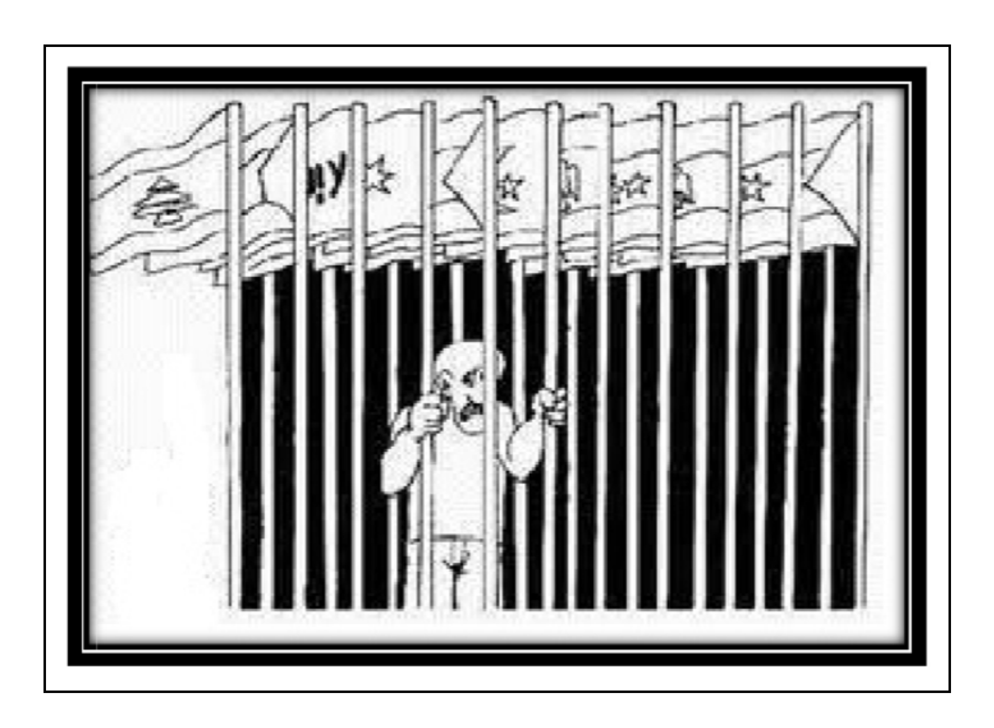
بقي هذا الحدث أمراً غامضاً، ربما بسبب غياب معلومة أو غيرها، أو ربّما لقصر فهم أولئك المحللين للظّرف أنذاك والذي لم يعيشوه أو يطلعون على عمق مأساته وقسوته وجبروت الطّاغية صدّام، إنه لمن المؤكد من أن هنالك سبباً ما، أو ربما أسباباً حالت دون انتفاضة الحركة الإسلامية شعبياً وتفجير الثّورة الكبرى في عمق المجتمع العراقي.

واليوم وبعد مرور أكثر من 35 سنة على آخر حادثة اعتقال للشهيد الصدر فإنه قد آن الأوان لقادة الحركات الإسلامية العراقية وفي هذا الظرف من الاسترخاء في أن يفتحوا ملفات التاريخ، وأن يصارحوا جماهيرهم في الأسباب التي ربما فُرضت عليهم، والتي كانت فوق طاقتهم وتحمّلهم والتي فرضت عليهم في أن يركنوا إلى السّكوت والقعود ونبذ الثّورة على النّظام الصدّامي، الذي كان أنذاك وحسب التقارير العالمية يعيش أياماً صعبة في تعامله مع الشعب العراقي، في الوقت الذي كان العالم يرى في صدام رجلاً مجرماً لا يصلح لحكم بلد، ولا يصلح لقيادة العراق بعد أن شاهد العالم بأسره كيف قتل بيديه أصدقاءه بشكل بعيد عن اللياقة السياسية وعن الإنسانية[1].

= بأنّه يرمي الجانب السّلبي من مجمل التقييم، بل بالتأكيد فإنّ حسّي ومعرفتي بالشيخ العلّامة وعمق إيمانه تجعله شخصية لا يتبادر إليها الشّك في نيّاته وفي صدق مبتغاه، فهو لا يرمي لو أراد التطرّق إلى تلك المعلومة إلّا إلى البناء المستقبلي في تجنّب الوقوع في مشكلة كبيرة كمشكلة إعدام شخصيّة عملاقة مثل الشهيد الصّدر الأول.

(1) هزّت تلك الحادثة العالم السياسي برمّته، وذكرت عنه الكثير من صحف العالم في عدم أهليته لكي يحكم أيا من الشعوب في المنطقة، وكانت الأمور تسير باتّجاه الرّفض الدّولي لشخصيته الدّموية، فقد كان إعدام عدنان الحمداني ومجموعته وبشكل غريب عن الأعراف الدّولية، وعن تعامل الأعداء مع أعدائهم، وكيف أنه تعامل مع صديقه بالأمس، البكر الذي كان شريكه في الحكم، وقتل أولاده، وغيرها من الجرائم الرّهيبة التي كان لها الأثر الكبير في المنطقة، هذه المواقف كانت قد أضعفت صدّاماً بشكل كبير، وأضعفت التّعاطف الدّولي معه، لأنّه في تلك المواقف لم يظهر إلّا رجل صاحب شقاوة بدوية متأصلة (Gangster) لا يصلح لحكم بلد مهم مثل العراق. في الوقت التي كانت الثورة الإسلامية قد دقت ناقوسها على حدود العراق، فكان العالم والغرب يبحثان عن شخصية عراقية تحكم =

= البلد، تحكمه بالحكمة والمعرفة والعقل والعدل لكي تواجه الزحف الإيراني كما يقولون على الحدود العربية، وخصوصاً بعد التهديدات التي أطلقها الإيرانيون (في ذلك الوقت) بأنّ الثّورة يجب أن تصدّر إلى الخارج، وكانوا كما اعتقد يعنون بأنّ الفكر الثّوري وليس النسق الإيراني أو الشيعي، ولكن الغرب فهمه بشكل خاطئ، أو أراد لنفسه أن يفهم ما يريد وكيفما يريد. (راجع تقارير مُنظمة العفو الدولية (www.amnesty.org).



العراق في دراسات الغرب



وكان المحلّلون الأمريكيّون في ذلك الوقت قد حذّروا القيادة الأمريكية من مغبّة الاستمرار في مساندة النّظام العراقي، ومساندة ماكنته التعذيبيّة الإرهابيّة التي زوّدته بها أنذاك الأنظمة الشّرقية التي كانت تابعة إلى الاتّحاد السوفيتي. في الوقت الّذي كان الصّراع متأرجحاً بين الأصدقاء والأعداء، وفي محيط الرّمال المتحرّكة التي تتحرّك حسب المصالح.

ففرنسا مثلاً كانت من مصلحتها أن تقف أمام المخطّط الأمريكي في فرض السّيطرةّ على النّفط العراقي، على حساب شركة (توتال) الفرنسيّة وطردها من المنطقة، ولذلك فإنّ التحرّك الفرنسي كان متوجّهاً إلى الجانب العراقي في مساندة الحكم، وتزويده بالمعدّات النووية، وبناء ترسانته التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى السّلاح النووي الذي كان يحلم به صدّام في خلال فترة حكمه.

كذلك كان الاتحاد السوفيتي والصّين والكثير من دول أوروبا الشرقية التي كانت تمتلك نفس التوجّه لمساندة العراق عسكريّاً ومالياً ولوجستياً، أما التوجّهات الأمريكية فكانت ترى العكس كانت ترى أنّ هكذا نظام من القسوة والوحشية حتى وإن كان يخدم مصلحة الغرب ومصلحة أمريكا على المدى القصير ولكنّه سيتحوّل بالتأكيد إلى نقمة كبرى على مصالحها البعيدة المدى، وهو ما يستوجب أن تتحرّك الولايات المتحدة جدّياً في إيجاد بديل لنظام صدام تتمكن من خلاله التعامل مع البديل بشكل دبلوماسي.

وكان الرأي الأمريكي أن تبدأ الادارة الأمريكية في حوارات مع أطراف المعارضة بكل فصائلها وحتى الفصائل التي كانت تُبدي تشنجاً من الموقف الأمريكي، كان ذلك الرأي في حدود سنة 1982، وكان هنالك

لجنة شكّلها الرئيس (ريغان) للتّعامل مع الملف العراقي بشكل منفصل عن التوجه المخابراتي.

ولكنّ المفهوم العام هو أنّ ملف استبدال صدام صار أمراً مفروغاً منه، وأن السياسة الأمريكية خصوصاً، والغرب عموماً كانت قد تركت هذا الملف مفتوحا للحوار والنّقاش لحين وضوح الطريق.

أمام هذا الواقع الذي اثبت مصداقيته، كان على الحركات الإسلامية العراقية المنظّمة والحزبية أن تفكر جدّياً في انتقاء وسيلة واضحة في التحرك لإسقاط صدام من خلال الحركة الشعبية، والانتفاضات والمظاهرات[1] وهو الأسلوب الذي كانت الانتفاضة الحسينية ترى أهميته بغضّ النّظر عن الواقع العالمي والدّولي، بل أن الحسّ الفطري والشعبي كان يفرض فكرة التوجه إلى التحرك شعبياً لإسقاط النظام الصدامي، بل إنه أمر ربما نقول عنه بأنّه صار من أولى البديهيات التي لا تقبل المناقشة.

فلقد كانت التوجهات الحسينية والتوجهات الشعبية لا ترى عذراً للسكوت عن الإستمرار في المناوشات التي قامت بها تلك الحركة في مناسبات كثيرة ضد النظام، وكانت تعتب كثيراً، بل إنّ قادة الانتفاضات الحسينية المتعددة قد وجّهوا أكثر من رسالة لوم إلى الحركات الإسلامية المنظّمة التي كان لها وجود فعال في العمق العراقي النّجفي، ومن خلال

---

(1) إنّ الغرب وأمريكا بالذّات لا يمكن لهما فرض سياستهما في مسيرة مساعدة شعب، إلّا من خلال إرادته التي يفرضها على الواقع في رفض الحاكم. . . فهما لا يفهمان معنى أن يخاف الشعب من التّحرك، فقد وجدنا صعوبة كبرى من إقناع الغربيين في وحشية النظام وخشية الشعب من بطشه وإرهابه، وكانوا يقولون لنا: إن صدّاماً لولا امتلاكه التأييد من الشعب مجبراً كان أم مخيراً خوفاً كان أم حباً فإنّه بالنتيجة هنالك من يؤيّده، وما دام الشّعب يؤيّد الحاكم فإنّ ذلك يمنع أمريكا من التّدخل في تغيير الحاكم أو مساعدة المعارضة، لانّ هذا الأمر متعلق بالشعب وليس بها، نعم من الممكن أن تتفهم أمريكا تطلّعات الشعب العراقي، ولكنها لا تتدخل لا سلبياً ولا إيجابياً في تغيير النّظام مادام هنالك أكثر من مليوني منتمٍ إلى حزب البعث، فرضاً كان أم طوعاً.

انتشارها في الجامعات وفي مراكز العلوم وفي أوساط الخريجين والمثقفين الذين كان من الممكن أن يكون لهم أكثر من دور، وأكثر من تأثير على مساندة الحركات الحسينية الشعبية التي انتفضت ضد النظام.

وقد كان أخي الشهيد الكبير السيد حامد يناقشني دوماً بهذا الموضوع، وينقل رأيه ورأي التيار الكبير الذي ساد الساحة في وقت كانت السجون مليئة بأولئك الثوار من التيار الحسيني الشعبي الذي بدء يستقطب القطاع الشعبي في أنحاء العراق، وبدأ ينتقل من محيط النجف إلى محيط المدن الأخرى كمنطقة القاسم وكربلاء والكاظمية، وبقية المناطق الدينية كالبصرة والعمارة وغيرها.

كان السيد حامد يعيش مرحلة النقلة الفكرية بين الحركة الإسلامية باعتباره أحد المنتمين لها، وبين التيار الحسيني الذي بدأ يتحوّل إلى واقع شعبي كبير يحمل روح الانتفاضة، وروح المواجهة للنظام البعثي في العراق.





انتفاضة 1970 النّجفية



كانت أولى انتفاضات التيّار الحسيني حركة 1970 في عمق مدينة النّجف وفي أيام محرّم الحرام وهو الشهر المرشح دوماً للانتفاضات والحركات الشعبيّة، كما هي الأمور التي حدثت فيما بعد في إيران عندما تمكّنت الحركة الشعبية فيها أن تُصعّد من قدراتها الانتفاضية في إسقاط الشاه في ذلك الشهر، الوقت الذي يعكس على تفكير الرّجل الشيعي تصوراً جدّياً ويخلق من شخصيته شخصية أقرب إلى الثّورية منها إلى الشخصيات الأخرى، حيث تملأ مأساة الإمام الحسين عليه السلام كل وجدانه بالعاطفة الجيّاشة التي تتحول أحياناً إلى قوة، وأحياناً إلى عاطفة، وأحيانا إلى صور أخرى قد تخرج في بعض الحالات عن الإطار المرسوم لها، كما هي الشعائر الحسينية التي أخذها البعض من الشعوب كالتّطبير[1].

كانت تلك الانتفاضة التي انطلقت في ذلك التاريخ عبارة عن اختبار

---

(1) الّذي جاء به الأتراك القزلباتش في زمن الملك خدابنده، وتطوّرت تلك الشعيرة إلى أشكال أخرى لا مجال للحديث عنها، ولكنها تسرّبت إلى العراق فتعايش الشعب معها بصورة خاصة، تبعاً للوضع الاقتصادي والثّقافي لتلك الشّريحة من المجتمع، وقد وقف الفرقاء المختلفون في تقييم هذه الشعيرة إلى نقاط متباينة البعض عاشها من الجانب العاطفي، والآخر نظر إليها من الجانب الفكري، ولازالت السّجالات في أهمية تلك الشعيرة على قدم وساق، مع أنني أرى بان هذه الشعيرة لو وضعت في محلها الصحيح فإنّني أعزوها إلى الواقع الاجتماعي، وأراها أنّها قضية ترتبط بالمجتمع أكثر من ارتباطها بالدّين، وتجد الشيء مثله ربما في كلّ الأديان في العالم وخصوصاً المسيحية التي كانت ترى بأن إيذاء الجسد هو نوع من التحلل من الذنوب فيقف منها علماء تلك الأديان موقفاً غير فقهي، بل يربطونه بمفاهيم المجتمع ويتركون تقديره إلى المجتمع لممارسته أو رفضه (Christian Scholor and Writer on Rituals of Azadari) تجده على (www.pasbaaneaza.com).

لكلا الطرفين: الطرف الحسيني، والطرف السلطوي البعثي الذي وصل توّاً إلى الحكم والذي كان عليه أن يواجه كل ما من شأنه أن يكسب الجماهير إلى صفّه، مثل الشعائر الحسينية والتجمعات الدينية والمظاهرات، وغيرها من النشاطات المتنوعة في العراق، فقد حظر حزب البعث كل أنواع التّجمعات، فأوقف كل النّشاطات التي يشترك بها الناس كمجموعة، ولكنّه في ذات الوقت اتّبع أسلوب التحرش بالمظاهر الحسينية. بعد أن عرف بأنّ المساس بهذه الشعائر قضية صعبة. وهي تحتاج إلى قرار شجاع وإلى مواجهة مع مشاعر الناس التي يرجع تأريخها -تلك المشاعر- إلى أكثر من 14 قرن من الزمن، وفي وقت تتعايش تلك المشاعر مع كلّ عراقي بل كلّ إنسان يحبّ الحسين.

وكان أولى المحاولات التي أقرّت السّلطة أن تجربها في المواجهة. هو المنع التدريجي لتلك الشعائر، حيث نشر قواته وعيونه في ليلة السّابع من المحرّم وهي أولى الليالي التي تتكثّف بها المشاعر، إلى أن تصل ذروتها في ليلة العاشر منه، وقد وزع حزب البعث كل منتميه، بالإضافة إلى عناصر المخابرات والأمن والجيش والانضباط تأهباً للّحظة التي ينقضّ بها على المشاعر الحسينية التي كانت تنطلق من باب (سوق العمارة) والتي تتمثّل بمشاعل يحملها المحتفلون، ويسيرون بها نحو الصّحن الشّريف. وهي الشعيرة التي لازالت موجودة لحدّ هذا الوقت[1] وكان مركز التجمع البعثي والمخابرات مكثفاً في غرفة (الكليدار) المواجهة لضريح الإمام علي عليه السلام من الناحية الجنوبية، وهكذا وبمجرد أن دخلت المشاعل الصحن

(1) عزاء مشاعل العمارة تقليد قديم وشعيرة يقدّرها النّاس خصوصاً الجانب العشائري النجفي. وهي عملية محاكاة لحرق خيام الحسين عليه السلام من قبل معسكر الأعداء، إذ تحمل تلك العشائر مشعلاً ضخماً تلتهب فيه النّار كطريقة من طرق إثارة الحماس لما للنار من تأثير على عاطفة الإنسان، وتسير المشاعل ربما مسافة كيلومترين-قبلاً- في أزقّة ضيّقة جداً من خلال زقاق تاريخي معروف هو (عكد السلام) أو أكثر إلى أن تدخل إلى الصّحن الشّريف، ثم تتفرق فيما بعد عندما يختتم الرّادود المسيرة بقصيدة بالمناسبة، وقد أوقف النّظام هذه الشعيرة منذ ما بعد سنة 1970 ولحين سقوطه في سنة 2003.

الشريف وإذا بعناصر المخابرات تهجم على المحتفلين بالعصّي والهراوات لتفريقهم، ومن ثم السيطرة على الموقف لكي يهرب الباقون.

ولكن الأمر لم يكن بتلك السهولة. فقد عرف بتلك الخطة قبل ذلك الوقت الثوار من الحسينيين[1] والتي كان أخي السيد حامد أحد مخططيها ومنفذيها مع مجموعة من الشباب بتلك الأعمار ما بين 18 إلى 22 ومن الكسبة، ومن الشجعان التي تتميز مدينة النجف بوجود العدد الكبير فيها.

وهكذا وبمجرد أن بدأت المواجهة وإذا بهؤلاء الفتية كالسيد حامد وغيره من الشباب الحسيني بدلاً من أن يهربوا خوفاً بدأوا بالمواجهة داخل الصحن الشريف حيث أخرجوا أسلحتهم البيضاء من تحت ملابسهم وانهالوا على عناصر الأمن التي تفاجأت بالموقف، وكان أخي حامد أنذاك يحمل خنجراً صغيراً (كديمي) يستعمل في حالات الالتحام القريب، هجم على قائد المجموعة الأمنيّة (أبو علي ستار) وكان هذا الجلواز بعمر ربما يتجاوز الأربعين ويبدو إنّه كان نائب ضابط في الأمن، فضربه أخي السيد حامد على وجهه في قعر الكديمي وليس في جهته الحادة فسقط الجلواز على مؤخرته وهو يصيح بصوت مرتفع (أنقذوني. . قبل أن يقتلوني) فتركه أخي حامد وتوجّه إلى الآخر وكان يدعى (سعد) وهو نائب ضابط وهجم عليه بالخنجر فضربه سعد برجله، فسقط السيد حامد أرضاً بينما كان

(1) كانت المخابرات تتجنب المواجهة في أزقة محلة العمارة الضيّقة لعجزهم عن المواجهات مع المجتمع النّجفي الذي كان مسلّحا في تلك الفترة من السّنة، والتي قد تخسر فيها لعدم تمكن الإمدادات من الوصول إلى ساحة المعركة الضّيقة الظّلماء، وقد أقدم النّظام المجرم في منتصف الثمانينيات على إزالة كل منطقة العمارة ومحو آثار القبور وبيوت المراجع التاريخية والمدارس الدينية والمساجد وغيرها وهي خسارة كبرى خسرتها النجف التي كانت تمثل كل بقعة من تلك البقاع حدثا تاريخياً ضخماً كبيت المرجع السّيد الحكيم وبيت السيد الصّدر وبيت الشيخ مرتضى ال ياسين والمراجع الآخرين ومكتبة التستري ومدرسة دار العلم للسيد الخوئي ومقابر شهداء ثورة العشرين وغيرها الكثير. وهو إجراء مشابه لما أقدمت عليه السلطات الوهابية في مكة والمدينة بإزالة كل الآثار العائدة إلى بيت الوحي (ثورة النجف، الأسدي).

الخنجر بيده، وبينما كان النائب ضابط سعد يهمّ بالانقضاض على السيد حامد، عاجله أخ آخر ولعل إسمه كما أتذكر محمد حسن، وهو من المجموعة الحسينية بلكمة تطاير الدّم من أنفه وبدء بالهرب.

عندما هرب هذان الجلوازان بدأت عناصر المخابرات بالهروب أيضاً من أمام المجموعة الحسينية الشابة، وهو ما شجّع بقيّة الناس إلى استعادة المبادرة ومساعدة المجموعة الشابة في ملاحقة المخابرات، ولكنّهم تحصّنوا بالمقابل في غرفة الكليدار.

بدء الثوّار بالهجوم على مكان الغرفة بالخناجر والسيوف في الوقت الذي أغلقت عناصر الأمن الغرفة جيداً وحصّنتها بعناصر بدأت بإطلاق الرّصاص في الهواء عشوائياً، ولكنّ الثّوار لم ينثنوا، بل عاودوا الهجوم وبين الكر والفر طعن على أثرها 3 من عناصر المخابرات أحدهم ملازم أول، في هذه الأثناء جاءت قوة مساعدة من الخارج لمعاونة العناصر البعثية المتحصّنة في غرفة الكليدار.

وكان الرأي هو في أن يغلقوا أبواب الصّحن الشريف وهي خمسة أبواب ثم يعتقلوا الجميع، وهكذا بدأ الثوار بالهتاف والدوران حول الصحن الشريف لإيجاد مخرج بعيداً عن الرّصاص، وكلما وصلوا إلى باب من تلك الأبواب وجدوها مغلقة في الوقت الذي كانت عناصر المخابرات المعزّزة تدخل من جانب باب سوق الكبير بسيارات وينزل منها عناصر الأمن داخلين الصّحن الشّريف.

كان أخي حامد أنذاك يرتدي دشداشة زرقاء قد لفها حول خصره جيداً، ثم اعتمر على رأسه كوفية بيضاء لكي يخفي وجهه عن عناصر المخابرات، ويحمي نفسه من الاعتقال فيما بعد، وكان إلى جنبه شاب صغير يحمل عصا غليظة أطول من قامته وبرأس العصا شيء ثقيل، وكان هذا الفتى يهز العصا هزاً دورانياً، وكلما مر على مجموعة من المخابرات يدور العصا حول يديه ضارباً بها أولئك الجلاوزة، وكان حامد في ذات

الوقت يضربه في بطنه ويقول له يا عفلقي يا مجرم.

وتستمر المواجهات بشكل كرّ وفرّ يهاجم الثوار غرفة الكليدار فيردّهم صليل الرّصاص المنطلق من الغرفة ومن الإيوان المجاور لها، ولكن المعركة لم تكن متكافئة أبداً وخصوصاً بعد وصول عناصر المخابرات إلى داخل الصّحن الشّريف أذ توجّه الثّوار- كما ذكرت - إلى الأبواب التي تؤدي إلى الخارج. وقد أحكمت المخابرات غلقها تماماً، وكان آخر باب وصل إليها الثوار الذين صار عددهم أقل من الأول طالبين الهرب من الاعتقال، ربما مائتين، ولكنهم من الشباب المتحمس وكان أخي حامد رأس الحربة في الصراع وفي الاستمرار.

وما إن وصلوا إلى آخر باب وهي الباب المؤدية إلى سوق العبايجية المجاورة إلى باب سوق الكبير من الجهة الغربية وجدوها أمامهم مغلقة أيضاً ومن الصعوبة جداً فتحها. فهي باب عملاقة قوية ضخمة وهي نفس الأبواب الموجودة الآن والتي من الممكن على القارئ رؤيتها في هذا الوقت[1].

ويروي لي أخي حامد كما يرويها لي أخوة آخرون إذ أنني شخصياً لم أكن هنالك، ولكنّني سمعت القصّة ودوّنتها من أناس كثيرون، وقد كنت مولعاً بالتدوين وبتسجيل كل حركة ثوريّة أو انتفاضة تحدث في العراق، مهما كانت محصورة وصغيرة، وكان مبدئي في التّسجيل هو الاجتماع مع المشتركين والاستماع إلى أكثر من شخص في رواية الحادثة[2]، وكان من جملة من رواها لي أيضاً[3]، إذ كان أحد من نقل لي نفس الصورة التي

(1) علو الباب ربما أكثر من 5 أمتار من الخشب الثقيل كان صانعها المرحوم الوجيه السيد كاظم النقاش. وهي ثقيلة وعملاقة مدرعة من الأمام بقطع معدنية مطرزة بنقوش جميلة من المعدن النحاسي الذي يزيّن الأبواب، كما تمسكها فواصل عملاقة لحمل ثقلها.

(2) كلّ المذكرات التي كتبتها في العراق قبل مغادرتي إلى أمريكا أحرقت وأتلفت خوفاً من وصولها إلى يد عناصر الأمن.

(3) شخصية مؤمنة عندما كنت أدرس في الولايات المتحدة الأمريكية والتقيت به، =

قال فيها: وإنّهم وبمجرد أن وصل الثوار إلى تلك الباب المطلّة على سوق فرعي في محيط السوق الكبير وجدوها مغلقة تماماً وعناصر المخابرات تلاحقهم من الخلف، بدأت روح الاستسلام تتسرّب إلى قلوب هؤلاء الشباب في موقف من الصعوبة له أن ينفرج، وبدأوا بإطلاق هتافاتهم وشعاراتهم لتقوية الرّوح المعنوية، وكان الممرّ الضيق يردد أصوات حناجرهم المتعبة.

وكان أخي السيد حامد قد رفع كوفيته عن وجهه وهو يصيح بالجمهور: أنظروا، أنظروا يا شباب الحسين انظروا... من خلفكم...؟ خلفكم داحي (قالع) باب خيبر... أتعلمون بذلك...؟ فليس من العجب أن يدحي (يقلع) هذه الباب وتنفتح، كونوا مؤمنين فالله سوف يخرج لكم صاحب هذا القبر ليدحي هذه الباب... صاح الناس والشباب يا الله يا الله ...

وبهذه اللّحظة -العهدة على الرواة- وإذا بالباب الضخم الكبير يتحرك وكأنّه عملاق أفاق من سباته، يتحرك ببطء، وليس هنالك من أحد يمكن أن يفسر ما حدث، وكأنّ النّاس على رؤوسهم الطير وهم بين مصدّقين وبين مكذّبين، وإذا بالمسامير الكبيرة الضخمة الحديدية التي تمسك المزلاج الكبير تخرج بالكامل وتسقط على الأرض، لتحدث صوتاً لن ينساه كلّ من سمعه وإذا بالباب ينفتح على مصراعيه أمام الثّوار المحاصرين.

ولكن الثوّار وبدلاً من أن يهربوا إلى الشّارع عادوا ثانية إلى الدّاخل والحماس يملأ محيّاهم ومشاعرهم وقد زال من نفوسهم الخوف، وتحوّل إلى قوة وانتفاضة وعزيمة، كان على أثرها أن هربت عناصر المخابرات التي كانت تلاحقهم بالكامل.

= وهو الأخ الكريم السيد أبو حسنين، ويعمل الآن مهندساً ناجحاً في مدينة (ديترويت) وكان من الشباب الحسينيّ المتحمّس.

عاد الثّوار إلى الداخل، ليصفوا حساباتهم مع شراذم البعث في غرفة الكليدار فوجدوهم قد هربوا كلهم ولم يبق منهم أحد، داروا حول الصحن دورتين[1] ثم خرجوا من خلال شارع الصادق متوجهين إلى مركز السلطة، وفي هذه الأثناء تكاثر الناس، وأخرج الثوار أسلحتهم البيضاء بعد ملحمة كبرى لم يدرك الجميع كيف حدثت.

كان أخي حامد مجروحاً في يده اليسرى والدّماء تنزف منه وهو لا يدري كيف، وفي هذه الأثناء رأى أحد أصدقائي أحد الرواة[2] كان أخي حامد جريحاً يهتف أمام المظاهرة العملاقة المتوجّهة إلى سراي الحكومة في باب المدينة (باب الولاية)، فاقترب منه وسأله: هل أنت سيد حامد...؟ أجاب: نعم، قال: أنا صديق أخيك، هل لي أن أساعدك في تضميد جرحك...؟ قال له أعطني قطعة من القماش فدخل هذا الصديق إلى محل كان على جانب الشارع وانتزع قطعة بيضاء ولف بها يده فتوقف الدّم منها.

سارت التظاهرة في شارع زين العابدين متوجهة إلى المقر الحكومي في نيّة احتلاله، ولإخراج السجناء منه، وفي الطّريق سقط أحد الثّوار بعد أن اخترقت إحدى الرصاصات ساقه ولكنّه لم يشعر بمرارة وألم الإصابة إلّا بعد مرور بعض الوقت فسقط أمام جامع الحيدري الذي يقع في مدخل شارع زين العابدين من باب الولاية بعد أن هاجمتهم المخابرات بالرصاص الحي من كتيبة كانت على أهبة المواجهة، وكان عدد الجرحى كما تشير الروايات هو عشرة اشخاص -كما رواها لي الناقل- وهو الجريح الذي كان من أوائل من سقط بسبب رصاصة اخترقت ساقه اليمنى.

---

(1) ألغي الآن الممر الجنوبي المعروف ب (السوباط) الذي يكمل دورة الصحن الشريف.

(2) الشهيد الكبير أبو سعيد الجنابي عالم كبير وهو شاب مثقف ترك الدراسة الأكاديمية في جامعة البصرة والتحق بالحوزة العلمية، وقد غاب خبر هذا الشهيد الكبير في سنة 1979 وإلى الآن.

وبسقوط هذا الشاب استعر الحماس ثانية، ولكنه بدء بالنزيف والألم، فبادر إليه الشّخصية الشجاعة المعروفة وهو الشهيد الكبير السيد عماد التبريزي الذي استشهد فيما بعد في سنة 1974 بعد إعدامه من قبل النّظام البعثي[1].

بادر السيد عماد التبريزي وهو شاب مفتول العضلات وكان شجاعاً قويّا إلى رفع الشّاب المصاب وأدخله إلى الجامع وطلب من ثلاثة أشخاص أن يمسكوا الشاب جيداً، ثم جاء بقطن أحرقه، ثم أدخله في جرح المصاب وأدخل رأس الخنجر في الجرح، واستخرج الرصاصة التي كانت مستقرة في رجله، فأغمي على الشاب الفتيّ، فرشّ عليه الماء فاستيقظ على أثرها وأخذه أحد الشباب إلى بيته في محلة المشراق[2].

إستمرّت المسيرة إلى قلب المدينة، والتحق بها ناس كثيرون بينما شارفت السّاعة تقريباً الثانية عشر بعد منتصف الليل، وقد خرج من جهة البرّاق عند المنعطف ما يقارب مائة شخص كانوا ملثمين وقد نزلوا إلى المعركة تواً بعد سماعهم نبأ المواجهات التي دارت في الصّحن الشّريف وكان أحدهم رجلاً طالباً في المدرسة الشبّرية التي تقع في محلة البرّاق، وكان هذا الأخ من مدينة العمارة رجلاً قوياً، وبمجرّد أن رأى أخي السيد حامد جريحاً وهو لا يعلم مدى عمق جراحاته حتى بادر إلى رفعه على كتفه والدّخول به إلى الأزقة ثم إيصاله إلى المدرسة الشبرية، حيث بدأ في علاج جرحه الذي لم يكن عميقاً ولا بالدرجة الخطيرة. وهكذا منعه من

(1) هو السّيد عماد بن العلّامة المجتهد السيد جواد التّبريزي (ت1966) الّذي كان يؤمّ الصّلاة في الحرم الحيدري في المدخل الشرقي، وكان الشهيد مثالاً في قوة الجسم وقوة الإيمان. وقد كان لي مع الشهيد الكبير مجلس عندما كنّا ندرس معاً دروس الفلسفة الاسلامية عند العلّامة السيد محمد الغروي الذي يعيش الآن في لبنان.

(2) هذا الشاب هو عبد الحسن اسماعيل النجار كنت قد التقيته بطريق المصادفة في كندا بعد مرور 25 سنة على الحادثة وقد روى لي مجريات الحادثة بتفاصيلها، وهو لازال هنالك يعيش مع عائلته.

المواصلة في المسيرة ثم إيصاله إلى بيتنا في محلة الجديدة القريبة من المدرسة الشبّرية.

واصلت المسيرة طريقها إلى المقر الحكومي بعد أن كسّروا ممتلكات الحكومة من الأضوية وغيرها في الوقت الذي سدّ المقر الحكومي أبوابه من غضبة الثوار وبدأوا باطلاق عيارات نارية على الثّوار الذين تفرقوا بعد أن رموا البناية بالحجارة.

وفي اليوم الثاني لهذه الحادثة ذهب أناس كثيرون إلى الباب الذي فتحته يد القدرة الغيبية، ليروا بأمّ أعينهم المعجزة الكبرى التي حدثت بالأمس وبقيت لأيّام عديدة يزورها الكل ويتناقلون قصص المواجهة والتضحية التي قادها الشباب الحسيني الثّوري.

أعتقل في اليوم الثاني عدد كبير من الشّباب الحسيني، ومن أصدقاء السيد حامد وأُودعوا في السجون في النجف، وكان كما أتذكر أحد قواد هذا التيار الشخصية التي سأتكلم عنها فيما بعد والذي أعتبره العنوان الكبير للفكرة الحسينية. ذلك هو الشهيد الكبير السيد عبد الوهاب الطالقاني (ت 1977).

ولكن ضغط الجماهير واستياء النجف ومن جاورها من المدن فرض على السلطة أن تطلق سراح المعتقلين بعد أن قضوا أسابيع عديدة في المعتقلات مع التعذيب.





من هنا نبدأ



وفي تلك الفترة من بداية السبعينيات كانت تتكون خلايا وتجمّعات شعبية مستلهمة من روح التّضحية الحسينية شعاراً لها وغذاءاً لمسيرتها وعنواناً لمبدئها، وكان هذا التيار قد استوعب كما ذكرت الكثير من الطّبقات الاجتماعية المحافظة والكسبة والعمّال والفلّاحين.

ويبدو أنّ هذا التيّار هو نفسه الذي انتقل من المرحلة الحسينية التي تتميز بالقدرة العاطفية والتضحوية إلى الخط (الصّدري) فيما بعد التّسعينيات وبعد أن تمكنت السلطة من أن تستأصل الجيل الأول من الحسينيين من أمثال السيد وهّاب الطالقاني والحاج صادق الخاقاني وأسماء عديدة كثيرة لا تخطر على بالي الآن إلى جيل ثانٍ وهو جيل ما بعد الثورة الإسلامية في إيران.

وكان من قادتهم علي الجزائري، وعلي القبانجي وغيرهم من الأبطال أمثال السّيد حامد شبر الذي كان يختلف في توجّهه عن الخطّ الحسيني الذي من الممكن أن نطلق عليه الحسيني المتطرّف (جزافاً) إلى الخط الحسيني المعتدل، وهو الخط الذي زاوج بين الأفكار الحسينية التضحوية مع التنظيمية الحزبية التي جاءت بها التنظيمات الإسلامية وأهمّها خطّ الشهيد الأوّل الصّدر. ولكن كلا الجيلين قد صُفِّي أو قُتل أو شُرّد خارج العراق ولم يبقَ منهم إلّا القليل.

وكما نعلم أنّ هذا الخطّ شأنه كشأن أي خطّ تضحوي آخر من معتنقي الجانب الوجداني. غالباً ما يتميز بالفطرة والعفوية في التفكير وفي المبادئ الدّينية، وهؤلاء العفويون غالباً ما يكونون مادة الثورات في العالم، وهم الذين يقودون التغيرات في الأمم وفي الشّعوب، وهم طبقة لا يستهان بها

في حسابات الثورة، فإذا لم تتمكن الحركة التوعوية الجماهيرية، من استقطاب هؤلاء العفويين الفطريين، فإنّ الثورة ستعاني من إنحسار وضعف وعدم القدرة في النّزول إلى الشّارع، ومقاومة الحكّام من قبيل حكّامنا الحاليين[1] أو الحكّام الآخرين ممن سبقونا في هذا الزّمن.

أمّا في أقطار أخرى مثل الغرب أو أوروبا، وغيرها من بلدان العالم المتقدّم، فإنّ مادة الثورة أو التّغيير تقوم على يد شخصيات مختلفة، ومتغايرة عن الشّخصيات التي نتحدّث عنها، بل غالباً فإن أولئك من يملكوا القدرة الفكرية أكثر من القدرة العاطفية أو الاندفاعية، ولذلك ترى أن الثورات الانفعالية ليس لها وجود في عالم الغرب.

وإنّما تستعر الثورات العاطفية[2] في بلداننا فقط في بلدان الشرق عموماً. نعم في أمريكا حركات اندلعت لسبب ما، أهمّها مثلاً فكرة الاستهانة وعدم

(1) فيما إذا لم تتحول مسيرة التغيير التي حدثت في عالم 2003 إلى مسيرة ديكتاتورية أخرى شبيهة بالنظام البعثي السابق، مع أنني استبعد جداً أن يمكن أن يكون ذلك.

(2) العاطفة طاقة ضخمة، ورصيد لدى شعوب العالم الشرقي، ولكنّها في ذات الوقت سيف ذو حدين، فبالقدر الذي تكون العاطفة قوّة مغيرة لنفوس النّاس، فإنّها في ذات الوقت طاقة عمياء إذا لم يحسن توجيهها، شأنها كشأن المال، وشأن بقية حاجات الإنسان الفطرية، وليس بالضرورة أن تكون الثورة العاطفية التي يقودها الشعب هي أقل درجة من الثورة الفكرية، وفي غالب الأحيان ليس هنالك ثورة فكرية حدثت في التاريخ بسبب أن هنالك مفهوماً فكرياً دينياً أو دنيوياً قد تمّ تحريفه، إلّا في ثورات محدودة جداً وربّما تنحصر في المسار الإمامي، ومسار الحركات التي انطلقت من هذا المفهوم مثل: الثورة على عثمان، ثورة الحسين، ثورة زيد، ثورة فخ، ثورات الخوارج، بل انّ الواقع عموماً يرى أن الأساس العاطفي هو ما تقام عليه أفكار الثورة، وبعدمه سرعان ما تخبو في قلوب المتّبعين لها، فقناة العقل هي العاطفة وهي الأقرب إلى مسافة الاجتياز، ولكنّ الاختلاف ما بين الثورة الفكرية والثورة العاطفية هو أيهما يسبق الآخر، لأنّه من المستحيل أن تخلو الثورات اينما كانت من وهج العاطفة، ووهج الوجدان مهما كانت جغرافيتها أو قوميّتها. فمفاهيم الفكر مثل: الظّلم الّذي تعانيه الشعوب. فهو وإن كان مفهوماً فكرياً، ولكنّه محاط بغزارة عاطفية كبرى وهي التي تحرك الناس المظلومين والأمم التي تتعاطف معها. في الدول العربية ومن خلال ثورات الربيع العربي فإنّ الفكر لا يبدو لهم شيئاً واضحاً في فكرة الديمقراطية، بل إنّ الذي حرّك الشارع هو الاستهانة بمشاعر النّاس أكثر منه فكر =

التقدير، كما هي ثورة وحركة (لوس انجلوس) التي اندلعت في التّسعينيات[1].

وفي العراق الأمر الأساس في الثورات هو الاستهانة بالمواطن، وخصوصاً المواطن الشيعي المهمّش، فضلاً عن الظّلم الذي سلّطه الحكام على الشعب وعلى الوطن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام من الزّمن وذلك بسبب شكل الانتماء إلى الفكر الذي يعتنقه، لا بسبب الخلفية العددية أو الخلفية القومية أو ما إلى ذلك، وإنّما جاء من خلال العامل الانتمائي إلى فكر معيّن، الظّلم الّذي اتّخذ أشكالاً عدّة من السّجون إلى التّهميش والقتل، هذا التاريخ هو الشيء الحاضر الغائب في عقلية الإنسان الحسيني والإنسان العادي، والذي انتفض ولكن الفرق بينه وبين الثّوار في لوس أنجلوس هو الزّمن، وأعني بالزّمن: هو أن ثوار لوس انجلوس لهم الخيار في الثّورة في أيّ وقت شاءوا، وثورتهم آنية تابعة إلى حدث ما، أمّا في العراق فإنّ ثوّارنا لا يمكلون خيار الثورة ربما على مدى قرون، وعليهم أن يعانوا من ألم الانتظار أكثر من هَمّ الثورة ذاتها وتبعاتها[2].

= الأكثرية والأقلية والعددية والديمقراطية. . . فمفهوم الاستهانة هو مفهوم عاطفي أكثر منه مفهوماً فكرياً، وهكذا بقية أفكار الثورات في التّاريخ التي تتطلب قائداً يثير في نفوس النّاس العاطفة التي هي المحرك الأكبر لمسيرة الشارع.

(1) عندما ضرب أحد رجال البوليس رجلاً اسوداً (رودني كنك) بشكل وحشي، وكان بالصدفة أن مرّ بذلك المكان شاب بيده كاميرا وقد تمّ تصوير المشهد عن بعد، وقد فرض على الحكومة أن تقدّم الفاعل وهم رجال البوليس -و كانوا خمسة- إلى القضاء، وهكذا تمّ تقديم رجال البوليس إلى المحكمة التي فيما بعد برّأت ساحتهم، فما كان من لوس انجلوس إلّا أن اندلعت ثورة حطمت المدينة بأجمعها، وخسر الاقتصاد الأمريكي من جرّائها أكثر من (بليوني دولار) واستمرت أكثر من أسبوع أعلنت على أثرها الأحكام العرفيّة في تلك المدينة العملاقة، ولم تتوقف تلك الانتفاضة إلّا بعد أن خرج الرئيس الأمريكي بوش الأب على شاشة التلفزيون واعداً بأنّه سيعيد مجريات المحكمة ثانية. وفعلاً فقد تمّ ذلك ورجع الثوار السود الذين كانوا يشعرون بأنّ الظّلم وقع عليهم بسبب لونهم، وبسبب ضعفهم في الدولة والاستهانة بمشاعرهم. وهو الشرارة التي كانت الوقود أو الخزين لهذه الثّورة. (مادة رودني كنك (wikipedia.org)).

(2) الثورة المصرية العظيمة التي انطلقت في عامي 2012 وفي 30 حزيران 2013 =

ففرصة الثورة تأتي في مناسبة تاريخية لا يمكن تكرارها أبداً، وهو ما يجعل الثوّار يعيشون حالة الانتظار الثوري في جوّ من الشّحن العاطفي والوجداني الذي يبنيه القادة التاريخيون، لكي تبقى جذوة الثّورة مستعرة ومستمرّة.

ومن أهمّ الأسباب التي أبقت تلك الجذوة في قمّة الاشتعال هو (المنبر الحسيني) الذي يعتبر بحق المدرسة الكبرى التي كان لها الدّور المتميز والفاعل في إذكاء حماس الناس والأمم والانتقال في ذلك اللّهيب من جيل إلى جيل. هذا المنبر هو القوة الفعّالة التي أسست قاعدة الثورات في المجتمع الشيعي على كيانها والذي كان حاضراً في النجف بشخصية الرجل الشهيد والد شهيدنا الكبير وهو الخطيب السيد جواد شبّر الذي أصبح اللّسان الناطق للثّورة الحسينية، والذي تمكن من احتواء مسيرة الحركة تلك التي بدأت طلائعها تتكوّن في ذلك التّاريخ، تاريخ بداية السبعينيات.

السيد جواد شبر كان يرى -في قدرته الكبرى على قراءة الأحداث- أنّ الطّغيان البعثي لا يمكن أن يزال من الوجود، إلّا بعمل ثوري ضخم تقوده الجماهير الكبرى، وهو نفس منطق الشّهيد الصّدر الأوّل في أيّامه الأخيرة، فقد كان يرى أنّ الثورة هي جماهير، ومن دونها فإنّها ستكون معهد علم وفقه وشتّان ما بين الاثنين[1].

= كانت تمثل إنعطافاً كبيراً ليس في تأريخ المسلم أو تأريخ الشعوب الشرقية فحسب، وإنما في تأريخ مقاومة الإنسان للظلم والتحريف على مدى تأريخ الكرة الارضية، فلم يخبرنا التأريخ بثورة وانتفاضة شعبية كبرى وعظيمة كما هي هذه الثورة الكبرى والتي حدثت في الوقت الذي انهينا آخر فصول هذا الكتاب بحيث لم نتمكن من أن نستفيد من عطائاتها في تفسير أحداث الثورات الاخرى الكبرى في العراق.

(1) إقرأ تصريحات الشهيد الأول الصّدر العظيم في أيام الاحتجاز وأيّام الصّراع مع السّلطة إبّان تولّي صدّام الحكم، كل ذلك تجده في كتاب الأخ الشيخ النّعماني.

كان الشّهيد الأول المؤسس الاول للحركة الاسلامية التنظيمية[1] قد توصّل بعد ثلاثين سنة من التّجارب إلى أنّ الثورة لا يمكن لها أن تنطلق إلّا من عقال البسطاء من الناس والفطريين، أولئك الّذين يتميّزون بقدرات عاطفيّة جيّاشة، ووجد بأن الضرورة في ذلك الوقت كانت تتطلب تحويل داخل النّفس، إلى كيان له قدرة على التفاعل مع مفردات الثورة الحسينية، وقد نجد ذلك جلياً وواضحاً في حركته الأخيرة التي استشهد فيها في أن يقول: إنّ الدّين يحتاج إلى دم حسيني، لكي يفجّر الثورة الكبرى العارمة في نفوس الجماهير، وممّا يؤكّد ذلك تمثله الكامل بسياقات الثّورة الحسينية التي كانت الأخت شريكة له في مسيرة تلك الثورة، كما هي زينب إلى الحسين عليه السلام وبنت الهدى إلى الشّهيد الصّدر[2].

وهنا لنا أن نفهم مقدار الرّعاية التي كان يوليها الشّهيد الصدر إلى الخطيب الكبير السّيد جواد شبّر، الذي كان يعتبره الصّوت الحسيني الثوري الذي يجب أن يسود تلك الفترة من التّاريخ في مسيرة العراق. وهذا ما يفسّر أسباب دعوة السيد جواد شبر إلى إحياء المجلس الذي كان يقيمه الشهيد الصدر في داره كل سنة في وفاة الإمام الكاظم عليه السلام، والذي كان يضم كبار قادة المسيرة الحسينية في العراق وفي النّجف[3].

وثمة شيء لابدّ أن نذكره ونحن هنا في هذا المقال بأن نشير إلى دور السيد جواد شبر والد شهيدنا الكبير في إستمرار جذوة الثورة، من حين انطلاقها في بداية السبعينيات إلى حين اعتقاله واستشهاده في بداية

(1) وذلك كما هو مشهور ما بين الحزبيين الاسلاميين، ولم يتأكد ذلك من خلال قول منه أو من المقربين منه أو من خلال وثيقة مكتوبة أو ما غير ذلك من وسائل التوثيق.

(2) من الممكن الاطلاع على كل ذلك من خلال كتب الذين أرخوا وكتبوا في مسيرة حياته الكبرى أمثال كتاب الشيخ أبو زيد العاملي والسيد محمد الحسيني والشيخ النعماني ومحمد أمين شبر وغيرهم.

(3) مع ان الشهيد كان قبل ذلك يدعو شخصيات أخرى لإحياء المناسبة وهم أيضاً من الوجوه الكبرى الحسينية ومن أعمدة الخطابة.

الثمانينيات، إذ بدأت فترة الجيل الثاني من الحركة الشعبية الحسينية، التي كانت تتسم بطابع الهدوء وطابع تعميق المفاهيم التي كان الشهيد الأول والسيد جواد شبر يدعوان إليها، وهي تأصيل (الجزء العقائدي) للفكرة الحسينية، بمعنى آخر كان يرى أبي الشهيد أن العاطفة في القضية الحسينية ليست هي عاطفة جرداء كما هي المفاهيم العاطفية في بقية الأفكار، وإنما العاطفة في القضية الحسينية هي الفكر، أي أن هنالك تبادل أدوار في القضية الحسينية، وذلك عندما تكون الأفكار عاطفة، والعاطفة فكراً متقداً ومتحركاً، وكان الدور الذي احتله والدي الشهيد في عمق المسألة هو الذي وضع أخي السيد حامد في قلب العاصفة، وفي قلب القيادة لهذا التيار، وبصورة تلقائية[1] وكانت القيادة بالنسبة له أمراً مفروغاً منه، لأنّه أولاً: هو

(1) المفاهيم الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع العراقي منذ ربما بداية القرن الماضي هو أن المنبر الحسيني والقضية الحسينية ما هي إلّا تراث كما هو بقية مفردات التراث الاسلامي التي يتعامل معها المجتمع بالصورة التي ينفصل فيها الفكر عن الجانب العاطفي، وكان رواد الفكر الحسيني أنذاك شخصيات زرعها المجتمع في أفتقادهم لقدرات تسويق القضية الحسينية، فكانت الفكرة محصورة في طبقة الشعراء وطبقة المناسبات الوعظية أو التبريكية وهنا لم نجد في التأريخ ما قبل الستينيات من شخصيات فكرية حسينية، وإنما نجد شعراء عمالقة ونجد متحدثين أو رواة قصص الامام الحسين وليس تسويق فكر الثورة أو فكر التغيير التي تحويها تلك القضية، وعلى سبيل المثال كان السيد صالح الحلي (ت1938) الخطيب المشهور وكان الشيخ اليعقوبي (ت1965) فيما بعده عميد المنبر الحسيني وكان غيره مما يمكن معرفتهم في كتاب (أدب الطف) للسيد الوالد. ولكن كل ذلك كان عبارة عن تراث وعن جانب أدبي بحت ليس له من علاقة مع الواقع الثوري التغييري الذي يحتاجه المجتمع في تنمية بناء الفكر والتغيير ومن ثم إقامة كيان اجتماعي متحضر. كان أبعد شيء عن الفكر التحضري هو القضية الحسينية إلى أن حدث التغيير في أعوام تقريبا بداية الستينيات عندما تحولت الخطابة إلى وسيلة إعلام ودعاية وتسويق وصار هنالك أكثر من خط خطابي وفكري بعضهم بقي محافظاً كما هم معظم الذين ذكرهم السيد داخل الحسن في كتابه (معجم خطباء المنبر الحسيني) وكتاب (خطباء المنبر الحسيني) للشيخ المرجاني، أو غيرها من الكتب، وهنالك بالمقابل كان التيار الواعي الذي صعد بشكل سريع إلى استيعاب الجماهير وبرز من قادته الوالد الشهيد والشيخ العلامة الوائلي والشيخ الكبير المالكي والسيد عامر الحلو والشهيد عبد الرزاق القاموسي، والشيخ عبد العظيم الكندي، والشهيد جابر ابو الريحة، والسيد طاهر ملحم، الشيخ جعفر الهلالي، =

الابن المقرّب إلى أبيه، وثانياً: عمق تشرّب المفاهيم الحسينية في شخصيته، ثالثا: قدراته الشخصية المميزة في الصّبر والتقوى والعلم، وبما وهبه الله من سلامة العقل والجسم وغيرها، هذه الصفات كلها فرضت على شهيدنا الكبير أن يكون له الدور التاريخي في قيادة المسيرة الحسينية التضحوية التي نشأت وفرضت نفسها على السّاحة، وكانت -كما ذكرت سابقاً- بداية لأفكار الخط الصدري الثاني، الذي خرج من رحم الخطّ الحسيني الذي رعاه الشهيد الأول، وتبناه الخطيب الكبير أبي السيد جواد شبر، وواصله أخي السيد حامد شبر إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن.

ويتذكر الكثير من رواد الخط الحسيني الثوري، وأهالي النجف بالخصوص الدور الهائل الذي كان يقوده السيد جواد شبر الذي بقي هو الوحيد الذي يرفع لواء المواجهة مع السلطة في منابره وخطاباته[1] التي لا يتمكن البعث أنذاك من إيقاف إقامة تلك المناسبات، لأنّها مناسبات متجذّرة في العمق، في عمق المجتمع النجفي، وكان البعث وعندما عجز عن منعها في المساجد والشوارع والبيوتات حاول أن يستوعبها ويجيّر

= والشهيد ابو الطابوق وغيرهم من الذين شهدت لهم الاعواد في قدراتهم باتجاه بناء مفاهيم المجتمع الفكرية والثورية. وما دمنا نتحدث عن المنبر الحسيني لا بأس بالاشارة إلى غرابة الواقع النجفي الذي لم تكن له من مدرسة لتخريج الخطباء وإنما كانت الجهود تجرى بشكل فردي بحت إلى أن بادر السيد الحكيم وبشكل محدود إلى فتح دورة وليست مدرسة لتعليم الخطابة في ربما اوائل السبعينيات وتخرج منها البعض من الاسماء الكبرى اللامعة أمثال الشيخ المرحوم الصيمري وغيره. ما أريد الإشارة له هو أن مفهوم الخطيب الان في الوسط الشيعي لا تتطلب أكثر من شخص يرتقي المنبر له معرفة ببعض الندب والافكار، وهي قضية تحتاج إلى مراجعة من قبل الحوزة لوضع ضوابط علمية وفكرية لصفات الخطيب أو من له الحق في التحدث بأسم الفكر الشيعي أو الفكر الحسيني.

(1) مع الآسف لم يبق في ذلك الوقت من الخطباء المبدأيين الذين يرنو اليهم المجتمع أحداً في العراق، فالكثير منهم غادر العراق أو أنه ركن إلى السكوت أو ترك الخطابة أو ما إلى ذلك لأن النظام ربما ساوم الجميع من الخطباء في استمالتهم إلى جانب مساندة السلطة بعضهم مال إلى ذلك خوفاً وبعضهم قتل وبعضهم سجن وبعضهم غير مهنته الى مهنة أخرى وهكذا. ولكن الكثير منهم آثر التعاون المحدود مع النظام تجنباً للقتل والتعذيب.

الخطباء في صالح مخططاته المعادية للدين مثل: مدح الرئيس والحزب، والانتقاص من الآخرين من العلماء وخصوصاً الإمام السيد الخميني العظيم[1].

فقد أعتقل والدي السيد جواد شبر أوّل مرة في صيف عام 1978قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وكانت من أشدّ الأحداث التاريخية هيجاناً في العراق، وهي الفترة الواقعة ما بين انتفاضة صفر وبين نجاح الثورة الإسلامية في إيران في فبراير من عام 1979 والتي كانت تمثّل المحك الحقيقي للجميع من الناس، وتمييز المؤمن عن غير المؤمن، والصحيح من المزيف في المبدأ.

وقد تسلّم صدّام السّلطة فيما بعد سنة من ذلك التاريخ، وأصبح الحاكم المطلق القوي الذي لا ينافسه أحد في كلّ العراق، وبدأ بالتّوجه إلى استئصال الإسلاميين وخصوصاً أولئك الذين يتميّزون بامتلاكهم القدرة الشعبية في تحريك الجماهير وهم الحسينيون أولاً، ثم الحركة الإسلامية المنظّمة، وأن الخطر الآن متأتّ من الجانب الجماهيري الشعبي، حيث تقبع قياداته في محيط النجف وكربلاء، بالإضافة إلى مناطق ومدن أخرى.

وبسبب ضعف نظرة صدّام إلى الأحداث وغروره بامتلاك عنصر القوّة والسّلاح، وبسبب عنجهيته، وقلة اطلاعه على التّاريخ، وعدم تقديره للقوّة الفعلية للحركة الإسلامية، والمدّ الجماهيري المتأصّل الحسيني، هذا بالإضافة إلى خداع الدول العربية له. كتلك التي تعيش عقلية (التسنن السياسي)[2]، التي كانت من مصلحتها ضرب التشيّع في العراق. . . لكلّ

(1) أعلى الله مقامه ونزهه عن ما يقوله الأعداء.

(2) معظم الأحيان تكون (الطائفية السياسية) مكرسة من ساسة ليس لديهم التزام ديني أو مذهبي بل هو موقف انتهازي للحصول على (عصبية) كما يسميها بن خلدون، أو شعبوية كما يطلق عليها في عصرنا هذا ليكون الانتهازي السياسي قادراً على الوصول إلى السلطة. إن مجرد الانتماء إلى طائفة أو فقرة أو مذهب لجعل الإنسان المنتمي إلى تلك الطائفة طائفياً كما لا يجعله طائفياً عمله لتحسين أوضاع طائفته أو المنطقة التي يعيشون فيها =

ذلك كان يُعتقد بأنّ نهايته ستكون على يد الإسلاميين الجماهيريين الذين تتشابه قدراتهم مع الشارع الإيراني الذي انتهى توّاً من حسم النتيجة لصالح الثّورة، فكان أول ما قام به هو تصفية المقرّبين منه المخالفين له في التّوجه الدّموي أمثال عدنان الحمداني، ومحمّد عايش، ومحمّد محجوب، وغانم عبد الجليل، وحسن العامري (قتلوا عام 1979)، وغيرهم من قادة الفرق العسكرية وأمراء الفيالق، في الوقت الذي كان الخط الديني يزداد عمقاً في المجتمع العراقي، إذ كان العالم، وخصوصاً الدول المعنية بالوضع العراقي وبالتّحديد أمريكا تبحث عن شخصية أخرى غير الشخصية الصدّامية المنفعلة لكي تقود العراق في هذه المرحلة الخطرة من تاريخه[1].

في تلك الفترة الحرجة من الزمن، كانت الأحداث ساخنة جداً تشتعل في هذا البلد وفي ذاك البلد وتتأجّج في النّجف، ثم يعاد صداها في مناطق العراق الأخرى... ولكنّ السّؤال الذي نسأله: هو من كان المحرك للأحداث ومن كان مادة الثورة آنذاك...؟ كان مادة الثورة هو الخط الحسيني، وكان المؤجّج للصّراع هو الشّباب الحسيني، وكان الخطيب والصوت الهادر هو فقط السيد جواد شبر الذي ملأ النجف بخطاباته

= دون إضرار بحق الآخرين، ولكن الطائفي هو الذي يرفض الطوائف الأخرى ويغمطها حقوقها أو يكسب طائفته تلك الحقوق التي لغيرها تعالياً عليها أو تجاهلاً لها وتعصباً ضدها (راجع كتاب أمين المعلوف، الهويات القاتلة).

(1) لقد كان هنالك ثلاثة آراء. أولهما: هو الرأي الأمريكي الغربي والدول السائرة في ركابه، ومن ضمنها المجموعة السوفيتية والتي كانت ترى في عجز صدام عن قيادة العراق في هذه المرحلة بسبب أميّته السياسية وبدويّته في التعامل الدولي والمحلي، والرأي الآخر هو تثبيت السّيطرة الصدامية على العراق بالشّكل المطلق وهو رأي السعودية أولاً والأردن، ورأي التّوجه الديني المتعصّب من المؤسّسات الدينية الكبرى في العالم وعلى رأسها الرأي الوهابي ورأي القاعدة والكثير من المكونات السياسية وأؤكد السياسية الإسلامية. تلك القوى المستنفذة في الكثير من البلدان المحيطة بالعراق السعودية ودول الخليج والأردن وربما تشاركها مصر والباكستان، أما الرأي الثالث: هو الرأي الخاص الفردي الصدامي الذي كان لا يخرج عن نطاق الاستحواذ الكلّي على الواقع العراقي والذي كان له خيار التطبيق بسبب فرضية الأمر الواقع التي لم يسمح صدام لغيرها في العمل.

وأقواله ومفاهيمه التضحوية، التي كان يشير فيها بالتّلميح إلى قيادة الإمام الخميني وإلى فكر الثّورة الحسينية، التي كان يذكرها وكأنّه يذكر الإمام الخميني والثورة الإسلامية في إيران[1].

ولم يقف البعث صامتاً أمام هذا النوع من التّحدي، فأقدم على اعتقال والدي للمرة الثانية في منتصف الشهر السّابع من عام 1979 وأخذوه مباشرة إلى الشعبة الخامسة في مديرية الأمن العام، وكان المدعو زهير التكريتي المسؤول هناك يعاونه النّقيب فيصل[2].

---

(1) هذا غاية ما كان يتمكّن منه الخطيب أن يقوله في ذلك الجوّ الإرهابي المتشنّج. فالثّورة في تلك الفترة يجب أن تبنى في محيط خاص، وحاضنة معينة بحيث تنشأ الأجيال الثورية من دون وعي السّلطة واطلاعها هذا النوع من البناء، في الوقت الذي كان الجميع من أفراد المجتمع يأخذ على السيد الوالد اندفاعه في المواجهة مع السلطة، وإنما كان البعض من المحبين للوالد الشهيد يرى وجوب مغادرة الوالد النجف أو عقد صفقة مهادنة مع السلطة.

(2) الإسم الأول هو أسم مخابراتي أو لقب له لم يعرف اسمه الحقيقي، أمّا الثاني وهو العقل المدبر للشعبة كان اسمه الحقيقي نوري الفلوجي والمجرمان العتيدان اللذان أذاقا والدي وبقية المؤمنين أشدّ أنواع العذاب في زنزاناتهم المظلمة الرّهيبة، وقد صادف أن والدي قد قضى رمضان داخل السّجن في الشعبة الخامسة، وفي يوم العيد كما يروي والدي: أنّ مدير الأمن العام فاضل البرّاك (ت1993) قد زار السجن وقد قيل له أنذاك بأنّ السّيد جواد شبر معتقل هنا، فتوجّه المجرم باتّجاه والدي الكريم، وكان النّاس والسجناء في خوف شديد من قدوم هذا المجرم الذي ربما بإشارة من يده يرسل من يريد منهم إلى المشنقة، وهو أمر اعتاد عليه نظام البعث، ففي كلّ زيارة من زيارة المسئولين إلى السّجون تكون الضحية عشرات من الشهداء، فسكت الجميع وكأنّ على رؤوسهم الطير، ولا يدري أياً منهم ما ستؤول إليه الأمور. . . وربّما يأمر مباشرة بإعدام السّيد جواد شبر. . . وكان عمره أنذاك قد تجاوز السّبعين، وحاول فاضل البراك أن يظهر لوالدي بأنّه غير مبالٍ به وأنّه سجين كبقية السّجناء فما كان من والدي الشهيد العظيم إلّا أن يُسمعُهُ وهو على بعد أمتار منه مقطوعة شعرية رائعة تبيّن له بأنّ العدل أساس السّلطة، وأنّ المظلوم له حق أن يقول ما في نفسه، وللأسف لم أعد أتذكر أبيات الشّعر التي ذكرها والدي أنذاك، ثمّ أخبرني: بأنّ فاضل البرّاك اقترب منه وقال له: أنت جواد شبر؟ أجابه والدي: أنا مواطن عراقي، وخطيب وموجّه إلى النّاس على دالة الخير، وأنا الجيل الذي يفتخر به العراق، فطأطأ فاضل البرّاك رأسه في موقف لم يتوقعه من سجين في تلك الزنزانات الرهيبة في الشعبة الخامسة، ومن شخصية تجاوزت السبعين من العمر، فقال البرّاك إلى المجرم زهير =

أطلق سراح والدي الشهيد العظيم -بعد ربما مرور أكثر من خمسة أشهر على سجنه[1].

= التكريتي الذي كان إلى جنبه كلمات لم يتبين والدي الشهيد معناها، وقال لأبي ثانية: سمعت من الرئيس إنّك هنا ويبدو انه صدام على ما يظهر من هذا الكلام، ثم اقترب أكثر من والدي ونظر له بعين كلها إعجاب وكأنّه يريد أن يقول شيئاً لم يتمكّن من النّطق به... إستغلّ والدي الفرصة وقال له بما معناه -ببيتين من الشعر كان والدي قد ارتجلهما- تعنيان بأنّ شهامة الرّجل في إنصاف المظلوم، وأنّ الشجاعة هي شجاعة العفو، لا شجاعة السّجون والتّعذيب... تحرّك فاضل البرّاك تاركاً والدي وحده... و لكن الجلاوزة وبعدما انتهت زيارة البرّاك استدعوا والدي الشهيد وبدأ التعذيب معه لأنه تكلّم... فكيف تجرّأ أن يتكلّم..؟ ومن أين له هذه الشّجاعة في الحديث مع أعتى طاغية آنذاك

(1) وأذكر هنا للأمانة العلمية والأخلاقية بأنّ الشيخ الكبير الخالصي محمد مهدي قد بذل جهداً في هذا الطريق جزاه الله خير الجزاء، كما بذل أيضاً الشّهيد الأول رحمه الله جهوداً ليست بالقليلة في سبيل إطلاق سراحه.. مع أنّ العلاقة التي كانت تربط العلّامة الكبير الخالصي مع والدي كانت محدودة، ولكنّ الإباء والنّخوة كانت من سمات ذلك الشيخ. ولا غرو في ذلك فهو من سلالة ذلك الجدّ المجاهد الكبير الذي قاد الثورة الكبرى. وفي يوم إطلاق سراح والدي من السجن رجوته رحمه الله أن نزور الشّهيد الصدر فلم يتردد في الخشية من مراقبة عيون السّلطة، فذهبنا مباشرة إلى مكتبه في الطّابق العلوي، فقام الشهيد على رجليه احتراماً لوالدي، ثم بكى مع إبقاء ابتسامته على وجهه، وكأنها دمعة الفرح مخلوطة بدمعة الجهاد والتّضحية، ثم بدأ الشهيد بالمزاح مع والدي، وقال من جملة ما أتذكر بأن النّاس تصرف الأموال الكثيرة في سبيل التخلص من الوزن الزّائد أمّا أنت يا سيد جواد فقد فقدت الكثير من وزنك بدون خسارة أي مال. في الوقت الذي كسبت رضا الباري عز وجل... ثم جرى حديث عام وقال له الشهيد رحمه الله يا سيد جواد إنّه لمن الصعب على الطائفة أن تفتقدك، ومن الصّعوبة أيضاً على المنبر أن يراك بعيداً عنه فكن لهما قريباً، لم يتكلم والدي حينها بشيء وكان الوالد يحترم الشهيد الصّدر غاية الإحترام، مع أنّه أكبر منه سنّاً ولكنّه كان يرى فيه كلّ مقومات الشخصية الكبرى الإسلامية التي لا تعوّض... أردنا أن نغادر بعد ربع ساعة على اللّقاء، ولكنّه رحمه الله كان يطلب من والدي أن نبقى لكي يناقشه في بعض ما رأى، وما صار هنالك، ولكن والدي كان قد آلى على نفسه أن لا يشكو لأحد أبداً ما عاناه في السّجن وأن لا ينقل رؤيته، لأنّ ذلك يولّد الإحباط في نفوس الآخرين، وهكذا كان لا يقول إلّا الحمد الله... وما دمنا في مناسبة سجن الوالد وأذكر أني كنت أهتم بمرافقته بعد خروجه من السجن الأول وكان في عام 1978 وقبل انتصار الثورة الإسلامية بأيام وذلك خوفاً عليه من الاغتيال أو السّجن ثانية، أو على صحّته الّتي تدهورت، وقد صادف أن التقينا في أحد الأيام مع مرافق السيد الإمام الخميني رحمه الله، =

= فسلّم على والدي ثم نقل إليه رغبة الإمام في رؤيته بعد أن علم بأنّه قد غادر السجن، شكره والدي وطلب منه أن يبلّغه تحياته واهتماماته ورعايته، فسألني والدي وقتها عن رأيي في زيارة السيد الإمام وفي غمرة الأحداث السّاخنة، حيث كان الإمام أنذاك في دائرة الضوء وفي قمة التّحدي مع سلطة الشاه..سألني فيما إذا كنت أرحّب بالاستجابة لطلب الإمام، أخبرت والدي كما أذكر بأنّ دعوة السيد الخميني لا يصح ردّها أبداً، فهو شرف لنا كلنا، ثانياً يجب أن تختار الوقت المناسب لأنّ مجلس السّيد الإمام ملغوم بعناصر المخابرات العراقية. وهو ما سوف يزيد من المتاعب المستقبلية له... وأرسل والدي أحد طلبة العلوم الدينية في اليوم التالي إلى السيد الإمام وكان من طلابه ليخبره بالوقت المناسب للزّيارة، ولكن السيد الإمام كان قد غادر إلى الكويت ثم (نوفل لوشاتو) فرنسا بعد أسبوع من ذلك التّاريخ.



تموتون أم ماذا...؟



كانت قمّة المواجهة ما بين الحسينيين والسّلطة قد استعرت في أوجها عام 1977 وقد تمكن الحسينيون بقدراتهم الشّابة الكبيرة على إرغام السّلطة على الاستسلام أمام تحركّاتهم ومظاهراتهم، ولكن هذا التّحرك في عام 1977 لم يكن في الواقع إلّا تخطيطاً منسّقاً من قبل السيد حامد الشهيد مع أقرانه من الشبّاب الحسيني الذين بدأت مدينة النّجف تزخر بأسمائهم وقدراتهم[1].

وكما أتذكر هناك أسماء لامعة اشتركت في التّخطيط جنباً إلى جنب مع السّيد حامد منهم: الشهيد محمد سعيد البلاغي، وابن عمه محمد جواد البلاغي، وحسين قاسم الخطّاط، وعلي عبد الباقي، وعلي القبانجي، وشخص اسمه جودي ولا أذكر اسم عائلته وكذلك جاسم الأيرواني، وكذلك أخي الأصغر الخطيب السيد أمين شبر ومجموعة كبيرة من الشّباب.

كانت المفاجأة التي لم يتوقعها البعث أنذاك هو الانتفاضة العارمة التي هزّت كلّ كيان السلطة، بعد أن خطّط الشباب الحسيني المتحمّس إليها وتمكّنوا وباسلوب دقيق أن يكسروا إرهاب السّلطة، واحتلال قلب النّجف بشكل كان فعلاً مفاجئاً وغريباً.

ولقد سبقها في ذلك التاريخ اجتماع دعى اليه محافظ النجف جاسم الركابي في يوم 14 من شهر صفر، المصادف 3 فبراير 1977 في مقرّ

---

(1) في تلك الفترة من واقع النجف وفي حدود ما بين 1971 إلى 1979 كانت (المودة) هو التوجه إلى الخط الحسيني كما كانت المودة لفترة ما هو التوجه اليساري في الستينيات أو التوجه التديني الحزبي في بداية السبعينيات. وهذه المودات الاجتماعية في سياقات مسيرة الناس لها تأثير كبير على تكوين الشخصية.

الحزب، حضره كلّ وجهاء النجف (كذا) وعوامهم وشيوخهم ورؤساء المواكب وبعض المعمّمين المحسوبين على النّظام، وعدد هائل من النّاس، وكان المتكلم المحافظ أنذاك، وفي كلامه استنكر هذه الشعائر الحسينية، وقال إنّنا في زمن التحضّر والديمقراطية، وليس لنا من طريق لتأييد هذه المظاهر البالية (كذا) التي تعتبر من العادات المنبوذة.

استمرّ بكلام أقسى من ذلك بما لا يليق لنا أن نذكره هنا، ثم قال بأنّه يمنع رسميّاً أي محاولة للتعبيرعن شعائر (يوم الأربعين) بالسّير إلى كربلاء من النجف أو من غير النجف، وسوف يأمر قوات الأمن إلى منع القادمين من محافظات الجنوب، وإنه سوف يبثّ العيون والمخابرات فيما لو حاول أحدهم كسر الإضراب المفروض عليهم، وأنّ السجن والإعدام سيكون مصير كل من تُسوّل له نفسه مقاومة رأي السّلطة والحزب.

ثم هدّد كل النّجفيين وقال لهم بأنّه يملك أوامر من السيد الرئيس (البكر) (ت 1982) بإطلاق النار على كلّ من يحاول السّير مشياً إلى كربلاء.

وبعد الانتهاء من هذه المقالة المطوّلة قامت له إمرأة[1] فقالت تلك المرأة في في ذلك الحشد الهائل: يا حضرة المحافظ دعني أقول لك شيئاً: هنالك في إيطاليا جبل حاد الصّعود، والوصول إلى قمّته قد يستغرق أياماً مع القسوة الكبيرة من جرّاء نوعية الصّخور الناتئة التي يتكوّن الجبل منها، يحجّ إليه آلاف النّاس سنوياً مشياً على أقدامهم العارية، لرواية تقول بأنّ المسيح عليه السلام كان قد مر على قمته قبل أكثر من ألفا سنة، ثم أضافت هذه المرأة قائلة: ويزداد الحجاج بشكل مطّرد لا مثيل له في الوقت الذي لا تتمكن الحكومة الإيطالية من تعبيد طريق خاص للوصول إلى قمته...

(1) وكانت كما أتذكر في عمر الأربعين ولا أدري من تكون، وقد حاولت مراراً أن أعرف هويتها وعائلتها فلم أتمكن إلى هذا اليوم، فقد كانت بليغة متمكّنة من التاريخ ومن المعرفة بتاريخ الشعوب بالإضافة إلى حسن إلقائها وثقتها بنفسها مع أنني لم المس في التجمع النسائي الواعي أو طالبات الجامعات ممن كنت التقي بهن من العراقيات من يملك هذه القدرة التاريخية والبلاغية مع شجاعة التحدي.

لأنّ المسيحيين المؤمنين يرفضون ذلك ويرون أنّ الدّماء التي تسيل من أرجلهم هي شعار الخلاص من الخطايا. . . واستمرت المرأة المجهولة: هؤلاء في بلد أوربي متحضّر يمارس فيه النّاس طقوسهم بسبب رواية قديمة عمرها ألفي سنة، وأنت تقول بأنّنا نمارس شعائر رجعية عفا عليها الزمن، ونحن في طريقنا إلى رأس ابن بنت نبي هذه الأمة، الذي قتل ظلماً وعدواناً. . .

وما أن انتهت هذه المرأة وإذا بالهتافات تتعالى في القاعة الكبرى بشكل تتجاوب معها جوانب البناية (أبد والله ما ننسى حسينا) وحدث هرج ومرج خرج المجتمعون بعد أن توجّه (عباس هادي عجينه)[1] إلى المحافظ ليقول له أن موعدنا بعد الغد. إما أنت . . . (ثم سكت) وإما الحسين. . . ضجّت القاعة بالهتاف وتدافع الناس، وهرب البعثيون الذين كانوا منهزمين أمام قوّة الجماهير.

وقد كانت هذه الحركة من قبل النجفيين رقماً مهماً في تسجيل الانتصار على الوضع القمعي في النجف، وقد شعرت الجماهير بأنّ السّلطة قد اعترفت بضعفها عن مواجهة التحدّي المقبل.

بعدها اجتمع الحسينيون الثّوار، وكان -كما ذكرت- قد بيّتوا أمراً مهماً، هو إمّا الانتفاضة أو الموت، وكان الناس في قمة الاستعداد، وقد خرجت النجف بأجمعها رجالاً ونساءاً وأطفالاً ليعيشوا ملحمة المواجهة الموعودة، المواجهة ما بين الحسين وبين أعدائه، أو بين شعب وأمة متشربة بحبّ الشهيد الكبير، وبين السلطة الرعناء.

كان الجوّ أنذاك بارداً، وفي أيام شهر فبراير من السنة، وكان المقرّر

---

(1) أعدم في تلك السّنة بعد أن حكمت عليه المحكمة الخاصة التي شكّلها صدام برئاسة فليح حسن الجاسم عضو القيادة القطرية للحزب وعضوية كل من حسن العامري عضو القيادة القطرية أيضاً ود. عزت مصطفى وزير الصحة أصدر حكم الإعدام على الشهيد عجينة وعلى سبعة آخرين بعد أن تم قمع الانتفاضة.

أن تبدأ المسيرات كما هي كلّ سنة مبتدئة من النجف مشاةً باتّجاه طريق كربلاء، تسير من مقرّاتها في أطراف النجف ويتجمّع الناس في ساحة الميدان ثم يخرجون إمّا بمواكب وإما فرادى، وكانوا يأخذون معهم قدورهم وأوعيتهم وأفرشتهم والخيم، بالإضافة إلى الطّعام والماء وكل ما يحتاجونه من عُدد خلال ربما أكثر من خمسة أيام.

والموكب عندما يخرج فإنّه يسير بهيبة ووقار. يملكك ويسيطر على مشاعرك بطريقة تشعر وكأنّ العالم كلّه يصيح يا حسين.



ننطلق إلى الحياة



كانت ساعة الصّفر تقترب وتقترب، والكلّ قلبه على الثوّار، وأهبة المواجهة والمخابرات منتشرة في كلّ زوايا النّجف بسياراتها (اللاند كروز) القهوائية... بالإضافة إلى عناصر جيء بهم من المحافظات شمال بغداد وخصوصاً من منطقة الحويجة[1] ومن مناطق مثل غرب العراق القريبة من الحدود السّورية كما تظهر على أشكالهم ولهجاتهم[2].

وكان النجفيّون في ذلك الوقت يعيشون لحظات انطلاق الشرارة الأولى، في الوقت الذي كان كاتب السطور حاضراً في ذلك اليوم في قلب النجف في بداية شارع الصّادق من جهة الصّحن الشّريف، والذي صادف في الرابع من شهر فبراير 1977، 15 صفر 1397.

وكنت أنتظر الأمر والشّرارة في الانتفاضة، في اللّيلة التي قبلها حيث جاءني السيد حامد وقال لي: عليك أن تخرج من النّجف، قلت له لماذا ..؟ قال: غداً سيكون يوم الملحمة، وأخشى اعتقالك لأنّهم يبحثون عنك وعن خيوط كلّ تحرّك، وهم يتهامسون فيما بينهم أنّ أولاد السيد جواد شبر هم قادة الانتفاضة. فإن اعتقلوك فإنّه لمن الصّعوبة أن تتمكن من الإفلات من قبضتهم، لأنّك في وضع لا يسمح لك ذلك، فأنت الآن في بداية

---

(1) هذه المنطقة مركز خليط من العشائر تحدّها الجزيرة أي أرض الخصب التي يرعى بها الرعاة أغنامهم، كما أنّها تحدّ المناطق الشمالية الكردية، وقد سعى النّظام إلى جعل هذه المنطقة مميّزة لتكون سدّا مانعا للزّحف الكردي على كركوك، وتسكن المنطقة عشائر اهتم النظام البعثي كثيراً في استخدامهم كأداة قمع للمحافظات الجنوبية إذ كانت نسبة الولاء للنظام مميزة في أبنائهم من الشّباب.

(2) تبحث الأنظمة الديكتاتورية دائماً عن مجتمع تتمكّن من أن تزرع فيه الأفكار السوداء مثل الطائفية وغيرها، وكان النّظام يحرص على ذلك لزرع التّفرقة بين تلك المنطقة من العراق وبين الآخرين. (التغيير الآمن، عمار حسن).

مستقبلك أنهيت دراسة الماجستير وقد تمّ تعيينك في جامعة الموصل. فإن تم الاعتقال ستكون أنت أولهم، ابتسمت في وجهه ولم أنبس ببنت شفة، ثم قلت له وأنت..؟ قال: أنا لست أنت، قلت له: وأنا لست أنت أيضاً، ضحكنا معاً ثم افترقنا.

كنت أعلم بأنّ هنالك شيئاً ما يخطّط، وأنّ المخطّطين هم الشباب الحسيني، لا الحركات الإسلامية الفكرية[1] ولا عوام النّاس وإنّما بدأت الجماهير بالوعي وبالعمل التضحوي على أيدي هؤلاء الذين نسميهم الحسينيون الأبطال.

لم أكن أعلم من أين ومتى وكيف ستنطلق الانتفاضة، في حسّي الدّاخلي كنت أشعر بأنها ستكون إمّا من شارع الصّادق أو من شارع زين العابدين، ولا تقبل الأمور الخطأ في غيرها.

درت دورة ثم دورتين ثم عرفت أن السّيد حامد قد غادر البيت مبكراً بعد أن لبس ملابس عادية ولم يقل أين هو ذاهب ومتى سيعود، أمّا أنا فإنّني كنت أعلم بنيته، أعلم بأنّه ذاهب إلى حيث النّداء الحسيني. الذي -مع عاطفتي تجاهه- لم تكن لي القدرة والجرأة على أن أقول له بشعوري الأخوي العاطفي: وهو لا تذهب، كان بودي أن أتمكن من أن أقولها له، ولو طلبت منه ذلك لكان استمع لي ولامتثل لطلبي، لأنّه كان مطيعاً وأخاً جيداً باحترامه للكبير، ولكنني كنت مشفق على نفسي إن قلت له لا تذهب!!

غادرت بيتنا في منطقة الحنّانة بعد أن تسارعت الأخبار بأنّ الحسينيين على موعد مع المواجهة، وأنّ الثمن سيكون غالياً، خرجت في الساعة

(1) كانت السّلطة من مصلحتها أن تربط كل عمل جماهيري ديني بالأحزاب الإسلامية السّياسية، وهو أمر يسهل عليها الضرب بقسوة على الجميع بحجة التّسييس والتّحزب، وكان المجتمع النجفي حسّاساً من هذا الأمر، ويرى في ذلك أنّه يجب على السياسيين الدينيين في إظهار هويتهم إمّا الدينية أو السياسية.

التاسعة صباحاً، وكما أذكر كان يوم جمعة، نزلت في أطراف النجف ثم سرت قاطعاً السّوق الكبير إلى أن وصلت إلى الصّحن الشريف، وإذا بي وجهاً لوجه أمام شهيدنا السيد حامد، وجدته مصفر الوجه، مرعوباً، يتلفت يميناً ويساراً وكأنّه يبحث عن شيء ما... وكان في جيبه كوفيّة صغيرة وعلى ما أذكره كان يرتدي سترة بنّية اللون، شعث الشعر، مخطوف اللّون، قد علا الاصفرار وجهه، واختفت الحمرة من خديّه..

استوقفته وسألته ما الخبر يا أخي ...؟ قال لي بعد أن قرّب فمه من أذني:

- لقد هجموا على البيت...!

- هجموا على البيت...؟ كيف؟...صحت في وجهه.

- وأين هم الآن... سألته

- لا أدري... أجابني...

- أيّ بيت تتكلّم عنه...؟

- بيت الراية...

- أمتأكّد أنت...سألته...

- الآن أخبرني الشباب... وأن الأمر لن يتعدى السّاعة إلّا ويصبح الجميع في رهن الاعتقال

- أبداً ليس هذا يوم اعتقال... قلت له... أبداً أنت مخطئ

- كيف..؟

- نعم أنت مخطئ قلت له وصرخت في وجهه.

تردد السيد حامد من صوتي، ثم قلت له: إذهب الآن وتحقّق بنفسك فبيت الراية لا زال كما هو لا تخف...[1].

ويبدو أن الأمن والمخابرات قد بثوا إشاعاتهم في المدينة بأنهم هجموا على كل البيوت، التي من المفترض أن تنطلق منها المظاهرات وكان الحسينيون يسمّون البيت الذي ستنطلق منه الراية ب(بيت الراية). وقد انتشرت الشائعة التي بثها البعثيون كالنار في الهشيم ما بين الناس كي يتفرّقوا ويخافوا من البقاء في المدينة، ولكنّني بحسّي السياسي أدركت اللعبة... استعملت الحس الفطري في المبادرة، وقلت لأخي الشّهيد وبشكل حازم وبدون تردّد:

- وما دورك أنت...؟

- ضرب أوّل رجل أمن يحاول أن يسرق سارية الرّاية

- وما تحمل معك؟ سألته

- خنجر صغير (كديمي)

- أين وضعته...؟

- في جيبي داخل القمصلة من الدّاخل

- لا تستعمله إلّا للضرورة، كن حذراً

- زين... أجابني

- وما موعد الانطلاقة...؟..سألته

- في العاشرة

- وأين الشباب..؟

---

(1) لم يكن لي أنذاك علم لا بأخبار الهجوم، ولا بعدم صحته، ولكن السّليقة والفطرة كانت تنادي بعدمها، ولا أدري لماذا، وكأنّني كنت متأكداً من عدم تمكّن القوّات الأمنية من الهجوم على البيت، وأن الراية في طريقها إلى الظهور وأنّه أمر متحقّق.

- كلّ في واجبه. . .

- وأين يجب أن تقف أنت الآن؟

- في باب السّوق الكبير من جهة الصّحن

- وهل تعرف من أين ستنطلق . . .؟

- قد يغيّرونها حسب الوضع الامني

- إيّاكم أن تكون من السّوق الكبير فإنّها مصيدة لكم

- نعرف ذلك

- اذهب لواجبك قلت له ولا تتأثّر بالإشاعات أبداً. . . فالرّاية هي الرّاية. . . يدك على الخنجر. . . وقلبك مع الله. أخذ يدي وصافحها.

تحرّكت مسّرعاً إلى شارع الصّادق لانّني بحسّي الاجتماعي كنت أرى أنّ الانطلاقة ستكون من (البرّاق) وليس من (المشراق) لاعتبار أنّ أكثر الحسينيين هم من محلة البرّاق، وما لم يبدّل الحسينيون خطتهم في إيهام رجال الأمن فإنّهم سينطلقون من المشراق.

إستدرت على شارع الصادق وكانت الساعة تشير إلى التّاسعة وأربع وخمسون دقيقة فالتفتّ وإذا بسيد وهّاب الطالقاني والشهيد صادق الخاقاني يقفان على الرّصيف المقابل لأسواق (اورزدي باك) في دورة الصّحن الشريف، فقلت في نفسي إنّه هنا إذن. . . من هنا ستنطلق الثّورة. . .

وما كدت أصل إلى بداية الزّقاق المؤدي إلى المدرسة الشبّرية في منتصف شارع الصّادق وإذا بصوت يهزّ عنان السّماء وتتجاوب معه الأفلاك. . . (أبد والله ما ننسى حسينا)[1] وإذا بالرّاية الخضراء تُرفع خفّاقة

(1) هذه التنغيمة وهذا الصوت والكلمات لها وقع السحر على المحبّين من عشّاق الحسين، وكأنّها تتناغم مع وجدانهم وهم يستسلمون صاغرين أمام كلمات هذه الأنشودة الخالدة التي تتراخى أمام انسيابيتها هامات الرجال وجموع الأبطال، وقد تحوّلت مع الزّمن إلى =

في نهاية شارع الصّادق يحيطها عصبة من الأبطال الحسينيّين ربما عددهم لا يتجاوز الخمسين أو أقل، وبصوت واحد يردّدون وبشكل هستيري (أبد والله ما ننسى حسينا) لم أحتمل أنذاك أن أتحرك، أو أن أنطق بشيء، أو أن أبادر إلى عمل أي حركة سوى أذرف دمعتين سخيّتين انحدرتا على خدّي وأنا أركض مهرولاً، وبدون شعور نحو الرّاية، خوفاً من أن تُجهض أو تُرمى بالرّصاص من قبل عناصر المخابرات التي كانت تملأ المكان.

كنت مع ضعف جسدي أحسب نفسي -خطأً- بأنّني سأكون قادراً على حماية هذه الفئة الحسينيّة من هجوم المخابرات.

كُتب على الرّاية العملاقة الآية الشّريفة (نصر من الله وفتح قريب يد الله فوق أيديهم).

وبمجرد أن نشرت الرّاية خفقاتها والتي كان يحملها كما أذكر وربّما لست متأكّد شخصاً إسمه محمد جودي، وقد غيّراعتقادي هذا حينما أخبرني البعض من الأخوة بأنّ فارسها كان الشّهيد على القبانجي.

كان شاباً بعمر التّاسعة عشر قويّ واثق من نفسه طويل القامة[1].

إجتمع الأشاوس حولها وهم في حماس منقطع النظير، وإذا بالفئة

= شعار للنخوة بين النّاس، كأنّه أمثولة كبرى لعالم الإنسان المظلوم، ولا أدري بالضّبط من هو منشدها الأول. . .؟ وعندما اكتمل وعينا وجدنا هذه المقولة تسبقنا في المفهوم ولعلّها نزلت إلى ساحة المواجهة في نهاية الستينيات في ظروف الاحتكاك مع الخط الحسيني الجديد.

(1) هو الشّهيد السّيد علي القبانجي ابن الخطيب المجاهد السيد حسن القبانجي (ت 1991) العائلة التي جمعت صفات التقوى بعجين التّضحية، فكانت النموذج المثالي للعائلة النجفية المجاهدة وقدّمت أوّل أضحيتها في 1974 عزّ الدّين القبانجي، ثم علياً هذا الشجاع ولهما أخ آخر ثم الكاتب الكبير السيد احمد ثم السيد إمام جمعة النجف السيد صدر الدين، وهكذا إلى أن قامت السلطة في الثمانينيات باعتقال كل العائلة نساءاً ورجالاً مع والدتي الطيبة في سجن النجف مطالبين باعادة أولادهم إلى العراق أو البقاء في السجن. (انظر موقع مؤسسة الشهداء).

القليلة التي كانت حول الرّاية تتحوّل إلى كتلة بشرية من النّاس، من النّساء والأطفال والشيوخ ومن المعمّمين كبيرهم صغيرهم. . .

وكان حول الراية سبعة أشخاص ملثّمون عرفت منهم اسمين وكان بأيديهم خناجر صغيرة، لئلا يقترب أحد من صاحب الرّاية لقتله استعداداً تجنّباً لسقوط الرّمز. . . (الراية) إمّا من خلال الطّعن بالسّلاح الأبيض أو بإطلاق رصاص.

التحمت شخصياً مع الجموع، ونسيت نفسي، واقتربت من الرّاية ومن أصحابها، وكان المحيطون بها يدفعونني ويقولون لي: لا تقترب يا سيد فإنهم سيرموننا قريباً، ولا نريدك أن تصاب ابتعد، ولكنّني في غمرة الحماس لا أدري ما يقولون ولا أعلم ما يريدون... فقد كنت عصيّاً عن الفهم. . .

اقتربت من حامل الرّاية الذي كان حذراً جداً، وكان قد هيّأ نفسه للإستشهاد، وكان يلبس ثوباً عادياً ويعتمر بكوفية بيضاء. . .

تراكض الحسينيون محيطين بالرّاية يدافعون عن سقوطها وعن رصاص المخابرات التي من الممكن أن تنطلق في أيّة لحظة وصدورهم مليئة بالحماسة وحبّ الشّهادة وقلوبهم كالحديد. . .

كان الشهيد علي الجزائري[1] أكثرهم حماساً، وكان طويل القامة وقد نبتت لحيته على صدغيه تواً، دفعني كي أخرج من الازدحام، وكأنّه يريد أن يحتكر الشهادة له وحده، فاستجبت له وخرجت من محيط الرّاية، وركضت إلى المقدمة لكي أتبين مدى استعداد الطّرف الآخر للمواجهة.

وصلت باب السّوق الكبير قبلهم بقليل، ودخلت السّوق أولاً، بينما وقف حامل الرّاية لدقائق وكأنها الدّهر..

(1) هو ابن المحامي عبد الباقي الجزائري، وهو شخصية فدائية في عمق حبها للحسين.

ورأيت الناس وقد تجمّعت بشكل كبير جاؤوا من كلّ مكان.

خرج من مقهى في الزّقاق الذي خرجت منه الرّاية بأكثر من مائة شخص ملثمين صنعوا حزاماً أمنياً خلف الحزام المسلّح، وأبعدوا الناس عن الفئة القريبة من حامل الرّاية.

ضرب صاحب الراية قدمه بالأرض عندما شاهد تلك الجماهير، وهي تحيط به وقد ارتفعت معنوياته بشكل كبير وصنع مساحة لدورة قطرها متر أو مترين ثم هزّ الرّاية دوراناً وبشكل كأنها تلامس وجوه الناس.

ثم أدارها ثانية والناس تصيح كفى كفى دعونا نمرّ، ولكنّه نسي كلّ ذلك وبدأ يصرخ بشكل هستيري وبلا توقّف حسين. . . حسين،

تضاعف العدد والصوت يصل إلى عنان السّماء حسين حسين.

وشهدت موقفاً لم أنسه في حياتي، في تلك اللحظات الحرجة التي كانت تحيط بأولئك الثّوار، رأيت عنصراً من عناصر الأمن يتوجّه نحو الرّاية، وكان يضع يشماغاً أحمراً. وقد لفّ وجهه فيها جيداً ولم تظهر منه سوى عينين جاحظتين، وكان بالإضافة إلى ذلك متنكّرا بزي الحسينيين، يلبس دشداشة سوداء ليتشبّه بالثّوار، ولكنّ الثوار لم يلبسوا يومئذ السواد بل خرجوا كما هم، اقترب هذا الجلواز من الرّاية متسللاً لكي ينكسها، أو لكي يطعن صاحبها أو ما إلى ذلك، وكان يحمل سلاحاً نارياً[1]، أراد أن يثبت للمجرمين من رفاقه بأنّه قادر على دحر الانتفاضة بأسهل الأساليب من خلال التسلّل وطعن حامل اللّواء وعلى أثرها سيهرب الثوار منهزمين.

وبمجرد أن دخل أوّل حلقة من الحلقات التي تحيط بالرّاية، وإذا بالشهيد السعيد (صاحب أبو كلل)[2] الذي كان قصير القامة بشكل مميز

---

(1) كان اسم ذلك المجرم (عبّاس خلفان) مجرم ضابط مخابرات وليس ضابط أمن، عرفته فيما بعد في مناسبة بعد مرور خمسة عشر عاماً على المواجهة، كان قاسي القلب يتفانى في تعذيب المؤمنين في السّجون.

(2) صاحب أبو كلل شخصية مغمورة في محيط النجف، وخصوصاً في محيط الطبقة =

يعتمر كوفية بيضاء، وكان من مجموعة الحماية، وهنا توجّه له صاحب البطل ليأخذه من تلابيبه ويقفز في الهواء ويرطمه برأسه في وجهه... سال الدّم من أنف ذلك المجرم فسقط على الارض وداسته الناس، وبمجرد أن سقط وإذا بعناصر المخابرات التي كانت تنتظر النّتيجة تهرب من أمام ساحة الميدان إلى حيث مقرهم في القائمقامية بسياراتهم (اللّاند روفرز)...

خلت السّاحة من المخابرات، وانحدرت الرّاية آخذة طريق السّوق الكبير حيث أغلق الباعة دكاكينهم مباشرة[1] وأصبح السّوق خالياً من كلّ شيء إلّا من أولئك الأبطال، ولكنّ النجفيين أدركوا اللعبة فأغلقت الدكاكين أبوابها على الفور، وتسلّل الكثير منهم إلى الأزقّة، واستبدلوا ثيابهم بثياب أخرى واتّجهوا إلى حيث التّظاهرة الكبيرة التي كانت فخراً لكلّ نجفيّ غيور.

سارت الرّاية في السّوق الكبير حتّى وصلت إلى سوق القصّابين، وكان عناصر المخابرات تتجمّع هنالك للإنقضاض على الراية من خلفها، فتوقّفت قبل ذلك السوق بأمتار وتراكض الشباب نحو عناصر المخابرات في الشوارع الفرعية.

ورأيت أخي الشهيد السيد حامد يقف بفخر في عمق سوق القصّابين

= الدينية، حيث نمى في جو تسوده الصراعات القبلية ما بين (البو كلل) وبين (البو عامر). وهي صراعات كانت تحصل بين النجفيين، ولم تتمكّن المرجعية من أن تسيطر على مجرياتها، وكان هذا الجو المحموم كفيلاً في أن يكون شباب العشيرتين من النوع الذي يميل إلى العراك والمواجهات. وهكذا نشات في هذه العائلة أسماء من الشباب الذين كان يطلق عليهم إسم الشقاوات، ولكن وبسبب الصحوة الإسلامية المباركة انحسر الشباب الذين كان همّهم العراك والقتل، وحاولوا ان يوظّفوا تلك الطاقات في خدمة الأهداف الحسينية، وهكذا كان تأريخ شهيدنا البطل صاحب الذي جيّر كل قدراته الجسمانية والشّخصية نحو الدفاع عن كيان المواكب الحسينية (راجع ماضي النجف وحاضرها للشيخ محبوبة).

(1) لأنّ أجهزة المخابرات كانت في المناسبات السابقة تستدعي أصحاب المحلّات وتفرض عليهم الإعتراف عن الاسماء التي يعرفونها وإلّا سوف يتعرّضون لأشدّ العقوبات.

ويده على جنبه إستعداداً للمواجهة إذا هاجمتهم عناصرالأمن، حييته وقلت له إبق في مكانك حتى النّهاية وربما تهاجم المسيرة من الخلف. . .

بقيت أنا في مدخل زقاق سوق القصّابين أراقب الحدث، وكنت أعلم بأن الأمر لن يمرّ هكذا مرور الكرام بدون رصاص، أو اعتقال، ولكنّ الأمر ما أراد الله له أن يكون.

عبرت الرّاية السوق بدون أيّة مشاكل، وصلت إلى باب السّوق الكبير من جانب الصّحن الشّريف، ولا أذكر إن كانت دخلت إلى الصّحن الشّريف أم لا، ولكنّني واجهتها وهي على مدخل شارع الامام الصّادق متجّهة إلى الميدان.

في هذه الأثناء وجدت أن الاعتقال سينالني بعد الانتهاء مباشرة فخرجت من المظاهرة إلى سوق العمارة، ودخلت بيت عمتي القريب من بيت الشّهيد الأوّل، دخلت عليها وأنا منهك القوى والاصفرار يعلو وجهي، والحماسة تتملّكني وصوتي يكاد يكون مختفياً من كثرة الصياح، غسلت وجهي ونظفت جسمي ولم أطق أن أبقى أكثر من دقائق، وهكذا خرجت من بيت عمّتي وهي تتوسل بي أن لا أخرج وهي تبكي وتقول لي: عمتي أرجوك أرجوك لا تفجعني. . . . لم أحتمل سماع النّداء يتعالى في المدينة ويصل إلى عنان السّماء ياحسين. . .يا حسين !!!!

خرجت وتأكدت بأنّ ما من أحد يتبعني ليلقي القبض عليّ، واصلت السير بعد أن أخذت كوفية بيضاء من بيت عمتي ونزلت ثانية إلى الشارع فرأيت الرّاية قد توجّهت إلى سوق الحويش يحرسها صاحب أبو كلل، ومحمد سعيد البلاغي، وجودي، وشهيدنا السيد حامد، وعلي القبانجي، وعلي الجزائري، وتقي حموزي، وعبّاس فخر الدين، وأخوه أمّوري، وسيد آخر معمّم وربّما كان من آل السّادة بحر العلوم، أو من سادة آل الخرسان وقد سقطت العمامة على كتفيه وهو لا يدري، وكان يسير وراءه خمسة معمّمين آخرين من أرحامه لم أتمكّن من معرفتهم لكي أؤرّخهم

ولكنّ الله أرّخهم[1] وآخرون لا أعرفهم وكما أذكر، والله العالم... لم تستمر في سوق الحويش، بل عادت إلى حيث باب القبلة، ثم انحدرت إلى الميدان، ثمّ إلى مدخل المقبرة متّخذة طريق كربلاء.

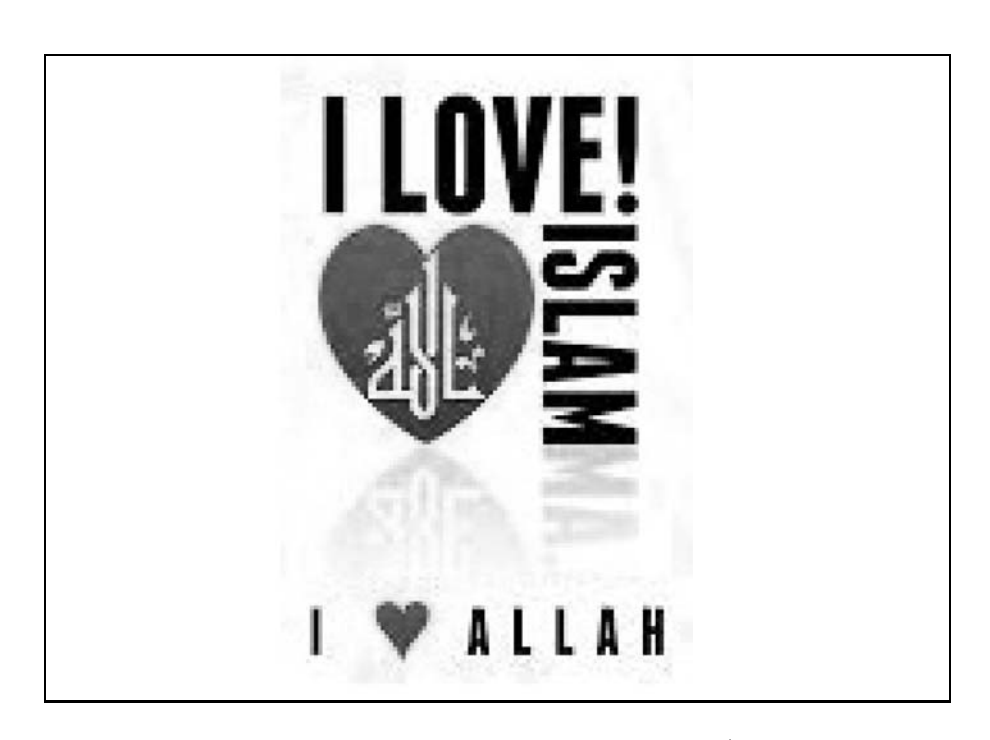
ولكنّ الشيء المذهل الذي رأيته هو ضخامة المواكب التي تبعتها حيث بدأت تتقاطر بالمئات إلى طريق كربلاء، في الوقت الذي كانت عناصر الأمن حائرة لا تعلم ما تفعل وما تقول، وكيف تتصرّف...؟ فتركت الأمور تسير بطريق خارج عن إرادتها، وكانت المدينة في ذلك اليوم قد سقطت بيد الثّوار، فليس هنالك عنصر أمني أو عنصر مخابراتي، أو غيرها، بل استسلمت النجف تماماً إلى الثوار.

وعرفت فيما بعد بأنّ الرّاية كانت قد تمّ إعدادها في دار الشهيد الكبير الشاب محمد سعيد البلاغي، وتمّت كتابة الشّعارات وكتابة الآية الشريفة بيد الخطّاط حسن قاسم، ومن بعدها نقلت إلى الجامع القريب من ساحة الميدان في جهة البرّاق حيث علّقت الشّارة على الرّاية واستعدّ الثوار الحسينيون للحركة من هذا الجامع لكي لا تتورط أية عائلة أو بيت في ذلك، ولقد وصلت الأخبار بعد ذلك إلى عناصر المخابرات بأن الراية قد صمّمت في بيت الشهيد البلاغي، وكان عمره لا يتجاوز ربّما السادسة عشرة من العمر فاعتقلته وأعدمته فيما بعد وهي جريمة كبرى لا مثيل لها في التاريخ[2].

(1) كان المشهد صعباً جداً وليس من السهل على الإنسان في تلك الظّروف أنّ يميّز هذا عن ذاك ومن يكون ذلك ومن يكون فلان...؟ لأن حدث اقتراب الموت من الشّخص يجعله لا يرى أمامه إلّا ما يريد أن يراه، وعندما عدت إلى البيت لكي أكتب الأسماء التي كانت في التظاهرة كي لا أنساها كتبت أنذاك حوالي أسماء مائة شخص أعرفهم، أمّا الأشخاص الّذين لا أعرفهم بالإسم وأعرفهم بالوجه كانوا يعدّون بالمئات ولكنني لم أتمكّن من معرفة أسمائهم آنذاك، بل ذكرت أشكال البعض منهم، وعرفت البعض الآخر منهم عندما رأيت صورهم بين الشهداء فيما بعد، وكان منهم الشهيد السعيد عبّاس العذاري.

(2) آل البلاغي عائلة كبيرة علمية عريقة في النتاج الفكري وهي من العوائل النجفية الأصيلة وتسكن في محلة العمارة وفي محلة البرّاق، الشهيد الكبير محمد سعيد البلاغي شاب =

= من أجمل الناس وجهاً وأدباً وديناً، وكان أبوه الحاج سعيد البلاغي قد ربى ابنه الشّهيد على حب آل البيت وآل الرّسول وفتح له طريق التدين والشهادة وقد نالها سريعاً وهو في مقتبل عمره، فكان انموذجاً للشاب المتفاني الذي يفتخر به النجف وتفتخر به أجيال الشباب الملتزم. (ماضي النجف وحاضرها، محبوبة).



الشهيرة في قدرات الذات...



وما دمنا في مسرح انتفاضة سنة 1977 صفر فلا بأس أن نستمرّ في توضيح أحداثها بتفاصيلها التي لم أرها قد كتبت أو أرّخت من قبل المؤرخين. وقد أكتبها للتاريخ وثيقه عشتها في مسيرة حياتى وكنت فيها شاهداً أوّليا (First Witness).

مع ان البعض من المؤرخين كانوا قد تناولوا جزءاً من التاريخ أمثال: الاخ السيد رعد الخرسان، والبعض من المشاركين الآخرين والتي كانت وثيقة رائعة قدموها من منظار رؤيتهم للاحداث، وقد يشرفتي أيضاً ان اضيف لجهدهم عنواناً آخر من عناوين الترجمة التي ربما أقرب ما يقال عنه بأنه تأريخ الشاهد الاول.

كما أحبّ أن أشير في السّرد التأريخي إلى دور شهيدنا الكبير السيد حامد في أحداث هذه الانتفاضة وتفاصيلها، ولكن قبل أن أستمر في السّرد التوثيقي لابدّ من الإشارة إلى أن الشعائر الحسينية التي كانت في السبعينيات من القرن الماضي تحمل في طيّاتها عامل الرّفض والتمرّد ضدّ النّظام الجائر، وكان هذا المعنى هو المحرك الأساس، مع أن حبّ الحسين عليه السلام والولاء له عنصران مهمان آخران، ربما هما الأولان في إقامة تلك الشعائر.

فالباري عزّوجلّ في محكم كتابه الكريم حثّ بشكل واضح على إحياء شعائر الدين واعتبرها من الأمور الّتي تتدخّل في تغيير محتوى الإنسان الدّاخلي، كما هي العبادات، فهي ليست غاية بحدّ ذاتها، وإنّما هي وسيلة لتغيير النّفس وسموّها، وتنقيتها من أمراض الحياة التي تميل غالباً نحو السهولة في العيش، والتملّص من المسؤولية، ولذلك فإنّ الشعائر كلّها –

كما أراها- وكذلك العبادات كالصلاة والصوم والحج والخمس والزكاة هي وسيلة من وسائل تغيير محتوى أنفسنا، وإفاضة جانب الخير على جانب الشرّ، ورفع القدرات التي تعصم النفسيّة الإنسانية من الاستمرار في الأخطاء وفي الموبقات، وقد وجدت أنّ كلّ الأديان تمتلك شعائر بطريقة ما، وكلّها تسير أو تصبّ في غاية واحدة وهي تنقية النّفس.

ففي زمن حكم البعث كانت الشعائر عنواناً للرّفض، بالإضافة إلى عنوانها الأصليّ الإجمالي، فكانت الناس تحرص أشدّ الحرص على إقامتها بشكل اجتماعي وخاص لكي تبقى جذوة الثّورة مشتعلة في نفوس المجتمع، ولذا حاول البعث وبكلّ وسيلة أن يقلّل أو يضعف هذا الجانب من جوانب الإنسان.

هنالك البعض من النّاس من ينتقد الشّعائر هذه، ويضع بعض الاعتراضات على شكل إقامتها، وطريقة تنفيذها، متسائلاً عن قيمتها في هذا الوقت، أعني الوقت الحالي ما بعد التغيير في 2003، وإنّه يمكن القول أنّ الجانب الأساس من الحثّ الرّباني على إقامة الشعائر هي بثّ الرّوح العاطفية والوجدانية في نفوس النّاس المؤمنين على الاستمرار في خط تقبّل مفاهيم الرّسالة أو الفكرة، التي هي في الأصل غيبيّة، لأنّها إحدى وسائل التّثبيت في الاستمرار في الإيمان بالفكرة، فالفكرة المجرّدة العارية من الشّعائر أو الأحداث المتحرّكة سواء أكانت أحداثاً دينية أم اجتماعية لا تتمكن من إبقاء منتميها على نفس وتيرة الحماس التي تتوخّاها من أولئك المنتمين.

فالمسيحيون في كل طوائفهم يمتلكون شعائر دينية خاصة بهم، والهندوس والبوذيون والكونفوشيون واليهود وبقية الاديان من السيخ وغيرهم كلّهم يرون في الشعائر حافزاً كبيراً على إبقاء منتميهم على خطّ الإيمان، فلذلك تلاحظ أنّ أكثر الاديان إنتشاراً في العالم هي الاديان التي تمتلك عدداً أكبر من تلك الشعائر، وقد تجد ذلك أيضاً ليس على مستوى

الاديان فحسب، وإنّما نلاحظها في مسيرة الأحزاب والتّشكيلات الاجتماعية المتعدّدة، سواء أكانت في الشرق، أم في الغرب.

وقد كان لي فرصة من فرص التّعامل مع المسيحيين وأنا في أمريكا، وكندا أثناء دراستي هنالك، وكانت من خلال زياراتي إلى الكنائس وإلقاء محاضرات عن الإسلام وعالميته وإنسانيته، كما مارست العمل نفسه مع تجمّعات قريبة من الدّين ورأيت في شعائرهم الكثير ممّا يقترب من المفاهيم الإنسانية التي ربّما نمارسها نحن أحياناً في شعائرنا، فأدركت بأنّ الأديان تنطلق من مفاهيم واحدة تلك المفاهيم بمجملها تصبّ في فكرة (محاربة النّفس) و(كبح الشّهوات) و(قهر عملقة حبّ الحياة وحبّ النفس).

والكونفوشية التي يدين بها ربّما العدد الأكبر في العالم قبل المسيحيين يرون بأنّ المؤمن الحقيقي هو الذي يقهر طبيعة حبّ وميل الجسد سواء أكان ذلك بالمنظار الغريزي كعدد دقّات القلب وحرارة الجسم والنّوم وغيرها، أم من المنظار الإرادي كالجوع والشّهوة الجسدية وغيرها من الغرائز، ولذلك فإنّهم يمارسون رياضات روحية عميقة مع شعائر قريبة من الشّعائر الدينية الشيعية، فلسفتها هو قهر بيولوجية الجسم كترك النّوم مثلاً أو رفع درجة حرارة الجسم إلى مرحلة لا يمكن للعلم أن يتصوّرها، أو أن يضع على جسمه قدرات من التّحمل عالية بشكل خارج حدود العقل.

وهكذا ومن هذا المنطلق نقول بأنّ الشعائر والممارسات التي ينتقدها البعض من المذاهب الأخرى كالوهابية أو المتزمّتين من الأحناف ويرون فيها شركاً أو ما شابه، نرى نحن أنّها قضية (اعتقاديّة شخصيّة) أكثر ممّا هي قضية (أصولية دينية)، بل هي قضية (ثقافة) وهذا يعني بأن الفرد يستلهم من مفردات تلك الفكرة المبادئ التي تصبغ حياته وتصرفاته بالطريقة التي تنعكس على حياته وعلى سلوكه، فالكثير من المسلمين لا يمارس الاسلام والكثير أيضاً من المسيحيين لا يمارس المسيحية ولكنه يرتبط بتقاليد ومبادئ وأفكار تنبع من تلك الديانات، وكذلك يقال الشيء ذاته إلى

الشرقي الذي يمارس عادات وسلوك مأخوذ من الشرق حتى وإن كان لا ينتمي هو إلى الشرق فعلاً.

وهنا نرى بأن التشيع عموماً في كل انحاء العالم هو حسيني الثقافة حتى بالنسبة لاولئك الذين لا يلتزمون بالاسلام عبادة وممارسة. ولا نستغرب الأمر هنا في الثقافة الحسينية وإنما هذا الموضوع هو موضوع عام ربما يشمل كل الافكار العالمية والديانات.

فالاديان تحتاج في عملها وفي تأثيرها على الناس إلى جانب ثقافي فضلاً عن الواقع الفكري الذي يميزها في طريقة الاداء وفي الجانب الأدبي والفكري السماوي. فالغربيون عموماً ذو ثقافة يطلق عليهم بانهم مسيحيون مع أن الكثير منهم ربما ملحدون أو لا يؤمنون بالمسيح أو بالديانة أو يسمون أحياناً ب (اللاأدريين) لا يعرفون انتماءهم الثيولوجي كل أولئك يسمون مسيحيوا الثقافة[1].

فالإنسان دوماً يبحث عمّا يعمّق ارتباطه بالقوة المطلقة التي يفهمها وهو الله، وبالدّين وبمن يحبّهم من المؤمنين ومن الصّالحين، وسبب ذلك

(1) وفقاً للمؤرخ الفرنسي (فرناند بروديل) فالإنسان الأوروبي متدينًا كان أو ملحدًا فإنّ ردود فعله النفسيّة، وسلوكه، وأخلاقيته، ظلت متجذّرة في التّراث المسيحي الذي طبع الحياة الأوروبيّة بطابعه على مدار القرون المتطاولة، وقد وصف المؤرخ بروديل الإنسان الأوروبي على إنّه من (دم مسيحيّ)، يُذكر أن الكاتب الفرنسي هنري مونترلان قدّم نفسه بأنّه من دم كاثوليكي على الرّغم من أنّه كان ملحدًا، وقد يوصف ملحدون ولا دينيون أنفسهم مسيحيون الثقافة مثل إخصائي السلوك البريطاني ومؤلف عدة كتب (ريتشارد دوكينز) فعلى الرغم من كونه معروف بآرائه في الإلحاد فقد وصف نفسه كمسيحي الثقافة، وقد يصف عدد من الملحدين ذوي الخلفية المسيحية أنفسهم كملحدين مسيحيين ويعني ذلك عدم إيمانهم بالله أو الوهية يسوع لكنّهم يعتبرونه مَثَل أعلى ويلتزمون بتعاليمه الأخلاقية، ويلتزمون ببعض الشعائر المسيحية كنوع من تراث ثقافي وحضاري. فالكثير من الملحدين العرب أو اليساريين الذين يقاومون الدين يرون في الشخصيات الاسلامية كالإمام علي والحسين بأنهم المثل الأعلى في سلوكهم، بل في تصرفاتهم كحزبيين يساريين أو ملحدين. (The Miditerranean, Braudel).

كلّه هو الرّغبة الكبرى في إبقاء الصّلة الشّرطية مع الفكرة الأصلية للدّين كما يراها هو، وإلّا فما معنى أن يصوم الإنسان مثلاً، أو أن يقاوم رغبات كبرى في النّفس، والتي فرضها الباري عزّ وجلّ ولم يفرض أمثالها على النّاس، لأنّه أراد من النّاس أن تكتشف لذاتها تلك الطّرق التي تصارع بها رغبات النّفس والتي هي أساس إنحرافات الإنسان[1].

وعليه فإنّ الشّعائر أو الممارسات الدينية أيّاً كانت ما هي إلّا قضية لا يمكن النّقاش فيها، لأنّها نابعة من إستحسان الإنسان لها وتعامله معها، فقد وجدت الكثير من المسيحيين في الكنائس يأكلون شيئاً من الخبز ويشربون شيئاً من النبيذ كشعيرة يعتقدون بأهميّتها في دوام ارتباطهم بالمثل الأعلى.

أو الهندوس وهم يتعايشون مع الحيوانات ويعتقدون بأن الحيوان روح، والرّوح كنفس الإنسان فعليهم إحترامها، وهكذا بقية الشعائر التي في الواقع ما هي إلّا وسيلة لاستمرار جذوة الفكر والعقيدة في نفس الإنسان.

فالمسلم ثقافياً هو مصطلح يشير إلى أفراد غير ملتزمين دينيًا أو أشخاص ملحدين ولا دينيين أو علمانيين لكنهم ما يزالون يعرِّفون أنفسهم كمسلمين بسبب الخلفية الثقافية والحضارية والعائلية، أو بسبب تجارب شخصية، وفي أحيان أخرى بسبب البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأوا فيها. وينتشر المصطلح هذا بشكل خاص في البلقان وتركيا وبين مسلمي أوروبا وأذربيجان الاقطار التي تبتعد عن مركز الحضارة الاسلامية[2].

في المجتمعات غير المسلمة قد يندمج المسلمون مع الهوية العلمانية. مسلمي البوسنة، وهم من نسل السلاف اعتنقوا الإسلام تحت الحكم

---

(1) يُعبر عنها في اللّغة الإنكليزية بكلمة Displling أي تهذيب وهو مفهوم يستعمل كثيراً في الغرب في مساحات الاقتصاد أو التّربية.

(2) (Islam: A Very Short Introduction, by: Malise Ruthven).

العثماني، لوحظ أن عددًا كبيرًا منهم لا يحضر الصلاة، أو يمتنع عن الكحول، أو عزله المرأة وغيرها من الممارسات الاجتماعية الأخرى المرتبطة مع المسلمين المؤمنين في أجزاء أخرى من العالم. لكنهم رسميًا يعتبرون كمسلمين حسب الجنسية لتمييزها عن الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك في ظل النظام الشيوعي السابق في يوغوسلافيا. واعتبر البوسنيون أنفسهم مسلمين بالتوازي مع انتمائهم العرقي والولاء للمجموعة، ولكن ليس بالضرورة لمعتقداتهم الدينية.

وهكذا شعائر آل البيت مثل المشي إلى الحسين أو إلى الأئمة، كذلك الشعائر الأخرى التي أحياناً نختلف في جدواها ما بيننا وبين أنفسنا، وعندما نُسأل من قبل الآخرين في طبيعة جدواها، فأننا ربما أفضل ما نقول لهم إنّ هذه قضية شخصيّة بحتة أو أنها ثقافة، إن لم تؤمن أنت بتأثيرها على نفسك فليس لك الحقّ بفرض رأيك على الآخرين ممّا يرى العكس ممّا تراه في تأثيرها على نفسه وعلى حياته، ولكن على شرط أن لا ندّعي أن تلك الشعيرة هي أساس من أسس الدّين، أو أنّ منكرها هو من صنف الكفّار، أو أن منفّذها من كذا صنف، أو أنّها تعكس صور غير حضارية عن الإسلام أو التشيّع، أبداً، وإنّما الاتجاه الرئيسي هو أن يستأنس الإنسان لشعيرة معينّة ويراها إيجابية في بوصلة الاقتراب من الفكرة، فإنّها بالتّأكيد ستكون شعيرة مقدسّة له ولا يحقّ للآخرين إنكار تأثيرها وأهميتّها عليه هو[1].

في الشعائر الحسينية التي تقام في أيّام محرّم الحرام وفي بقية أيّام السّنة، وفي مناسبات الأئمة الأطهار في مواليدهم ووفياتهم ومناسبات أتراحهم وأفراحهم، فإنّه يتم تقييمها للكثير من النّاس من خلال جدواها

(1) أما إذا اراد الإنسان الفرد أن يضع تلك الشعائر في صنف الموجبات الدينية في الاعتقاد فهذا تابع له شخصياً، وهو حق شخصي بحت من حقوق الإنسان مع التاكيد في عدم استعمال عوامل الفرض والقوة في قبول أو رفض ذلك أو نفيه على الاخرين.

على واقع حياتهم وعلى علاقاتهم مع الله ومع الاخرين، وهي أولاً وأخيراً طريق لتنقية النّفس وطريق لتشذيبها من الأدران ومن أوساخ الحياة...

وقد يقال أحياناً من الطّرف الآخر بأنّها قد لا يكون لها من جدوى في نفوس الناس، وأنّ الناس غالباً ما يتخذونها وسيلة من وسائل التّباهي أو جمع الأموال أو غيرها، نردّ عليهم ونقول بأنّ الصّلاة حتى لو لم تتمكّن من أن تنهى عن الفحشاء والمنكر فإنّها تبقى واجبة على الإنسان، لسبب بسيط ذلك السّبب هو أنّ النّفس الإنسانية قد تستيقظ نحو الخير في أيّ وقت من الأوقات، من كلمة أو ممارسة أو نصيحة أو عمل أو رؤية أو ما إلى ذلك كما اهتدى (بشر الحافي) من كلمة بسيطة للإمام الكاظم عليه السلام عندما قال عليه السلام للخادمة (أنّ سيدك حرّ ولو كان عبداً لاستحى من مولاه) فكانت هذه الكلمة عنصراً من عناصر التّغيير في حياة شخصية تأريخية كبرى تحوّلت من معاقرة الخمرة إلى عطاء الخير والعبادة.

وكذلك الكثير من البشر تنتظر نفوسهم لحظة الخير، ولحظة التأثير، لكي يتحوّلوا من معسكر الشّر إلى معسكر الخير.

كذلك الرّجل الذي نعرفه كلّنا وهو (الحر) الذي تأثر بكلمة عاطفية بسيطة جداً لم يتأثر بها عشرون ألف إنسان كان يقاتل إلى جنبه في واقعة الطف، بينما أكلت تلك الكلمة من نفسه وحوّلته من معكسر الشّر إلى معسكر الخير، تلك الكلمة ليست فكرية أو فلسفيّة أنّها (هل من ناصر ينصرنا) أنغرست هذه التعبيرة في عقل ذلك الرّجل كي يتحوّل في أعمق تحويلة فكرية في التاريخ ليكون أوّل من يستشهد فكرياً إلى صفّ الحقّ على الباطل، وليتوجّه القائد ليقول له: نعم أنت حرّ... حرّ في الدّنيا، لأنّه سمح للكلمة الصّادقة في حريّة تغلغلها في أعماق نفسه، بينما وقفت نفس تلك الكلمة أمام قلوب عشرين ألف جنديّ ولم تلامس شغاف قلوبهم فكانت النتيجة كما كانت.

الشعائر الحسينية ثقافة والثقافة تسمى في اللغة الانكليزية (Culture)

والكلمة الانكليزية تعني أيضاً (المزرعة) أو (المحيط). في اللغة العربية ليس هنالك ما هو مشابه لذلك فالثقافة ليست كلمة متداولة في الادب العربي أو في عالم الافكار، لأن الحدود التي خلقها الواقع الاسلامي الفكري الغى فكرة الثقافة وربط بين الفكر الديني وبين الإنسان مباشرة ولم يفكر في ايجاد (محيط) أو (مزرعة) لنمو الفكر الاسلامي بسبب أن الاسلام عندما تناوله من ورث الخلافة بعد النبي ﷺ فرضوا الفكر بالقوة والسيف وهذه النوع من الاسلوب في نقل الافكار لا يحتاج إلى (الحاضنة) أو (المحيط) أو (المزرعة) لأن الشيء الذي يتطلب كل تلك المصطلحات هو الشيء الذي يحتاج إلى نمو تدريجي طبيعي كما هو النبات وكما هي الكائنات الحية الأخرى التي تعيش في الطبيعة.

فليس هنالك في عالم الحياة كلها من شيء إلّا وهو يحتاج إلى حاضنة (ثقافة) أو محيط مناسب سواء كان ذلك الشيء كائناً حياً أو فكرة أم ممارسة. . . وبغياب ذلك المحيط فإن الحدود ما بين الناس تظهر بشكل متطرف فيكون هنالك كافر يستحق القتل ومسلم يذهب إلى الجنة، وصار أيضاً هنالك مسلمين صالحين ولكنهم ليسوا من الذين تأويهم الجنان إلّا (الفرقة الناجية)، كما قسموا أيضاً الكفار إلى أقسام، فهنالك من هو خالد في النار يتوجب قتله في الحياة الآن (نظرية الأشاعرة والخوارج) وهنالك من يجب عدم قتله (مثل المرجئة وبعض المعتزلة).

وهكذا نجد بإن المجتمع الاسلامي فيما بعد وفاة الرسول لم تكن له من ثقافة جديدة لأن الثقافة تبنى على مر العصور في الوقت الذي كانت الثقافة العربية هي ثقافة البداوة والتي بقيت سائده حتى في المجتمعات العربية مع ايمانهم بالاسلام والتي على ضوئها تم التصرف والعمل في طريقة التعامل مع الآخرين من منطلق تلك المبادئ.

فطريقة التعاطي مع الحروب والدخول إلى الاسلام ومقتل عائلة الرسول كلها افرازات للثقافة البدوية التي بقيت معتملة في النفوس.

الحسين ﵇ في ثورته كان يرمي منها إلى تأصيل ثقافة جديدة قائمة على اسس مختلفة عن الاسس التي عرفها المجتمع انذاك، وبما ان الثقافات لا يمكن لها ان تبنى إلّا من خلال توفر العنصر الزمني فلذلك نرى بأن الفكرة، الحسينية تتجذر وبمرور الزمن لا لانها فكرة ولكن لأنها ثقافة، فالكثير من الناس تراهم غير مسلمين ولكنهم يحملون مفردات تلك الثقافة، ثقافة يوم الطف كما رأينا ذلك لدى المسيحيين والصابئة العراقيين وكذلك بالنسبة إلى بقية المذاهب الاسلامية التي اندمجت في تلك الثقافة.

وهنا تتحول الشعيرة إلى مفردة فاعلة من مفردات ثقافة الإنسان المسلم، وهي في المصطلح العلمي عبارة عن الأفكار التي لا تستقرّ في أعماق الدماغ وفي حُجيراته العميقة، بل تبقى في المحيط الذي ينشغل المخّ بها، كما هو الكثير من الأفكار التي تبقى في السّطح، يتعامل معها الإنسان بصورة غير إرادية، مثل حبّ النّفس وتجنّب الأذى وحبّ الوالدين والشّعور بالبرد والحرّ ولكن وبمرور الوقت وبمرور الممارسة تتحوّل إلى حالة فكرية واعية، أي يدركها العقل الواعي شأنها شأن الأفكار التي يتلقّاها الإنسان، مثل الخير والشّر والرّحمة بل أفكار الدّين عموماً، ولكن بعد إكتشاف (عنصر الرّبط) (Promotional Factor) المهم الذي يتطلّبه الموقف. . .

ولنضرب مثلاً لذلك، إنّ فريضة الحجّ إذا جُرّدت من فكرتها وغايتها، تصبح عبارة عن حركة أو عبادة خالية من الهدف، وكذلك العبادات الأخرى كالصّلاة والصّيام والخمس وغيرها، فتبقى المفاهيم تدور في الجزء السّطحي للدّماغ. ويمكن هنالك من السّهولة إزالتها بفكرة أخرى شبيهة بها، أو أقوى منها، مثلاً: تقول ما الفائدة المرجوّة من تلك المتاعب. . .؟ أو أنّ الإيمان ليس بالضّرورة أن يكون في مدينة اسمها مكّة، أو أن نقول أليس من الأفضل أن نصرف تلك الأموال على الفقراء. . . ولكن ما أن يدخل (عامل الربط) (Promotor) وهو (مفهوم الواجب) فسوف يحيلها إلى (فكرة) بدلاً من أن تكون (ممارسة) أو (ثقافة)

وتنتقل عندئذ إلى الحجيرات الدماغية، وتستقر شأنها شأن الكثير من الأفكار التي يؤمن بها الإنسان على أنّها مسلّمات.

إنّ عنصر (الربط) في الشعائر الحسينية هو (الهدفيّة) وبغيابها يبقى ما تفرزه الشعيرة يعيش ويدور في محيط الدّماغ الخارجي ذي القدرات الضعيفة القابلة للتّبادل والقابلة للنّقض والزّوال، ما لم تبق الشّعيرة مكرّرة[1] دوماً وأبداً، عندها تبقى الجذوة فعّالة ونشطة، وبما أنّ النّاس عموماً وبدون تمييز غالباً ما يصعب عليهم إكتشاف (الهدفية) لأنّها عملية فكرية خالصة تحتاج إلى الكثير من المقدّمات وإلى الكثير من الثّقافة والعلم، لذلك فإنّ الباري عزّ وجلّ أوجد لهم طريقاً آخراً مختلفاً من خلال إستمرار التّعلق بالفكر، ذلك هو (الشعائر) إن بقيت مسّتمرة في الممارسة، فإنّها تجعل الإنسان يدور في فلك الفكرة، وفي أجواء الإيمان، وأجواء الإسلام، فالنّاس غالباً ما تستصعب فلسفة مواقف الحياة، خصوصاً عندما تتحوّل إلى حالة يوميّة عادية.

فكم منا شاهد مظلوماً أو موتوراً في حياته اليومية وهو لم يعبأ به، ولم يعبأ بنوعية الظلم الذي أصابه...؟ ولكنه وبمجر ان يتفهم معنى الظلم

(1) التكرار عملية نفسية مهمة جداً لتثبيت الافكار والمعتقدات في داخل النفس الإنسانية، وليس هذا مقتصراً على الجانب الديني فقط، وانما هي قضية بيولوجية يتحول التكرار وبمرور الوقت إلى عامل يسير مع التركيبة العقلية والبيولوجية لمسيرة النفس، فالبكاء على المظلوم -اي مظلوم- حسيناً كان أم عباساً أم عمرواً هي قضية واحدة ومن يبكي على الحسين لانه شيعياً مثلاً فانه بالتاكيد سيبكي ثائراً مظلوماً آخراً عاش نفس ظروف الظلم مثل (مارتن لوثر كنك جونير) أو (نلسون مانديلا) أو أي مظلوم آخر حتى وان كان حيواناً كالفرس أو الكلب، فبمجرد ذكر اسم فرس الحسين فإن الدمعة تسبق إلى عيون المحبين للحسين والرافضين للظلم، وهكذا يتحول الإنسان وبمرور الوقت إلى شخصية تتفاعل مع فكرة الظلم لا مع الشخصية المظلومة فحسب، فتتحول إلى سياق فكري اكثر منه سياق ثقافي مرتبط بشخصية يعرفها. وهنا نتفهم بأن التكرار في الصلاة وفي الشعائر وفي الثقافة المنبرية عناصر مهمة جداً لتثبيت الفكرة ونموها إلى الافضل كلما ازداد تكرارها أمام الإنسان. (الإمام الحسين، زميزم).

(فكرياً) فانه يحول الموضوع إلى قضية خارج حدود الشخصنة، ولا يمكن له أن يتفهم الأمر (فكرياً) إلّا بأن يكون هنالك رمز أو أمثُولة مظلومة (فكرياً) عندها يتفهم الإنسان معنى مفاهيم الظلم، وعندها تراه قد تحول من السياق العاطفي المجرد إلى السياق "العاطفي-الفكري" الملتزم.

ولا تستغرب ابداً عندما تشاهد أن كل المظلومين في العالم، بل كل الأدباء والعظماء تحسسوا وتفهموا موقعة كربلاء ومظلومية الحسين بدون أن يتفهموا من هو الحسين ولماذا ثار وأهداف ثورته، أن (غاندي) و(مانديلا) و(إرنست همنغواي)، و(أينشتاين) و(عبد القادر الجزائري) لم يقرأوا عن الحسين ولكنهم تحسسوا بالظلم الذي وقع عليه فكرياً، فتحول الحسين عندهم إلى شاخص من شخوص الاستمرارية في تحرير الإنسان سواء أكان ذلك الإنسان في أمريكا أو في إفريقيا الجنوبية أو في الجزائر. وهذه العالمية للفكرة هي بالضبط ما تدعو إليها الثقافة الحسينية الاجتماعية الجيدة كمفهوم عام يشمل كل طبقات المجتمع مسلماً كان أم مسيحياً ام كونفوشياً. وهنا تبرز الحاجة إلى فكرة "عولمة ثقافة الحسين" في مجال العالم الذي تغيرت فيه حدود فواصل الإنسان وتحول إلى كيان كبير والى قرية واحدة كما يقولون، فالعالم اليوم أحوج ما يكون إلى المبادئ أكثر منه إلى الأفكار المجردة الخالية من الحركة التي تتفاعل ما بين القلب والعقل.

إنه من مهمة المسلم أن يدخل بل يغوص عميقاً في ثقافة الثورة الحسينية التي انطلقت قبل أكثر من الف وأربعمائة سنة لكي يستقي منها دروساً لم يكن ليدركها في ذلك التاريخ، لأن فكر الإنسان وفكر الفطرة متجدد بتجدد العقل الإنساني، ومتطور حسب واقع الحاجة المادية والفكرية للبشر، وهو ما يدعو المفكرين الإماميين أن يعيشوا تحدي تسويق الثقافة الحسينية إلى أمم الارض والى دولها لانه فكراً يتجاوز حدود الأديان، بل أنه فكر يتعايش مع الفطرة الإنسانية.

فوجود الفكرة ليست كافية، وإنّما ثقافة الفكرة هي التي تحرّك العالم وتحرّك الأحداث.

وهكذا نرى أنّ النّاس عموماً المسلمين خصوصاً لا يمكن لهم فهم فلسفة الدّين، وفلسفة الوحي، وفلسفة هذه التّضحيات إذا بقيت بدون توفر الغطاء الثقافي، وبذلك فإنّ عدم الإحاطة بها سوف يحوّل المفاهيم إلى أسئلة تبقى ملحّة على عقل الإنسان إلى أن تصل للدّرجة التي تفقدها قدرتها على الاعتقاد بها.

وعليه فإنّ الباري عزّ وجلّ قد قدّم خياراً آخر مهمّاً جداً. ذلك الخيار هو (الشعيرة الدينية)[1] بمختلف تشكيلاتها وصورها التي ربّما فتح للناس باباً واسعاً في اكتشاف الطريقة الشعائرية، التي تتناسب مع ذوقهم وفهمهم للحياة وللدين. وعلى ضوئها تبدأ الافكار العقلية المتعلّقة بالدّين بالعمل في مساحة العقل. وبالتّالي تعمل على تأصيل الدّين وأفكاره في النّفس.

وهنا نلاحظ أهميّة الشعائرالحسينيّة لكلّ منّا، مهما كانت قيمتنا وقدرة فهمنا لتلك الشعائر واطّلاعنا عليها، ومستوى قدراتنا... فإنّنا نحتاج إلى الشّعيرة وخصوصاً الشعيرة الحسينية، لأنّها تتميز بشئ مهم لم تألفه بقية الشعائر. تلك الميزة هي (فلسفة الكرامة) التي إن لم تقترن الشعيرة بها (promotion) فإنّ الشّعيرة الحسينية تبقى في محيط ضيق لا يغيّر من داخل الإنسان شيئاً أبداً، بل تتحوّل الشّعيرة إذا فُرّغت من محتواها إلى نقمة على المجتمع وعلى الإنسان، لأنّها تحلّ محلّ أصل الدين، وأصل الفكرة، وبذلك يخسر المجتمع بهذه الخطوة الكثير من المتدينين ومن المؤمنين العقائديين، ويحلّ محلّهم الغوغاء المتعلّقون بالشّكليات الفارغة التي لا تحوي أي أساس فكري أو عقائدي.

وقد حرص الإمام الحسين عليه السلام في كلّ حركة من حركاته على تثبيت تلك الشّعيرة، وإلى التّأكيد على الرّابط (Promotor) وهو كرامة الإنسان،

(1) هنالك مصطلحات متشابهة في الاسلام أو في عالم الأفكار منها هو مصطلح (الأمة) أو مصطلح (المجتمع) هذه كلها تعطي مفهوم (الثقافة الاجتماعية)، فقد أثبتت الدراسات بأن قدرة الشعب الصيني سواء قبلاً أو أثناء الحكم الشيوعي أو الآن نابعة من الثقافة (أكرر) الثقافة الكونفوشية التي بناها كونفوشيوس قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

ظلم الإنسان، عزّ الإنسان، ثورة الإنسان، عندها تتحوّل الشّعيرة إلى قدرة فاعلة كبرى في المجتمع، تغيّر الأنظمة، وتزيل الطّواغيت، وتحطّم المجرمين، وهو المفهوم الثقافي الذي نراه قد تأصّل، بل فهمه الكلّ من المسلمين وغير المسلمين، بل فهمه كلّ ثوّار العالم بكلّ طوائفهم ولغاتهم، لأنّ لغة الثّوري مفهومة ومشتركة، ولا تحتاج إلى مترجم، وهو ما دعى كل ثوار العالم إلى فهم الثورة الحسينية وفهم أبعادها، فتحويل الأفكار إلى (مكافئ مادي) هو بالضّبط العملية المعقّدة التي علّمنا الحسين أن نمارسها في سلوكنا، لأنّنا قبل ذلك التاريخ كنا نسمّي الأفكار أفكاراً، ونسمّي الماديّات ماديّات، ولم نكن في الوضع الذي يمكننّا من أن نحول الفكر إلى مكافئ مادي.

الثّورة كانت عبارة عن مفهوم فكري فقط، يعيش في عالم الخيال، بينما علّمنا الحسين أن تكون تلك النظريات والأفكار مسيرة ثقافية تتأتّى منها عمليات المسيرة الفكرية الحركية والعملية.

وهذا تماماً الهدف الذي يتوجب على الشّعب العراقي والشّعوب الشيعية، بل الإسلامية إلى إدراكه والاستفادة منه بشكل (تغييري) لواقع النّاس مهما كان اولئك النّاس، وعلى نفس المنوال أقول إن لم تجد أفكار تلك الشعيرة (الحسينية) منبتاً لها أو (رابطاً) الآن في واقع المجتمع اليوم، فإنّها ستجد ذلك الرابط غداً، أو في عصر آخر، وزمن آخر، ومكان آخر ربما هنا، وربما في أي بقعة من بقاع العالم، لأنّ الله ينظر للإنسان بشكل متساوٍ سواء أكان هنا أم في أيّ مكان في الارض!!!

وربما عاش الكثير منّا أحداث أواسط الستّينيات عندما استعرت الحرب الشّرسة ما بين الولايات المتّحدة الأمريكية وفيتنام الشمالية، وبشكل لا مثيل له في تاريخ الحروب لمدّة قد تصل إلى أكثر من عشرين سنة، وكان قائد الجانب الفيتنامي (هوشي من) وهو رجل دين كونفوشي قد ملّ من إطالة الحرب، فقرّر عندئذ أن يتّخذ طريق الحسين عليه السلام منفذاً

للتّحرير، وهو ما كان عندما قرّر (المونك) رجال الدين الكونفوشيون أن يحرقوا أنفسهم واحداً بعد آخر في وسط (سايغون) العاصمة، أو أن تقف الحرب الظّالمة التي شنّتها الولايات المتّحدة الأمريكية، وهكذا تقدّم الّاول وصبّ على جسمه الزّيت أمام طلابه وأحرق نفسه، حتى تحوّل إلى رماد أمام عدسات العالم ومصوريه، فانتقلت الصورة إلى كلّ بيت وفي كلّ جريدة وكلّ تلفزيون في داخل أمريكا وخارجها، عندها شعرت الولايات المتحدة بعجزها أن تواجه سلاح الإنسان المظلوم، سلاح الموت عزاً، فقرّرت مباشرة الدّخول في مفاوضات إيقاف الحرب، وفعلاً بعد سنين من تلك الحادثة خرج المحتلّ ذليلاً بعد أن أذلّه سلاح الإنسان. . .

الحرق حرام بالتّأكيد، والقتل حرام، ولكنّ القتل والحرق في طريق الفلسفة التي تحدّثنا عنها يتحوّل إلى واجب أحياناً.

والمجموعة الحسينية الّتي قادت التّغيير والثورة في العراق إبّان أواسط السبعينيات وما قبل انطلاق الثورة الإسلامية في إيران، كانت ترى فطريّا بأهمّية تفعيل الثّورة ثانية، وربط التّصورات بالرابط الفكري لتتحوّل إلى أفكار فلسفية ذات (مكافئ مادي) لكي تتغير الأمة.

وقد وجدتُ والدي الشهيد السيد جواد شبر قد آمن غاية الايمان بأثر تلك الثورة الثقافية في نفوس الامم، لا أدري بدايةً لماذا، وهل ربما هي قضية عاطفية عاشها. . .؟ أو أنها قضية فلسفية. . .؟ وهي الاسئلة التي كنت أسائل بها نفسي منذ ذلك التاريخ، ولم أسأله يوماً عن أفكاره تلك، ومغزاها، وربما كنت من المعترضين على إندفاعه ذلك الذي من الممكن أن يكون منطلق الاعتراض هو من الجانب الأبوي، لا من الجانب الفكري، ولكنني وفي ذات الوقت كنت أسأل نفسي عن فهم ثقافة العواطف الحسينية في تغيير المجتمع في حركته وثورته ضدّ النّظام القائم آنذاك.

ولعلّي وجدت الإجابة على تفكير الشهيد الوالد عندما اكتشفت بأنّه

عندما ألّف كتابه السّفر القيِّم (أدب الطّف) الذي كتبه[1]، ولإنجاز هذا العمل الكبير لابدّ وأنّ والدي كان قد قرأ تأريخ الحسين والثّورة الحسينية منذ الأيام الأولى لاستشهاده في القرن الأوّل إلى هذه الأيّام وخلال أربعة عشر قرناً، وقد تخلّلتها الكثير من الدول والأمم والشّعوب ومن شتّى أرجاء المعمورة، ومن خلال كلّ ذلك تمكّن الوالد أن يكتشف إرتباط الحلقات الفكرية والثورية بين الشّعوب ومشتركاتها، ربما وبسبب اطّلاعه على كلّ التاريخ الحسيني توصّل باستنتاجه إلى أنّ الفكرة الحسينيّة حتىّ وإن كانت (عاطفة) فإنّها (ثقافة) اجتماعية ولذلك غيّرت هذه الفكرة الكثير من الشّعوب والأمم.

(1) والتي كانت فكرته هو ترجمة وكتابة تأريخ كلّ من قال شعراً في الحسين خلال القرون المنصرمة، منذ القرن الأول ولحين القرن الرابع عشر الهجري، وقد أخرج فيه عشرة مجلدات يعتبر اليوم من أمّهات المراجع في التّاريخ وفي الأدب وفي مسيرة تطوّر الفكرة الحسينية.





«عولمة» الحسين



ونعود إلى أحداث ثورة العشرين من صفر سنة 1977 وعندما تمكّن الثّوار من كسر الإضراب وفتح الطّريق المؤدّي إلى كربلاء. وعلى أثره قامت السّلطة بمنع وصول الماء إلى المشاة، وذلك من خلال تفتيش السّيارات وإراقة الماء الذي يحملونه[1] لا يوجد ما بين المدينتين إلّا (خان النّص) وهو الوحيد الّذي يمكن التزوّد منه بالماء ويبعد حوالي 40 كيلو متر عن النّجف والّذي من المفترض أن يصل المشاة إليه في اليوم الثاني وليس في اليوم الاول، لأن اليوم الاول يجب أن ينام المشاة في خان الرّبع أو خان المصلّى الذي يبعد تقريباً 15 كم عن النّجف.

أمّا الجهة الغربية من الطّريق العام فإنّها صحراء تتّصل بالسّعودية، ليس فيها إلّا الرّمل، أمّا الجهة الشّرقية فإنّها صحراء رملية أيضاً تمتدّ إلى الأعماق بمسافة بعيدة لتصل إلى طريق النّخيل، وعليه فإنّ توفّر الماء مهمّ جداً للمشاة لكي يستمروا في شعيرتهم[2] والوصول إلى كربلاء في اليوم الرّابع من بداية المسيرة. ويصادف ليلة العشرين من شهر صفر. . .

ولكنّ النجفيين بشهامتهم لم يستسلموا لخيار الظّالم، ولم يهدأوا بل إنّهم استأجروا دواب ودراجات ناريّة تسير عن طريق المقابر، ثم الصّحراء ليصلوا إلى الطّريق العام من جهة الغرب، فبدأت براميل الماء الصّغيرة توضع في كلّ مسافة أقلّ من نصف كيلومتر، وكانت السّلطة ترسل بين

---

(1) في ذلك الوقت كان الطّريق بين النّجف وكربلاء عبارة عن صحراء قاحلة لا كما تبدو الآن، وكان خطّ سير السّيارات عبارة عن خطّ سير واحد. هذا بالإضافة إلى عدم وجود طرق فرعية منه إلى الكفل أو غيرها.

(2) فلسفة الماء في عمق الثقافة الحسينية عميق جداً ومنعه عن الثوار يمثل عنوان يتماثل مع صدق الفكرة وقدرتها.

الآونة والأخرى سيّارات لإراقة الماء في الصّحراء، ثم رمي التّراب في قدور طبخ الطعام.

ويمرّ اليوم الأوّل وقد تجمّع المشاة في خان الرّبع (المصلى)، تبعهم أناس كثيرون من شتّى طبقات المجتمع العراقي من النجف ومن خارجها.

وفي الصّباح الباكر في اليوم الثاني جاءت سيارات الشّرطة نازلة إلى الخان الذي يبعد عن الطّريق بمسافة نصف كيلومتر تقريباً، وكانت تلك السيارات قاصدة المسيرة لإخافتهم واعتقالهم، ولكن بالمقابل كان الثوار قد أعدّوا العدّة وعرفوا دناءة مخطّطها، فقاموا من اللّيلة الّتي سبقتها بتوزيع المراقبة على كلّ مداخل الخان وتمييز النّاس والبحث عن هوياتهم، واكتشاف عناصر المخابرات التي بثّتها السّلطة لمعرفة هويات الثّوار لاعتقالهم فيما بعد، ولمنع التّظاهرة من إطلاق الشّعارات المعادية للسّلطة والحكومة، ومع أنّ المسيرة لحين هذا التّاريخ لم تطلق أيّاً من تلك الشّعارات، وإنّما اكتفت بشعارات عامة معروفة لدى العراقيين منها:

(لو قطّعوا أرجلنا واليدين نأتيك زحفا سيدي ياحسين)

(أبد والله ما ننسى حسينا)

(يا أهالي النجف ياحيو وهله كوموا نتلكى العقيله بكربلا)

إلى آخره من الهتافات الدينية.

ولكن السّلطة ضايقت الثوار والجماهير المشاة وأرسلت أعداداً من عناصر الأمن مندسّين بين الحسينيين، وعلى أثرها قام الحسينيون رداً على ذلك بتكوين فرق التأكّد من الهويات، وأطلق على عنصر الأمن مصطلح (برغش) وتمكّنوا من أن يكتشفوا عدداً منهم كانوا في داخل الخان مع المشاة لمعرفة وجوه المشتركين في سبيل إلقاء القبض عليهم[1].

---

(1) كان أحدهم مجرم من مجرمي البعث والأمن الذين عذّبوا المؤمنين، فاقترب منه أحد الحسينيين الشّباب وكان قد عذّبه في السّجن، فلم يضربه كما كان هذا المجرم يمارس =

وفي الصّباح نزلت قافلة من السّيارات العائدة للمخابرات متّجهة إلى الخان لضرب طوق من الحصار ومنع المتظاهرين من الاستمرار في مسيرتهم حسب ما كان مقرراً لها أن تتمّ، وهو السّير إلى خان النص.

وعندما اقتربت من الخان كان الشهيد الكبير (صباح ناجي مالو)[1].

كان هذا الشهيد قد هيّأ بندقيته البعيدة المدى للدّفاع عن المسيرة، فقد كان يعلم خبث هذه العصابة في مباغتة المشاة وضربهم أو قتلهم أو اعتقالهم، وعندما نزلت السيارات إلى الطّريق مقتربة من الخان أطلق عليها الشهيد خمسة رصاصات أصابت إحداها جسم السيارة، وعندما رأت المخابرات ذلك غيّروا وجهتهم وعادوا إلى الطّريق العام هاربين إلى النّجف، وكانت هذه الحادثة الإنذار الاوّل لكلا الجهتين بالمواجهة الدموية فيما بعد[2].

إزدادت في اليوم الثاني حشود الّالاف من النّاس، وكانت الجماهير النجفية ترجع بعد الوصول إلى الخان الأول لتنام في النّجف ثم يعودون صباحاً لمرافقة الحشود الكبيرة في مسيرتهم إلى الخان الآخر وهو خان النصّ.

= الضرب معه وإنمّا استلّ خنجره وحلق جزء شاربه بطرف الخنجر ثم أعطاه إياه بقطعة من القماش وقال له: أتركك لكي تفقد رجولتك، وإذا رأيتني يوماً في النجف عليك ان لا تلتقى عيناك في وجهي. أخذوه والآخرين من عناصر المخابرات وأطلقوا سراحهم خارج الخان ليعودوا إلى النجف، كان ذلك العنصر المخابراتي من مدينة النجف ومن عائلة يعرفها المجتمع وهو أمر غريب على هذه المدينة... بعد تلك الحادثه لم يُرَ ذلك الشّخص في المدينة منذ ذلك التاريخ.

(1) الشاب الوسيم الذي وفّر له والده كلّ وسائل الرّاحة من السّيارات ومن التّرف ممّا يغنيه في أن يكون من الثّوار، وجد هذا الشاب نفسه بأنّ عليه أن يكون في مسيرة النور، وكان أنذاك يقود سيارة (فولكسفاغن) موديل حديث...

(2) كان النجفيون يحرصون كثيراً على أن تمرّ هذه الأيام بأمان ومن دون متاعب، ولم يكن في خلدهم بأنّ السّلطة سوف تستعمل قوّة النار في مواجهتهم، وإنّما جلّ ما كانوا يتوقّعون هو مشاغلتهم ومنعهم من المسير إلى كربلاء، ومن عادة النجفيين أن يكون هذا الشهر شهر أمان وسلام. وذلك للسّماح إلى الزّائرين الآخرين في أداء مراسيم الزّيارة.

وصل شباب النّجف بأجمعه إلى خان الربع إيذاناً ببدء المسيرة الكبرى التي ملأت الحشود والصحاري يحيط بها الشعب، كلّ الشعب من نساء وأطفال وشيوخ، في الوقت الذي كانت المخابرات تهاجم أطراف المسيرة وتعتقل من تتمكّن منهم، وبدأت في ذات الوقت من قبل رجال المخابرات الاستعدادات إلى هجوم كاسح على المسيرة برمتها، والتي كانت عبارة عن حشد ضخم كبير من البشر يسير في الصحراء مع هتافات غالباً لم ترتفع إلى وتيرة التحدي بعد، وإنّما جُلّها هي (لو قطّعوا أرجلنا . . .).

وفي خان النصّ وبعد وصول المسيرة إليه وعندما جنّ الليل وبدأت الجفان تعدّ للطبخ هاجمت سيارات الأمن أماكن الطّبخ ورمت التّراب في قدور المرق والرز ثم ضربت الناس بالعصي وهدّدتهم بالرّجوع وترك المسيرة وإلّا الإعدام.

في ذلك الوقت كان أخي السيد حامد يساير الخطوات التي بدأت تأخذ طابعاً يتميّز بالعنف والقسوة، وفي تلك الأثناء وفي أوائل الليل جاء إلى المسيرة وانضم لها شخصية مميزة هو البطل جاسم الأيرواني[1].

(1) الشخصية المطلوبة أمنياً من قبل السّلطة بسبب حركته الجسورة في محرم لهذا العام 1977 في كسر الإضراب عندما تمكّن من شلّ عمل السلطة، وإخراج موكب (التّطبير) في محيط النجف ومحيط الصّحن الشريف، وكانت السّلطة البعثية تلاحق اولئك القادة أذكر منهم السيد طاهر ابن السيد جبر الصايغ، ياسين أبو صبيع، الأيرواني جاسم نفسه، أعتقل الاسمان الاولان مع شخص ثالث ربما جبار جدوع في سجن الفضيلية لشهور، وقد زرتهم في السجن أنذاك بعد أن تمكّنوا من تحدّي السلطة تحدياً مريعاً وتمكّنوا من السيطرة على مركز النجف وهروب عناصر المخابرات، أما دور الايرواني فهو إنه بادر إلى الصّعود على المنبر في الصحن الشريف في اللّحظة التي دخل موكب التّطبير برؤوسهم المدماة وصاح في المذياع وسمعه كل من كان في النجف: بأنّه تلقّى نداءاً الآن من رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر (حفظه الله) يسمح فيها بممارسة التطبير في النجف. فما كان من الناس المتطبيرين إلّا أن أخرج كلّ منهم سيفه وبدأ بشعيرة التطبير بشكل عادي خال من الخوف، هذا الرجل الايرواني بحثت عنه المخابرات في كل العراق فلم تجده في محرم المنصرم =

جاسم الايرواني التحق بالثّوار في خان النصف وكان أخي السيد حامد قد اقترب منه وأخبره بأن يغيّب نفسه، لأنّه قد يعتقل في أية لحظة، ولكن الأيرواني أخبر السيد حامد بأنّ هنالك فعلاً محاولة لضرب كامل المسيرة، وقد جاء الآن هنا إما أن يستشهد، وإما أن يلقى القبض عليه.

قال له: وما معك من سلاح...؟ فقال له إنه يحمل مسدس سريع الطلقات مع غدّارة، وإنّه قد أخفى السلاحين في أعلى تلك السيارة اللّوري المارسيدس (LB)، وإنه سيبقى قريباً من المتظاهرين لكي لا تهاجم في خان النصف، وفعلاً جاء الأيرواني بعشرين سيارة من نوع مارسيدس الكبيرة الجديدة الخضراء ووضع كلّ واحدة قرب الأخرى وترك مدخلاً واحداً فقط للناس ثم أعطى أخي السيد حامد (كلمة السر) وقال له أعطها لفلان وفلان وفلان وغيرهم.

توجّه السيد حامد إلى البقية من الشباب الحسيني ليوزّع عليهم كلمة السّر في محيط التظاهرة العملاقة، ولكنّ الأيرواني جلس إلى جنب القاده الكبار أعني الأكبر سنّاً من أمثال الشهيد البطل "يوسف الأسدي" والشهيد البطل "وهّاب الطالقاني" وآخرين مثل "كامل ناجي مالو" و"صاحب أبو كلل" وغيرهم، وكان هؤلاء هم الجيل الأكبر سنّاً من أخي السيد حامد، وكانوا فعلاً رمزاً من رموز الشّجاعة المنقطعة النّظير.

فكانت الحشود تحتمي بهم عندما تشتد الصّعاب وتتأزم الأمور، وكان هؤلاء يمثّلون الشّخصية النّجفية بكلّ أبعادها وبشكلها الذي ربما لا تشبهه أياً من الشّخصيات التي رأيتها في حياتي، وخصوصاً شخصية الشهيد العملاق وهاب الطالقاني، وشخصية يوسف الأسدي، وكانوا كلّهم مثالاً للعنوان النّجفي الذي تشرّب بحبّ الحسين، ونما على روح التّضحية

= من ذلك العام، وظل متخفياً ما بين النجف وبغداد وقد نشرت صوره في وسائل الإعلام وفي الجرائد بعد الهجوم الذي شنته المخابرات العراقية في اليوم التالي. وبعد التمكن من أن يفلت من حصار المخابرات وأن يخفي نفسه.

والشّجاعة، وكان النّاس يتحرّكون ويتحمّسون للتّضحية في مواصلة متابعاتهم إلى تلك الشّخصيات العملاقة.

جلس جاسم الايرواني إلى جنب القادة ليعرف دقة الموقف، وطريقة ردّ الهجوم البعثي المرتقب، ولكنّ السّيد وهاب الطالقاني قد رجاه وألحّ عليه أن يغادر التظاهرة لئلّا تكون هنالك ذريعة للمخابرات كي تضرب الكلّ في عملية وحشية غير محسوبة، في الوقت الذي كان البطل الايرواني قد وفّى لدوره ولمبدئه في محرّم الماضي، ولا يريده أن يتحمّل أكثر من طاقته، مما سينتج تبعات عن هذه التّظاهرة.

ولكنّ الحاج الايرواني رفض[1].

إستمع إلى المحادثة التي رواها لي أخي السيد حامد والذي كان جليسهم في تلك المحادثة:

- الهجوم سيكون وليّة جبان[2] قال الايرواني. . .

- لا تستغرب فنحن نقاتل نفس الذين قاتلهم الحسين، أجابه سيد وهاب. . .

- متى تتوقع الهجوم يا أبو محمد. . .؟ سأله صاحب أبو كلل

- ربما في الثانية عشر ليلاً . . .

- لا أعتقد ذلك بادر يوسف الأسدي. . .

- عليكم أن تعدّوا العدّة يا أبو يعقوب، قال الايرواني موجّهاً الحديث إلى يوسف. . .

(1) وقال: أنه سيكون أذلّ إنسان وأجبن نجفيّ (كما عبّر عن نفسه هو) إن تركهم وهم في هذه الحالة، وأنه سوف يشك في حليب أمه إن جبّن وهم في ساعات المحنة هذه. . .
(2) كلمة نجفية من الواقع الشعبي.

- النّاس كلّها تحمل أرواحها على كفّيها قال الأسدي. . .

- اها. . . بادر صاحب أبو كلل معلّقاً: أولاد علي وأنت تعرفهم.

- المذبحة ستكون بحجم مأساة كربلاء، وهنيئاً لنا سنكون عندما نستشهد في نفس المكان الذي بدأ جيش يزيد الهجوم على الحسين، في خان النخيلة والذي هو أمامنا عن مرمى عصا منّا، قال وهاب.

- أسهل علينا من الذل يا سيد. . . صاح جاسم الايرواني ضاحكاً.

- كم تحبّ الحسين. . . ابو محمد؟ سأل يوسف موجهاً سؤاله إلى جاسم.

- تسألني عن حبّ الحسين. . .؟ أنت تسأل من؟

- أسألك انت. . . أجاب يوسف.

والله لن أعطيهم شيئاً إلّا أن تكون كل قطرة من دمي رصاصة، ولو فعلتها لن أكون عندئذ قد أدّيت أمانتي لأبي عبد الله .

سكت الجميع وضحكوا معاً وتسللت بعض قطرات الدّمع من عيون البعض في ذلك اللّيل الحالك الذي لا ترى للدّموع فيها اثراً في العيون. . .

عرف الجميع بأنّهم قد تعاهدوا على الموت وليس هنالك ما يمكن أن يتكلّموا عنه، أو يناقشوا فيه، فالأمر محسوم، والعدّة للهجوم من الجانب الآخر ستبدأ، وأمام ذلك ليس هنا أكثر من سيل الدّماء التي ستغرقهم جميعاً. . .

وفي صباح اليوم الثّالث من المسيرة بدأت هذه الحشود البشريّة العملاقة بالتحرّك نحو خان النّخيلة[1] باتجاه كربلاء في اليوم الرابع من المسيرة الكبرى[2]

انطلقت المسيرة من خان النصّ إلى جهة الشمال متّجهة إلى كربلاء ومبتعدة ربما 10 كيلومترات عن قلب المدينة، وإذا بسيّارات المخابرات تقترب من المسيرة وتطلق عيارات ناريّة حيّة على المشاة فسقط شهيدان أحدهما الطّفل (محمّد الميّالي) وشاب آخر اسمه (غازي خويَر)، أما الأول فبقى في ألم النزع مرمياً على تراب الصحراء يحيط به النّاس وهم يحاولون

---

(1) كان هذا المكان هو الذي تجتمع بها المقاتلة في استعدادهم للحرب في العصور السابقة عام 61 هجرية، وكان الجيش الذي خرج إلى قتال الحسين قد تجمّعت اوصاله في هذه البقعة، لأنّها كانت المركز الأقرب إلى الكوفة التي تمثل العاصمة الإسلامية للعراق في ذلك الوقت والذي كان الحاكم الأموي عبيد الله ابن زياد يتّخذها مركزاً لحكمه. (ثورة الحسين، شمس الدين).

(2) ويحسبني وأنا أتصفح التاريخ أرى هنالك الكثير من التشابه ما بين هذه المسيرة العملاقة الكبرى وبين مسيرة القائد عبد القادر الجزائري الذي أسس حرب التحرير الجزائرية في بداية القرن ما قبل الماضي، الذي كانت إستراتيجيته كما يقول هو: إنّه اتّبع إستراتيجية الحسين عليه السلام عندما أخرج كلّ أهله وأطفاله وعائلته إلى مسيرة التّحرير الكبرى، والتحق به الثّوار من كلّ الجزائر أيضاً بعوائلهم وأطفالهم، وصارت المسيرة عبارة عن حشد بشري ضخم وكأنها مدينة من ملايين البشر تسير في الصحاري لتصل إلى المدن وتسقط الواحدة تلو الأخرى، ليس بطريق الهجوم والسّلاح وإنّما بأسلوب الشّجاعة والثبات على المبادئ، وكان الطّيران الفرنسي أنذاك يخشى من الإقتراب من تلك المسيرة البشرية لأنّ المعركة إن وقعت فهذا يعني موت الآلاف من الأطفال والشّيوخ والنّساء. وهو مالا تحتمله فرنسا أنذاك في مواجهتها للإعلام وصحافة العالم، ولذلك ابتعد سلاح الجوّ الفرنسي عن المواجهة، وتركت الأمر إلى القوات البرّية التي كانت عاجزة عن مواجهة الحشود البشرية المليونية مهما امتلكلت من اسلحة وقدرات وآليات، وهكذا بدأ عبد القادر الجزائري بمسيرته الحسينية الكبرى بين المدن الجزائرية التي بدأت تسقط الواحده تلو الأخرى أمام إصرار القائد وجماهيره المليونية، والتحاق الثوّار به من كل المدن التي تسقط بيده، وكانت تلك الحشود البشرية إن نزلت فإنّها تنزل في محيط أو صحراء واسعة تتحوّل على أثرها إلى مدينة كبيره يقطنها الثوار الجدد. هذا الأسلوب هو بالضبط كان الأسلوب الذي استعاره عبد القادر الجزائري من الإمام الحسين في الوقت الذي يدّعي انتماءه نسباً إليه عليه السلام. John W. Kiser, Commander of the Faithful, the Life and Times of Emir Abd El-Kader.

إسعافه وحمله إلى المستشفى، ولكن ايّ مستشفى تلك ممكن علاجه فيها. . .؟ فالكلّ مطلوب إلى المخابرات الحامل والمحمول كذلك من تحمله من السيارات. . .؟

وقد عرف هذا الشاب نفسه بأنه ميت لا محالة[1]، وعرف هذا الطفل بسليقته وفطرته بأن المنيّة حاضرة خلال الثواني القادمة وإنه أقرب إلى جوار الحسين في مقعد صدق. . .

في هذا الوقت عندها إلتفت وأطلق كلماته الأخيرة إلى الشهيد السّعيد يوسف الأسدي، وكان يعرفه عن قرب والذي كان ينادي على الناس إن كان هنالك من طبيب يساعد هذا الجريح ولم يجبه أحد، قال له : عمّو يوسف إن متّ الآن فاحملوا ثوبي هذا وأوصلوه إلى سيدي الحسين عنواناً للوفاء.

وما هي إلّا لحظات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ويستسلم لقدر الشّهادة، وعلى أثرها يحمل ثوبه الملطّخ بالدّماء على طرف عصا طويلة لكي يراه كل المجتمعين في المسيرة.

في هذه اللّحظة تغيرت لغة المواجهة، وحماسات الشباب، وبدأت الحشود تهاجم السلطة بعنف وبشكل مباشر، فرجع البعض من الشّباب إلى مدينة خان النصّ وهاجموا مراكزالحزب، وبعض المراكز الحكومية، ثم أوقفوا سيّارات الأمن والشّرطة ولاحقوها بسياراتهم وضربوا أعوان السلطة وانتزعوا أسلحتهم، ثمّ بدأ الحماس يتعالى بين الشباب بشكل لا مثيل له.

وكان الشّاب الشجاع صاحب ابو كلل يحشد الجماهير بشكل مختلف عن شخصيته التي قضاها في أزقة محلّة العمارة في النّزاعات والشقاوات وفي التّسلط على الآخرين تحوّل هذا الشاب (الوكح) إلى صوت مدوّ

(1) لأنّ إصابته كانت قاتلة اخترقت الشريان الرئوي وآستقرت في الضلع الأيمن، بعد أن لامست الشريان الأبهر قليلا ، فامتلأت ملابسه بالدّماء.

للثورة، والى فدائي في سبيل القضية المبدئية الحسينية، وكان كما ذكرت سابقاً يعتبر صاحب من الشّباب الشّجعان في محيط النّجف من الصعوبة الوقوف أمام سطوته وقدراته، ولكنها كانت في السابق متوجهة إلى ما يعكر صفو الناس، أما الان فإنّها تحوّلت إلى استثمار في طريق الحسين. . .

هذا الشاب بمفاهيمه القديمة وتربيته الفقيرة وحتىّ بأمّيته -ربما- وببساطة تفاعله مع المفاهيم كان يقول للثّوار[1]. . . عبارات تعبّرعلى فطريّة قائلها وشعبيته وأميّته في المفاهيم الدينية، ثم يبيّن للإنسان عمق التّضحية في مقارناته التي كانت منطلقة من الواقع الذي عاشه والذي تشرّب به عقله الذي لم يفهم من الحياة إلّا هذا الطّريق، ولكنّه قال أخيرا بأنّ الموت هو عشقه في سبيل الحسين، وإنّه سيقاتل حتى آخر قطرة من دمه، وهو كما فهمها من قبله وبلغته العفوية قائلاً قبل ألف وأربعمائة عام: أنا في الرخاء الحسُّ قصاعكم. . .؟ وفي الشدة أخذلكم. . .؟ لا والله، حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم. . .هذه هي عفوية الثائر، ومنطق الحر، وشهامة المناضل.

كان صاحب يشعل الجماهير بالحماس بعفويته تلك، فهو ليس بالخطيب المفوّه ولا المتكلّم المبدع، وإنّما كان صاحب قد نشأ في محيط الثقافة الحسينية، وهو تماماً ما تكلمت عنه في بداية المقال وقلت بأهمّية توفّر هذا الشّعور في كلّ شعيرة تقام في مفاهيم الأديان، فالثّورة نتاج ثقافة

(1) عذراً على اللّغة التي سأذكرها لكم ولكنّه تاريخ، والتاريخ يجب أن يكتب كما صار، وقد سمعت أنا شخصياً ما قاله هذا البطل، وكان ذلك الصوت في كاسيت كنت أملكه وقد أخذته في الصيف الذي بعده إلى خارج العراق وتم نشره في إذاعات الدّول التي كانت معادية للسّياسة العراقية، يقول صاحب أبو كلل (مع الدبلجه):اسمعوا أولاد علي. . . . . إسمعوا. . . من منّا لم يتعارك على بوكة. . .؟ أو سرقة؟ أو كذا كذا. . .؟ وكم منّا كاد أن يموت بسبب كل ذلك. . .؟ ولكنه لم يخف ولم يتردد، أمّا الآن فإنّنا نموت لا في سبيل السّرقة والكذا الكذا. . . وإنما نموت في سبيل الحسين والفرق بينهما كبير جداً، يا صدام عليك أن تعلم بأنّك تواجه أولاد علي الّذين يموتون في سبيل البوكه (أي السرقة باللغة العراقية) فكيف بهم الآن وهم يموتون في سبيل الحسين. . .؟).

يصنعها دوماً هؤلاء من أمثال نجم البقّال[1] أو (محمد بوعزيزي) ربما، كانوا أولئك كلهم بعيدين كل البعد عن السياسة وحتى عن اللغة العربية السليمة، مع أن بوعزيزي الثائر التونسي ومفجر ثورات الربيع العربي خرّيج جامعة، ولكنّ عفويته وعفوية نجم البقّال، غيّرت الأمم وبدّلت مجرى التاريخ، وصار اليوم لنا تاريخ آخر، تاريخ ما قبل وتاريخ ما بعد ثورة العشرين، تاريخ مختلف بعد حرق بوعزيزي نفسه... وكذلك هنالك تاريخ كتبه أبو كلل وكتبه الآخرون من الأبطال الشّهداء الذين وجدوا أنّ طريق المجد يمرّ من هذه الصحراء المقفرة.

وصل الموكب الكبير والجماهير محتشدة وتزداد بشكل كبير وتتعمّق روح الوحدة بين النجفيين من الحسينيين مع غيرهم من المحافظات الأخرى الجنوبية، التي التحمت معهم، وخصوصاً من محافظة البصرة ومن مدينة الرّميثة، وكان أخي السيد حامد رحمه الله الشخصية التي يرتكن إليها الشباب عندما تشتدّ النّوائب وتحتاج إلى إعادة التّفكير في الخطوة الّتي تليها، فقد كان محطّ احترام من قبل الثّوار الذين كانوا يرون في شخصية مثل السيد حامد ابن خطيبهم الحسيني الثوري يشاركهم في مسيرتهم الكبرى، وكان هدؤه العنوان البارز في التفاف ثقة الناس به في الاسترشاد نحو الخطوة التي تأتي.

---

(1) نجم البقّال هو الذي قاد العملية الفدائية التي اغتال بها الجنرال المارشال حاكم النجف في سنة 1918 وبها بدأت ثورة تلك المدينة المسمّاة باسم ثورة النّجف، وهي أوّل ثورة ضد البريطانيين في العراق... راجع كتاب عبد الرزاق الحسني الثورة العراقية الكبرى، وكتاب ثورة النجف إلى حسن الأسدي.





المنهزم القويّ



كانت تلك الليلة في (خان النّخيلة) من أعتى وأشدّ الليالي ألماً على المسيرة، فثوب الشهيد المدمّى (الميالي) كان منصوباً في وسط السّاحة، ودماء الأبطال الآخرين ماثلة أمامهم، ولازالت السّلطة ترسل بين الفينة والأخرى أزلامها لإطلاق الرّصاص على المسيرة، ولازال الجوّ متوتّراً والدعايات تستعر في أن الحرس الجمهوري[1] في طريقه إلى استباحة المسيرة والانتقام من الثّوار وتصفيتهم فرداً فرداً، في هذا الوقت كان القادة الكبار للمسيرة واثقين من أنفسهم وكأنّهم يملكون كلّ مستلزمات القوّة والنّجاح، وعندما تلتقي بهم تلتقي بقدرات من الصّلابة لا نظير لها.

وفي أكثر لحظات الشدّة وفي غمرة المواجهة، وتقريباً السّاعة السادسة مساءاً وإذا بموكب كبير يصل إلى خان النّخيلة يقوده السّيد الشّهيد الكبير

---

(1) كان عدنان ابن خير الله طلفاح، وابن خال صدام يقود هذا اللّواء الّذي كان يعتبر من الألوية التي أعدّها لحماية بغداد ومواجهة الانتفاضات الشّعبية، وزودها بكل الطاقات وكلّ القدرات في سبيل تحقيق هدفة في قمع أيّة انتفاضة تستعر في العراق، وقد أرسل في انتفاضة رجب 1979 فيما بعد إلى مدينة الكاظمية فعاث في المنتفضين الفساد وروّعهم بشكل وحشي لا مثيل له، وقد دمرّ معظم هذا اللواء فيما بعد -بإرادة الله- في طريق الكويت صفوان وعندما تراجع أمام ضربات التّحالف فدمر بشكل وحشي لم تعتد القوّات الأمريكية أن تقوم به في حروبها الأخرى. وقد نقلت كل صحف العالم هذه المأساة المروّعة التي لم يعتدها العالم في الحروب ما يسمى "بالحديثة" التي صممت في عدم قتل الإنسان. . . وكانت السلطة في تلك اللحظات قد حركته إلى المسيب المدينة القريبة من كربلاء للتهيّؤ للإنقضاض على المسيرة وإبادتها، ولكنّ عدنان خير الله كان قد عارض ذلك وقد قال لصدام آنذاك: بأنّ الوحشية التي استعملها مع الثوار هي بسبب هتافهم ضدّ شخصيته، وإنّه نوع من الثأر له.

محمد باقر ابن المرجع الكبير الحكيم[1] واعتقد في البداية بأنّ حضور هذا الوفد هو كبقية الوفود التي تصل من المرجعيات الدينية والهيئات العلمية لمساندة المسيرة، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك، وإنّما وصل الشّهيد الحكيم لمهمّة كبيرة أرويها هنا نقلاً عن الشهيد يوسف الأسدي[2].

الحديث الآن للشهيد يوسف الأسدي مع بعض التحويرات التي لم

(1) الشّهيد الكبير الحكيم كان من الشخصيات التي لها ثقل في العمل الإسلامي عموماً منذ بداية مسيرة الوعي، ثم مسيرته في أيام النضال السري في ترؤسه للمجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق عندما كان في إيران، وبعد التغيير عاد إلى العراق لبنائه والمشاركة في وضع أسس نظام سياسي ديمقراطي جماهيري ولكن الأعداء عاجلوه وتمّ اغتياله بعد التّحرير آب 2003 بأيادي إرهابية وبتخطيط دولي كبير، كي يصبح العراق خالياً من الشخصيات المعتدلة التي لها قدرة على إقناع الآخرين.

(2) ترافقنا معاً في السّجن العسكري رقم واحد الذي جمعنا. وقد بقينا أياماً عديدة نتباحث في أمور إحتمالات التحقيقات، كانت السلطات البعثية قد عذّبته عذاباً شديداً وخصوصاً بسكب الحامض على رجليه وكان يقول لي وهو في غمرة الآلم: بأنّنا إن لم نتحمّل هذا في سبيل الحسين، فلا خير لنا في موالاتنا لأهل البيت. . . وقد تعلّمت كثيراً من الشّهيد الأسدي في تلك الفترة، وكان المعتقلون يتحاشون الإقتراب منه لئلا يلحقهم ما سوف يلحق به، أمّا أنا فلم أكن أعلم بأمر هذا البطل قبلاً وإنّما عرفته معرفة بسيطة لأنّه عمل يوماً من الأيّام في صباغة بيتنا هو وأخوه الأكبر، وعندما دخلت السّجن وبعد أن انتهوا من حفلة تعذيبي أرسلوني إلى قاعة كبيرة، وبمجرّد أن وقعت عينه عليّ صاح بي: سيد، سيد تعال إجلس هنا، فجلست إلى جنبه وكنّا نتقاسم الفراش طيلة الّليل، ونتقاسم الطعام، فمن الغرابة أن أجد في شخصية هذا الشهيد الذي ربما كان أميّاً أو ما شابه لا أعلم، بأنّه صاحب همة وقدرة روحية كبرى وكأنّك تتحدّث مع شخصية ليست من عالم هذه الدّنيا، فلم ترهبه أساليب الطغاة أبداً ولم يخفه شيء، ولم يكن أمله إلّا الفوز بوسام الشّهادة، وقد كنت قبلها لا أعتقد بأنّ هنالك في الحياة شخصيات إيمانية غير مثقّفة تملك هذه القدرات الواسعة، لأنّنا تربّينا في بيت ثقافة ودراسة ومعرفة، وكنت أرى أن طريق الشّهادة والإيمان يمرّ من خلال المعرفة الدّينية والثقافية، وعندما اجتمعت مع الشّهيد الأسدي اكتشفت بأنّ للإيمان أكثر من طريق، وأكثر من وسيلة أحدها هو العلم، ولكنه ليس الاسلوب الوحيد كما تعودت أن أفهمه، وهكذا أعطاني هذا الشّهيد درساً في عالم الإيمان والشّهادة بقي ماثلاً، بل متأصّلاً في نفسي إلى اليوم، وأتمنى أن أوفّق للكتابة عن شخصيته في كتاب منفرد.

يتمكّن الشّهيد من التّعبير عنها بصورة كاملة : وصل السيد الحكيم إلى خان المصلّى قادماً من قبل الشهيد الصّدر الأوّل بعد أن زار الشهيد الصدر فريق حزبي عالي المستوى يتكوّن من محمّد عايش[1] واللبناني زيد حيدر[2] وابراهيم السيد خلف مدير الأمن، ومحافظ النجف جاسم الركابي، ولا أدري ربما شخصيتان أخريان "لا يتذكرهما الشهيد الأسدي" فطلبوا من السّيد الشهيد التّدخل في تهدئة الأوضاع في المسيرة الحسينية التي هي الآن على أبواب كربلاء، وإيقاف الشّعارات التي تهاجم السّلطة وتهاجم المسؤولين وأحمد حسن البكر وصدّام وغيرهما، كما طلبوا منه أيضاً أن يتدخل لدى الثوار في أن يتوقّفوا عن اعتقال رجال المخابرات العراقية هناك.

فقال السّيد الشهيد عندئذ لهم: إن لكلّ فعل من ردّ فعل، وهذه هي ردود أفعال وليس لها من حساب في العرف العلمي والمنطقي، وأنّ هؤلاء هم أبناء الوطن والنجف، وهم أولاً وأخيراً عراقيون فيجب على السّلطة مراعاة مشاعرهم فيما يخصّ الشعائر الحسينية التي هي في الواقع تعبير عن إيمانهم بالحسين عليه السلام، ولا تتعارض مع المسيرة، كما أنّ الدّولة كانت قد أقرّت مبدأ الفصل بين الدّين والسّياسة. وهذا معناه أن يعطى للدّين موقعه المناسب في نفوس النّاس ممّا يعمل غالباً على جعلهم مواطنين صالحين منتجين في خدمة أهداف الوطن.

تحدّث أولاً محمّد عايش قائلاً: بأنّ القيادة العراقية ورئيس الجمهورية حريصون على سلامة كلّ العراقيين، وأنّ النجف مدينة مهمّة للحزب لوجود قياديين كبار في هذه المدينة المهمة.

---

(1) قتله صدام في عام 1979 باتهامه في محاولة للإنقلاب عليه، وقد فهمنا فيما بعد أنّه كان يقف على طرف نقيض من وحشية صدام.

(2) عضو القيادة القومية للحزب وهو شيعي المذهب لبناني وقد طرده أو قتله صدام فيما بعد.

ثم تحدث زيد حيدر وهو لبنانيّ الجنسيّة وعضو القيادة القوميّة لحزب البعث أنذاك قائلاً: ومن واجب العلماء ضبط مسيرة الناس وتوجيههم إلى ما فيه خير الحزب والثورة.

بعدها قال محافظ النجف: أنّ هؤلاء أي الحسينيون كانوا قد خالفوا القانون في ممارسة الشعائر الحسينية، وهتفوا هتافات حاقدة ضدّ الحزب والثورة. ثم تحدّث إبراهيم السيد خلف مدير الأمن، وقال: إنّه يأمل أن تحل الأمور بصورة سلمية.

وبعد نصف ساعة على اللقاء طلبوا من الشّهيد الصدر إرسال وفد لتهدئة المسيرة التي ستنطلق غدا إلى كربلاء.

فأجابهم الشهيد الكبير الصّدر قائلا لهم:

أنا لا أفهم لماذا تمارسون ما يثير عواطف الناس، وتصطدمون مع معتقداتهم وتحاربون أفكارهم، ثمّ تأتون وتسألوننا نحن العلماء في الحوزة حلّ إشكالاتكم مع أولئك الناس...؟

وأضاف الشهيد الصدر رحمه الله: إن المسيرة الحسينية عندما انطلقت فإنّهم لم يستشيرونا، ولم يأخذوا رأينا، وليس لنا من يد على حركتهم وممارساتهم، وهي قضية اجتماعية، وأن دور الحوزة ودور العلماء هو التّوجيه نحو الالتزام بالأحكام الإسلاميّة، وأحكام المذهب، ولذلك فإننا لا نرى في طلبكم إلينا من ربط ما بين هذي وتلك.

بادر إبراهيم السيّد خلف مدير الأمن قائلاً: لا أدري إذن معنى دوركم في النّجف.

- دورنا هو دور الطّبيب في الأمة، وإن لم يسأل المريض الطبيب فليس على الطبيب أن يركض خلف المريض لعلاجه.

- إنّ القيادة السّياسية وسيادة النّائب صدآم يطلب من حضرتكم إرسال

وفد التهدئة إلى الثّوار، لأنّنا سوف نضربهم إن لم ترسلوا وفدكم، قال محمد عايش مهدّداً.

- من المهمّ أن تتعاملوا مع النّاس بالنّفس الأبويّ، والنّفس الضّامن لحقوق النّاس، لا بنفس الاعتداء والضّرب وهذا ما نرجوه من قيادتكم.. قال الشهيد الصدر.

- إنّ الأمر تعدّى حدوده تماماً، والتّظاهرة تكبر بشكل لم نكن نعتقد بأنّها ستكون على ما هي عليه الآن، كما إنّنا لم نتصوّر بأن هنالك تجرؤ من قبل المسيرة على استعمال الرّصاص الحي ضدّنا قال المحافظ.

- هدّئوا النّاس، إسحبوا عناصر الإثارة وعناصر الأمن، إسمحوا للماء والطعام أن يصلا إلى المسيرة، عاملوهم بلطف، أظهروا ودّكم لهم وقدموا لهم التسهيلات، وامنعوا هذا الاندساس للعناصر المغرضة ولا تحاربوهم.

- إنّها شعارات بالية رجعية فكيف نساندها قال المحافظ

- بوجود هذا التصور المسبّق من قبل المسؤول عن هذا الشعب، فإنّ الجماهير سوف تنفصل عنكم وستواجهون وضعاً صعباً كما هي الحكومات الأخرى التي تعاملت بالحديد والنار مع شعوبها

- اذن ماذا نعمل...؟ نتركهم يسبّون الرّئيس والنّائب ونتركهم يطلقون الرّصاص علينا...؟ قال المحافظ، وكان أكثرهم تشدّداً.

- أنتم تملكون من الوسائل ما يمكنكم بها أن تستوعبوا غضبة الناس، والناس في النجف لا تملك مواقف مسبّقة في معاداتكم، وإنّما تبتدأ المعاداة إذا شعر المواطن بأنّه مهدّد بشعائره ومبادئه.. فالخيار لكم.

نظر الجميع في وجوه البعض وقال محمد عايش: نحن نرجوك ونطلب منك بالسّمة الشّخصية أن تتدخل في هذا الأمر في توجيه المسيرة، لأنّهم سيسمعون كلامكم حتماً، وأن تصدروا فتوى في حرمة التعرّض للسلطة وسبّ الرّئيس والمسؤولين الحكوميين.

- السبّ ليس من مبادئنا أبداً، وأنا أرفض كلّ تعرّض للإنسان، كيف وإذا كان المتعرّض له هو قيادة هذا البلد. . .؟ ولكنّني أرفض الخلط بين الدّين والسّياسة، ونحن نفتي فقط في الحلال والحرام من الأحكام الدينية الفقهية، أمّا الأمور السياسية فإنّنا لسنا سياسيّين، ولسنا نملك الحقّ الفقهي في التّدخل بأمور لا تهمّنا، ولذلك تركنا السياسة للسياسيين، وهذه قضية سياسية، ولكم الحصافة والعقل في إدراك كيفية التصرّف.

- أبداً لا نقبل بذلك، ولا نفهم ما تقوله. . .بادر إبراهيم سيد خلف.

- تريدون نصيحتي أم تريدون أن تفرضوا رأيكم..؟ إن كانت الأولى فأنا قلته لكم توّاً، وإن أردتم أن تفرضوا رأيكم فنتائج الفروضات التي تعتقدون بها هو ما حدث الآن، فأرجو منكم أن تستفيدوا من أخطائكم.

كان في الجلسة أنذاك مع الشهيد الصدر، السيد محمد باقر الحكيم والشيخ برهان، والشهيد الثاني السيد محمّد محمّد صادق الصّدر، وشخصيتان أخريتان ربما السيد محمود الهاشمي (رئيس السلطة القضائية في إيران سابقاً) وربّما الفقيد العلّامة السّيد عزيز الحكيم، وكان اللّقاء قد تم في دار الشهيد الصّدر في حوالي السّاعة الرابعة عصراً وانتهى بعد ساعة من ذلك الوقت.

التفت الشهيد إلى طلّابه الّذين حوله منتظراً آراءهم في الأمر فلم يجبه أيّ من الجالسين، فاقترح زيد حيدر أن يرسل السيد الشهيد تلميذه الشهيد محمد باقر الحكيم وقد أختاره بالأسم[1].

أدرك الشهيد الصّدر بحسّه الدآخلي بأنّ هنالك فخّاً في المسألة تحاول السلطة به أن تورّط الحوزة والحركة الإسلامية في الأمر، لكي يسهل لها

---

(1) لما له من قدره كلامية وعلمية، وعمق في الفهم الحسيني، فهو الشّخصية التي يعرفها الحسينيون فهو يقرأ المقتل الحسيني في يوم عاشوراء، كما أنه الشخصية التي كانت تقود مواكب الجامعة في أواخر الستينيات، هذا بالإضافة إلى مؤهلّات كثيرة يتميّز بها السّيد الحكيم.

الكشف أولاً، ومن ثمّ ضرب الجميع بحركة خاطفة كان قد خُطط لها قبل هذا التاريخ.

ألحّ الحاضرون على الشهيد الصدر وبشكل لا يمكن التخلّص من طلبهم، ثم اتّصل من بغداد متكلم باسم رئيس الجمهورية، ويبدو إنّه رئيس الدّيوان راجياً الشهيد المساعدة في حلّ المعضلة الكبرى التي يعيشها العراق الآن.

عندها وجد الشهيد بأنّه لا مفرّ من أن يقدّم رأياً إيجابياً واحداً للتخلص من الورطة التي هم فيها، قال: بأنّه ربما يرسل السّيد الحكيم ناصحاً للناس بأن يقتصروا في خطاباتهم على الهتافات الحسينية، وهو من صلب التوجّه الحوزوي، وقال لهم: بأنّه يرحّب أيضاً بأن ترافقه شخصيّات مقربة من السّلطة مثل الكليدار أو بعض المعمّمين الآخرين الذين قرّبوا أنفسهم من حزب البعث[1].

توجّه السّيد الحكيم مباشرة إلى حيث تقف المسيرة، ووصلها في وقت صلاة المغرب أو بعدها بقليل، وجلس مباشرة مع القادة، وكان فيها كما ذكرت الأسماء السّابقة وهّاب، يوسف، جاسم، صادق، صاحب.. والبقية الباقية من القادة الكبار، وأخبرهم السيد الحكيم: بضرورة إعطاء الوجه المتحضّر للشعائر الحسينية، وأن تكون المسيرة عنواناً للمبدأ الحسيني الّذي استشهد أبو الأحرار من أجله، وأنّ هنالك ربّما من المبادئ ما يجب الالتزام بها واحترامها، وأنّ النجف يجب ان تكون دوماً قبلة المسلمين في خطها الدّيني والثّوري.

فقلت له (يوسف الأسدي): سيّدنا أنت ترى الناس بأمّ عينيك، وترى عمق المشكلة مع السّلطة التي بثّت عيونها في كلّ مكان تحاربنا منذ اليوم الأوّل، وانظر الرّصاص المنهمر علينا بين الفينة والأخرى... ثم شرحت

(1) وكان يبدو أن السبب في هذا الإصطحاب هو إظهار الأمر أمام الجماهير بأنّ هنالك صيغة فرض على السّيد الشّهيد من قبل الحكومة.

له كلّ ما جرى لنا خلال اليومين الماضيين، وكان لا يعلم بما حدث، فقال السيد الحكيم: عليكم التحلّي بالصّبر، وبالخلق العالي وأن تبتعدوا عن الهتافات المثيرة للآخرين.

فردّ عليه المرحوم صاحب أبو كلل قائلاً: ولكن ياسيد إن الحسين لا يعرف الظّلم، فكيف تريدنا أن نستكين لظلم هؤلاء المجرمين؟

وقال له جاسم الأيرواني: ياسيد أبو صادق رحم الله والديك أترى كيف يستهينون بنا...؟

ثم قال آخر (لم يذكر إسمه لي) وكان شديداً على السيد الحكيم وعلى الكليدار قائلاً: أنتم تأتون في وقت الأزمات ولا نراكم في أوقات المواجهة والتحدّي، ثمّ أشار إلى الكليدار وتكلّم بكلمات كانت قاسية عليه لحدّ ما...

وتكلم آخر بنفس الموضوع وعرض رأيه وهكذا، إلى أن قطعت النقاش باقتراح فقلت (الاسدي): يا سيد أبو صادق إنّ الجماهير كلّهم هنا نجفيون ويحترمونك، ويعرفون قيمتك، وقدرك في نفوسهم، فلو تفضّلت غداً صباحاً وقبل أن تشرق الشّمس، وأنت تقود المسيرة منذ بدايتها فإنّ الناس سوف تكفّ عن الهتافات المناوءة للسّلطة، فقيمتك أنت أكبر من قيمتنا نحن، ونحن لا نرغب أبداً في المواجهة ولو تساعدنا في قيادتك للمسيرة فستكون تلك فكرة عملية... استحسن السّيد الحكيم الفكرة[1] وقال لي بالحرف الواحد: بالتّأكيد سأكون غداً أنا في بداية مسيرتكم...

ثم غادرونا في حدود السّاعة التّاسعة أو العاشرة مساءاً على أمل أن يأتي صباحاً، ودّعته الجماهير بهتافات معادية للبعث وللسّلطة منها.

(1) كان السّيد الحكيم رحمه الله رجلاً يحمل في روحه معاني بعيدة في تجنّب المواجهة مع السّلطة آنذاك، وفي وقت هو من أشدّ الأوقات على مسيرة الطّائفة الشيعية وهو ما يتوجّب أن يكون هنالك حساب لكلّ خطوة من الخطوات.

(صدام كلّه للبكر ترى حسين منعوفه)

(لو قطّعوا أرجلنا واليدين)

(انتهى حديث الشهيد يوسف الأسدي)

وفي هذه الأثناء وبمجرّد مغادرة السّيد الحكيم الخان أخبرت المجموعة القيادية الحسينية بأنّ الهجوم قد يبدء في أيّة لحظة، لأنّهم يشعرون بأنّ هنالك مؤامرة تدبّرها السّلطة بعد مغادرة السّيد الحكيم، وهو أسلوب تستعلمه الأطراف المتحاربة غالباً لكسب الموقف قبل ساعات وقف إطلاق النّار.

تنادى الجميع كي يتّخذ كلّ موقعه من احتمال هجوم كاسح حيث كانت الدّعايات على أوجها تنتشر هنا وهنالك، منذرة بأنّ الحرس الجمهوري في طريقه إلى الخان، أو أنّ قوّات خاصّة ستزحف ليلاً وتعتقل الجميع وما إلى ذلك.

كان البعض من المشاركين في المسيرة قد صمّموا على الموت والمواجهة مهما كانت النتائج ومهما تلتها من تضحيات وكان أخي الشهيد السيد حامد ربّما أشدّهم عزماً، وكان معه كما أذكر وأعتذر عن ذكر ما لم اتذكره بعد هذه السنين العجاف[1].

وزع السيد حامد أخي الشهيد كلمة السّر على الأبطال ودار حول

(1) محمد هادي الاسدي، علي ومهدي عبد صلوات، سلام رجيب، تقي حموزي، محمد سعيد البلاغي، ومحمد جواد البلاغي، محمد سمبه، علي الجزائري، علي القبانجي، جودي، علي مسعود، وأخي السيد امين شبر، أولاد الحاج رزاق محي الدين قاسم ومنير، أولاد السيد محسن شبر نزار وهاشم، أولاد الحمامي، منصور وعلي وغيرهم .. كثيرون ممن لا أذكر اسماءهم ولا أعرف هل أن بعضهم ما زال حياً أو استشهد في مكان ما، لكنني أعرف أنّ البعض منهم استشهد مثل الشهيد سعد رجيب، والشهيد محمد سمبه، والشهيد محمد سعيد البلاغي، والشهيد عبّاس فخر الدين.

المسيرة بخيامها وألوفها المؤلفة وساندهم ورفع من معنوياتهم[1] وهكذا عاش الطرفان في لحظات الخطر والهجوم، وكان لساعات الليل القليلة المتبقية أن تحل الإشكال ما بين الطرفين طرف الثورة ويقف بمحاذاتها خيال الشهادة ونداء الحسين عليه السلام، وبالمقابل تقف القوة الرعناء قوة البعث والسلطة باسلحتها المدججة لتحسم أمر المسألة التي طالت وتغيرت على أثرها التركيبة الاجتماعية والتركيبة الفكرية للناس في العراق[2].

---

(1) بعدها شوهد جاسم الأيرواني يصعد إلى أعلى السّيارة الكبيرة المارسيدس ويتمشدق بعبوة مكتلمة والى جنبه نام شخص آخر كان ملاحقاً من قبل الأمن. وقد تمّ القاء القبض عليه فيما بعد وهو السيد طاهر ابن السّيد جبر الصّائغ، وهو يلفّ سيجارته ويستعدّ لمواجهة أخرى أشدّ من ملحمة التّطبير في العاشر من المحرّم ولمّا تلتئم جراحات السيف الّذي ضرب فيه رأسه. . . كان السّيد طاهر رجلاً قاسي القلب، شديد المراس، صعب الحديث إلّا بعبارات القسوة والشّدة، تربى في بيئة ومحيط خاص، أدرك في نفسه واقعاً خاصاً من التّعامل مع النّاس، وفي ذات الوقت كانت شخصيته فدائية بكلّ معنى الكلمة إن اقتربت الأمور في ما يخصّ الحسين وقضيته، يتحوّل عندها إلى وحش مفترس يخرج عن نطاق المتعارف من حدود الشجاعة. . . هذا الرّجل كان له أسلوبه الخاص بملاحقة البعثيين -كما أخبرني هو نفسه-، وخصوصاً المخابرات ورجال التّعذيب البعثي، كان يلبس العباءة السّميكة التي يلبسها النّاس في الشّتاء إذ كان السّيد طاهر يعتمر في حياته العملية طربوشاً أخضر يسمّى (عمامة خضراء) كما كان يفعل والده السيد جبرالصائغ، ولكنّه ترك بيت والده وبدء بالعيش منفرداً مع عائلته وأولاده بعد أن ضاق به ذرعاً من حماسه الكبير في الخط الحسيني، وعشق المواجهة في سبيل تلك القضية. . . كان هذا الرجل كما أخبرني وأشار لي إلى أسماء البعض من الذين كانوا ضحاياه وقال: بأنّه كان يتخفّى لهم ليلاً في أزقّة النّجف وعندما يواجههم يخرج الخنجر الطويل ويقطع أذنه فقط ويتركه هكذا لكي يتذكر سوء عمله في تعذيب الناس، كان السيد طاهر شريك جاسم الايرواني قد طرحا أنفسهما على قمة السيارة الكبيرة منتظرين إشارة الدّفاع عن التظاهرة في حالة الهجوم.

(2) إنّ التقارير السياسيّة كانت تقول إنّ الهجوم كان من المفترض أن يتمّ في تلك الّليلة وقد تحرّك فعلاً الّلواء المدرّع العاشر أو لواء حماية بغداد إلى المناطق المحيطة بكربلاء وخان النخيلة وثبّتت القوات المهاجمة قواعدها في عمق الصحراء وفي قاعدة قرب النجف، ولكن يبدو أنّ هنالك أكثر من خطأ حصل في الأمر ممّا أعاق الهجوم. البعض قال أنّ السّبب هو هطول أمطار غزيرة في تلك الليلة، والبعض الآخر قال أنّ السّلطة كانت تريد أن تضرب عصفورين بحجر وكانت تخطط لاعتقال السّيد الصّدر، ومنهم من كان يعتقد بأنّ هنالك خلافاً نشب بين عدنان خير الله وبين صدام حول رفض الهجوم.

وفي ساعات الصّباح الأولى وكما توقّع الحاج جاسم الأيرواني بدء الهجوم الأوّلي على المسيرة من قبل عناصر من المخابرات والجيش، ووصلوا إلى مشارف الدّرع الذي وضعه الحاج الأيرواني من السّيارات الكبيرة التي كانت تصطفّ جنباً إلى جنب، ولكن ومن خلال أول ضربة في بواكير شروق الشمس أطلقت ثلاث ضربات من السلاح المحمول على السيارة، فوقعت أوّل طلقة على الخيام المنصوبة في الخارج.

وفي الحال تحرك السّيد طاهر وجاسم الايرواني اللّذين كانا على سطح سيارات المارسيدس الواقفة متوجّهين نحو سيّارة الأمن التي بدأت بإطلاق الرصاص، فبدأى في إطلاق نار مستمرّ من سلاحهما فهربت السّيارات فلاحقتها سيّارة المارسيدس اللّوري وأوقفتها بعد أن رمتها من الخلف وأجبرتها على التّوقف فنزل منها ثلاثة عناصر أمن عرفهم السيد طاهر -و كان ملثّماً آنذاك- من أسوء النّاس فصفع كلا منهم على وجهه ثم انتزع سلاحهم وأمرهم أن يصعدوا معهم في السّيارة، ثم ربط أيديهم بالكوفيات والأشمغة التي كانت معهم.[(1)].

أعود الآن إلى رواية الشهيد يوسف الأسدي التي رواها لي ليقول: إنتظرنا السيد باقر الحكيم الذي كان من المفترض أن يصل الينا عند شروق الشمس كما اتّفقنا، وكنت أحاول بشتّى الطّرق أن أقنع السيل الهائج من المسيرة أن تقف إلى حين وصول السيد، وكانت وكلّما تأخّر الوقت اشتدت

(1) جيء بعناصر الأمن إلى المسيرة لكي يقتصوا منهم وكان الجميع منضبطاً بشكل لا مثيل له من المبادرة في الضّرب والهجوم، ولكن السيد الكبير وهاب الطالقاني صاح بالناس هؤلاء إخوتنا وهم مغرّر بهم إنهم شيعة منّا، فهل من المعقول أن يقتل الشيعي شيعياً...؟ ثم تقدّم السّيد طاهر إلى أحد رجال الأمن وكان إسمه جبار فقال له: جبار... وين رجولتك..؟ ياعار... تريد تتلاوى (تتشاجر) مع الحسين...؟ أما تعرف ياعار أنه ابن فاطمة ...؟ أما تستحي أما تخجل...؟ ثم استل خنجره من قرابه وتوجه إلى شاربه فقصه بالخنجر وأعطاه شعر الشارب في قطعة من الكلينكس وقال له استحي من أصلك يا مقطوع الاصل، ثم اخذوهم بحماية مجموعة من الناس ورموهم على الشارع... (عذرا على اللغة).

الشمس وتسارعت الأحداث وارتفعت الشعارات المناوئة للسّلطة، وتدافعت النّاس إلى الخروج من الخان، وهكذا تحرّكت السيارات الكبيرة الواقفة إلى جنب المسيرة خوفاً من الهجوم المرتقب ولكن السيد لم يصل، ونحن لا نعلم ما جرى.

وإذ نحن في حيرة من أمرنا، وإذا بالشّهيد (كامل ناجي مالو) دخل بسيارته من المنعطف الصحراوي حاملاً أخبار سيئة، إذ إنّ السّلطة قد اعتقلت السيد الحكيم والشّهيد السّيد محمد باقر الصدر وعدداً آخر من العلماء، واعتقلت الكثير من النجفيين، وهذا ما حدث في اللّيلة الماضية وبمجرّد رجوع السيد الحكيم ووصوله إلى النجف. . .

بيّتت السّلطة الأمر وبطريقة غاية في الجبن والخداع، وقال: بأنّ الطّرق كلّها مسدودة، ولن تمرّ سيّارة واحدة على نقاط السّيطرة دون تفتيش، والاعتقالات مستمرة في النجف على قدم وساق، وقد وصل إلى النّجف أكثر من ألفيّ عنصر أمني ومخابراتي. والكثير منهم من مخابرات الحزب، وليس من المخابرات العسكرية، وقد رفعت قوات الأمن لافتات علّقت في أسواق النجف تتوعّد المسيرة بالعقاب والانتقام، وأنّ قوّات الحرس الجمهوري في طريقهم إلى الخان[1].

وبمجرّد وصول هذه الأخبار وإذا بالجماهير قد هبّت وانطلقت الهتافات والشعارات السياسية المهاجمة للسلطة من كلّ أقسام التظاهرة، وهي متّجهة إلى كربلاء في المرحلة الأخيرة في الشّعيرة المقدّسة.

وبعد ساعة واحدة من انطلاق المسيرة وإذا بالطائرات المخترقة

---

(1) وقد اخترعت السّلطة مسرحية مفبركة غبية اتّهمت فيها سوريا التي كانت على نزاع معها وكانت إخراجات المسرحية تقول بأنّ النّظام السّوري كان قد أرسل شخصاً اسمه محمد على نعناع لتفجير الصحن الحسيني ثم قتل النّاس هنالك وأنّ هؤلاء على تنسيق مع المسيرة الحسينية، وما إلى ذلك من مسرحية في غاية الغباء لم تنطلي إلّا على منفّذيها، ثم قامت السّلطة باختراع الشّخص الموهوم واخرجته على التلفزيون معترفاً بما ينوي القيام به بطريقة غاية في الخبث.

لحاجزالصّوت تهاجم المتظاهرين من كلّ جانب في الوقت الذي بدأت الدبابات البعثية تتوجه من جهة الشّرق والغرب، بهدف احكام الطوق من كل الجهات على المتظاهرين وتبدا بإطلاق الرصاص كيفما تشاء.

بدأت الطّائرات بمهاجمة المتظاهرين بشراسة منقطعة النّظير. والغبار الرّملي الكثيف يغطّي السّماء، فانحجبت الرؤيا عن الجميع والأصوات تتعالى من كل جوانب المعركة، وكان صراخ النّساء والأطفال يصدح في تلك الصّحراء الواسعة، إذ إنّ المتظاهرين لم يتصوروا أن تشترك الطّائرات في الهجوم على أناس عُزّل جاء الكثيرون منهم لتأدية مراسيم الزيارة كتقاليد تعلّموها منذ فترة طويلة وهم لا يعلمون عن سبب الطائرات وهجومها. . . تفرّقت المسيرة هاربة إلى الجانب الشّرقي في طريق مملوء بالكثبان الرّملية الصعبة.

أطلقت الطّائرات غازاً أبيضاً كما رأى البعض، ولم يعرف فيما إذا كان ذلك غازاً ساماً أم لا، هاجم الجيش بدباباته المتظاهرين وقبض على كلّ من صادفه في طريقه ثمّ رماهم في سيارات (Zeel) عسكرية كبيرة، أمتلأت السيارات العسكرية بالنّاس والشّباب وتم رميهم في سجون كربلاء وفي كل الأبنية والمؤسسات الحكومية كمركز المحافظة والدوائر الحكومية، أمّا الّذين لم يتمكّن رجال الأمن من اعتقالهم كانوا يركضون في كلّ مكان وهم يتصايحون وينادون بذكر الحسين عليه السلام، ويردّدون نفس الشّعار الذي بدأوه من النّجف (لو قطّعوا أرجلنا. . .).

هرب الشباب القادر على الهرب إلى الجهة الشرقية باتجاه طريق (طويريج) وهي مسافة قد يصل طولها إلى أكثر ربما من 20 كم وتجمّعوا في البساتين التي كانت مطلة على الشارع العام، فخرج إليهم البعض من شيوخ العشائر المتعاونين مع النظام البعثي[1].

---

(1) واليوم وفي زماننا الحالي وبعد التغيير في 2003 وجدتهم منافقين وكأنّهم هم من صنع الثورة والمواجهة في عام 1977 وقد شاءت الصّدف وانا في منصبي كمستشار =

خرج أولئك إلى الثّوار لكي يلقوا القبض عليهم وتسليمهم إلى القوّات الأمنية، ولكنّ الشّباب تمكّنوا من الإفلات والعبور من منطقة إلى أخرى، حتّى تجمّعوا ثانية على أطراف منطقة (شطّ ملة) القريب من كربلاء ثم قاموا بتجميع تظاهرة كبيرة اجتازت الشّارع الرئيس شارع العبّاس، ودخلوا إلى ضريح العّباس عليه السلام، ثمّ إلى ضريح الحسين عليه السلام.

وكانت القوات الأمنية قد أعدّت العدّة لاعتقالهم في الصّحن الشّريف بعد غلق الأبواب، ولكنّهم لم يتمكّنوا من ذلك بعد أن قتل الثّوار عنصرين من عناصر الأمن، ثم بدأوا بالتّفرقة في زحام كربلاء وأزقة الأسواق، فاعتقلت القوات الامنية أعداداً كبيرة منهم وتمكّن القسم القليل من الهرب والاختباء.

خرجنا الصباح باكراً إلى شارع كربلاء القريب من دارنا لمعرفة ما يحصل، فوجدنا هنالك عناصر من الشّرطة تقف في كلّ فرع من الفروع التي تدخل منه السّيارات إلى الشّارع العام، إقتربنا من عناصر الأمن والمخابرات وهي تهدّدنا بالاعتقال إن لم نبتعد إلى الخلف، لم نستجب إلى تحذيراتهم فقرروا اعتقالنا وكنت أنا لا زلت في ملابس البيت (الدشداشة) خرجت مرعوباً من البيت لمعرفة الأمر ورافقني أخواي فوقفت أنتظر ما سينجلي عنه الموقف الذي بدأ يتّضح لنا، ولكن بشكّ بسيط[1].

في هذه الأثناء لم نعلم ما حدث للتّظاهرة، ولم نعلم بأنّها هوجمت بالطائرات وأنّ الحرس الجمهوري نزل إلى ساحة المواجهة، فاتّصلت

= لوزارة الصّحة أن ألتقي الكثير منهم بموجب عملي، واليوم وهم من المقرّبين من السّلطات التّنفيذيّة ومن الحكومة وقد نزعوا ثوبهم البعثي السابق ولبسوا ثوب الدين.

(1) وبينما نحن كذلك هجم عليّ شرطيان لاعتقالي أنا شخصياً، فركض خلفي وأنا أركض أمامه هارباً وكان على كتفيّ معطف شتويّ فأمسك الشّرطي بالمعطف فنزعته عن كتفيّ ولم يتمكّن من الوصول لي فطاردني فدخلت أولّ بيت في الشارع وهو بيت السيد "ابراهيم آل ياسين" وقررت المواجهة مع المجموعة، ولكن أخويّ منعاني وقالا بأنّ المجموعة مستعدّة لفعل كلّ ما هو سيّء وهي تملك أسلحة فليس من الصحيح أن نقاوم الآن فانسحبت من الموقف، وتركت معطفي ليسبقني إلى السجن!!

ببعض الّاصدقاء في النّجف كي نلتحق بالمسيرة لمعرفة الأخبار ومساعدتهم في أي أمر يحتاجونه.

انتقلت إلى وسط المدينة فوجدتها وقد إمتلات باللّافتات التي تتوعّد وتهدّد المسيرة بالويل والثّبور، وأنّ السّلطة سوف لن تتهاون مع الأعداء.

ذهبت مباشرة إلى الكراج الذي ينقل الرّكاب إلى كربلاء وكان في نيتي الوصول إليها ثمّ حشد وجمع العاملين هنالك من الحركة الإسلامية للإستعداد للأمر، والابتداء بعمل مضاد ضدّ سلطة البعث بعد التبين من وضع المسيرة التي سمعنا فقط بأنّها هوجمت بالطّائرات.

ركبت السّيارة مع آخرين متوجّهين إلى كربلاء وبعد عبورنا خان النصّ التفتّ وإذا أنا بطابور طويل من الدبابات على يمين ويسار الشارع، والبوليس السري يقف في المنتصف ويفتش المسافرين في السيارات ويعتقل الشباب، فأوقفوا السيارة وأنزلوني منها، وأرسلوا بي إلى المعتقل في كربلاء ثم إلى السّجن العسكري رقم واحد في بغداد، وهذا له قصة أخرى لا أعتقد بأنّ هذا الكتاب هو المكان الذي يجب أن نفصّل فيه الحديث في الوقت الذي نتكلم هنا عن شخصيّة أخي السّيد حامد شبر ودوره في إذكاء الرّوح الإسلامية الثورية في العراق عموماً والنّجف خصوصاً.

بعد هذه النقطة وأنا في قعر السجون لا أدري أي واحد من اخوتي معتقل، وهل هم معتقلون معي في زنزانة أخرى قريبة مني في الوقت الذي وصل عدد المعتقلين ربما إلى أكثر من عشرة آلاف سجين، وهنالك كان مجلسي إلى جنب الشّهيد الكبير والبطل يوسف الأسدي الذي تعرفت عليه هنالك مع أنّني لا أكاد أعرفه، وقد اطّلعت في مسيرة السّجن على الشّهيد الكبير واقتربت منه بصورة كبيرة بحيث اكتسبت منه ومن صموده الشيء الكثير. أثّرت على حياتي وعلى فهمي لواقع الشّجاعة والتّضحية ولهذا ربما لها محل آخر في الرواية.

وقد كانت عناصر المخابرات العراقية تنادي بأسماء لا يعرفونهم إن

كانوا معتقلين أم لا، لأنّهم لم يتمكنوا وخلال يومين من جمع أسماء السجناء بأجمعهم فاخترعوا طريقة المناداة على الأسماء ثم التحقيق معهم وكان من جملة الأسماء التي نودي عليها اسما أخويّ السيد حامد والسيد أمين وكان المطلوب إلقاء القبض عليهما.



السّجن الأوّل



كان أخي الشّهيد السّيد حامد إنساناً من النّوع الذي تشعر بالمودّة عند مجالسته. فحديثه لا تشوبه الكلمات الجوفاء، أو الاستغابة، أو الانتقاد، أو الذمّ للآخرين، وإنّما كان مجلسه ومحادثته سلسة، ومليئة بالعبر والتّجارب والدّقة في التعابير، وقد كان هذا ديدنه منذ أن دخل مرحلة التّكليف بحدود الخامسة عشرة، حتّى قبل ذلك العمر، فقد نضج عوده بشكل كبير. وعقله الاجتماعي قد وصل إلى مرحلة يسبق بها أقرانه من نفس العمر، فقد فتح عينيه على طريق والده الشّهيد يصطحبه إلى المجالس الحسينية التي كان يقيمها المجتمع النّجفي في أطراف النجف، وفي البيوتات الخاصّة المعروفة لدى أهل النجف فتأثّر بالمفاهيم الحسينية التضحوية وتشرّب من حبّ آل البيت عليهم السلام، وكان في حياته إنساناً هادئاً معطاءاً لا تجد منه إلّا عطاء الخير.

وكان محبوباً من قبل الجميع، في البيت، وخارجه، مساعداً للجميع، حنوناً على أخواته وإخوانه الصّغار فضلاً عن طاعته لوالده الشهيد الذي كان أيضاً يبادله الرأي والمودة، ولم تكن تثير في نفوسنا نحن إخوته أيّ نوع من الغيرة أو غيرها، لانّنا كنّا متفقين على أنّه جدير بمحبّة الجميع.

كان أوّل ما فتح عينيه على الحياة وهو في عمر الخامسة عشرة إعتقل أول إخوته في سنة 1968 وهو الشهيد السيد زيد مواليد 1952 وكان أكبر من السيّد حامد وقد استشهد بظروف غامضة أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وقد تمّ اعتقال أخي الشهيد السيد زيد[1] وكان أنذاك في الصّف الرّابع أو

(1) تخرّج الشّهيد زيد من الجامعة المستنصرية وعمل في دوائر الزراعة في محافظة =

الخامس الإعدادي في السنة الأولى من وصول البعث إلى السلطة.

كان هذا الاعتقال هو الأول في داخل العائلة، وقد أثّرت تلك الحادثة على وضع البيت برمّته، فقد تم تعذيب الشهيد تعذيباً شديداً عندما كان في الثامنة عشرة من عمره فخرج وهو في وضع نفسي مختلف عمّا كان عليه، في الوقت الذي لم يكن المجتمع النجفي وحتى المجتمع العراقي يدرك تأثير التّعذيب والسّجن على الإنسان وعلى سايكولوجيته[1].

= ديالى. وقد استدعاه النّظام للإلتحاق بالخدمة العسكرية أثناء الحرب مع إيران، وهنالك اختفى أثره، ويقال أنّه ما قبل اختفائه كان له مجلس من المناقشة مع أحد أوامر القواطع العسكريّة في جدوى الحرب التي تستعر ما بين البلدين. وقد هدّده ذلك العسكري بأنه سيرفع أمره إلى المخابرات العسكرية ولكنّ السّيد زيد قال له بأنّه لن يخشى أكثر مما هو حاصل الآن من سوء أحوال وظروف، وهكذا وبعد شهر من تلك المحاورة غاب أمر السيد زيد عن الوحدة العسكرية ولم يعرف عنه أي خبر فيما بعد.

(1) وهو أمر يجب ربما على السلطة التنفيذية في العراق المبادرة له الآن، واستحداث دائرة خاصّة طبّية ونفسيّة لمعاينة ومراجعة كلّ الذين تعرّضوا للتّعذيب والسّجون في النّظام الصدامي. وهو ما قامت وتقوم به كلّ الدّول التي خرجت من أجواء الديكتاتورية إلى أجواء الإنفتاح كما هو العراق الآن، إنّني وخلال أكثر من نصف قرن أتابع الواقع الإسلامي العراقي فيما يخصّ الصّراع والسّجون مع النّظام الديكتاتوري، ثمّ دخلت السّجون أكثر من مرّة وفي أكثر من قطر وخصوصاً عندما دخلت السجون الأمريكية التي علّمتني الكثير مما كنت افتقدته في حياتي من إكتشاف قوّة النّفس، واكتشاف إنعكاسات المبادئ على حياة النّفس والإنسان من الناحية الطّبية والناحية النفسيّة، فوجدت أنّ كلّ الّذين -أقول كلّ- دخلوا السّجون الصدامية في العراق وتعرّضوا إلى التّعذيب وجدت أنّ هنالك جرحاً نفسياً (مرضاً) قد علق في شخصياتهم، وهذا المرض انعكس على سلوكياتهم فيما بعد خروجهم من السّجن وتحوّلت سلوكياتهم إلى إنعكاس سلبي لما داخل نفوسهم، فلم يتمكّنوا من خدمة الأهداف الّتي من أجلها دخلوا السجون، وقد رأيت الكثيرين منهم (من الذين أعرفهم شخصياً) يحملون التوجّه العدائي (المرضي) تجاه الآخرين إبن، زوجة، أخ، صديق، مجتمع وهكذا في وضع أفقده بريقه الإيماني الذي دخل السجن بسببه، ووجدت البعض منهم قد انزوى بشكل لا يتلائم مع مفاهيم الإنسان المبدئي، بل إنّ الكثير منهم أصابتهم الحالات المرضية كاليأس من الحياة ومن التغيير ومن المواصلة في العطاء والعمل والإستمرار على نفس المنهج الذي بدأه في عملية التغيير الّتي كان يتبعها، ولو قدّر لي أن أتمكّن من الكتابة في ذلك لكتبت كتاباً كبيراً عن تلك الحالات التي واجهتها في حياتي =

خرج أخي الشهيد السيد زيد من السّجن محطّماً نفسياً ذا نظرات مختلفة عما كان يفكر به سابقاً، فيه غرابة في أطوار التّعامل مع الآخرين، وكأنّه يريد أن ينسى من كان هو، وكيف كان يتصرّف، محاولاً نسيان كلّ ما كان يحيط به في السّابق المكان والزّمان والإنسان والأصدقاء والملابس وكلّ ما من شأنه أن يذكّره بماضيه المؤلم. وهكذا انطوى أخي الشّهيد على نفسه بشكل مؤلم في الوقت الذي لم أكن أنا أخاه الكبير أن أصرّح لا له ولا لأبي بعمق المشكلة وفي علاجها، وإنّما حاولت بشكل فيه الكثير من السّرية أن اتناول هذا الجانب بصورة أخرى، مع أنّني أنذاك ولحين مغادرتي العراق في سنة 1979 لم أكن أملك من المعلومات الخاصّة بهذا

= وفي مسيرة عملي الإسلامي في الشّرق أو في الغرب، والشيء الملفت للنّظر أنّ آثار ذلك الجرح النّفسي (المرض) تظهر بصورة أكثر وضوحاً عندما يتغير مكان ذلك السجين مثلاً من العراق إلى إيران أو إلى الغرب أو إلى منطقة اخرى. وذلك لأنّ التغيير في المكان يترك له حرية التّصرف التلقائي في السلوك وهو ما يظهر عمق جرحه النّفسي في تصرفاته مع من حوله، ولذلك فإنّني دوماً أقول لسياسيّينا الذين هم الآن يمسكون السّلطة التّنفيذية بأن يكونوا على حذر من إعطاء أيّ مسؤولية كبيرة إلى سجين سابق تعرّض إلى التّعذيب الصدّامي، لا ظلماً له وإنّما شفقة عليه، لأنّه بالتّالي سيفشل في أداء تلك المهمة بسبب عمق الجروح النفسيّة التي تركتها أيّام السّجن الصدّامي وأحداث التّعذيب القاسية اللاإنسانسة التي لم يعالجها أو يستشير ايّ أخصّائي أو طبيب نفسي لمعالجتها فالمتخصّص (Psychiatris) له القدرة على معالجة هذا المرض المتأصّل الذي أصاب هذا المجاهد ظلماً وعدواناً، فقد وجدت وأنا في العقد الثاني بعد الألفية الثّالثة، وبعد التغيير الذي حدث في العراق، وبعد أن رجع المسجونون والمعتقلون الذين تعرّضوا للتّعذيب إلى العراق وفي أجواء الإنفتاح التي نعيشها الآن، وجدت أنّ الّذين تعرّضوا للتّعذيب الصدامي فشلوا في أداء مهماتهم الإدارية والعلمية والاجتماعية (اقول ذلك ليس على سببيل العموم بل على سبيل من التقيت بهم وعرفتهم) (للمزيد عن الموضوع يفضل مراجعة كتب كثيرة منها كتب الاستاذ عبد علي الجسماني مثل كتاب (البحث عن الذات)، وأطروحة الماجستير د. حيدر الحبيب المسماة (دراسة تحليلية للشخصية الإرهابية في ضوء نظرية التحليل النفسي)

Van Ommeren, et, al , The relationship between somatic and PTSD symptoms among Bhutanese refugee torture survivors: Examination of comorbidity with anxiety and depression.

الجانب من التغيير النّفسي المتأتّي من جرّاء التّعذيب الشيء الكثير، ولم أكن أدرك عمق تأثير التّعذيب على الإنسان وعلى عقله ونظرته إلى نفسه ومدى احترامها، إلّا بعد أن انتقلت إلى كندا في منتصف الثمانينيات[1]

تركنا أخي الشهيد السّيد زيد ولجأ إلى بغداد بعد أن التحق بالجامعة المستنصرية ووجد نفسه في أجواء جديدة وفي وضع يختلف كلّياً عن وضع البيت والعائلة، وقد حاول أبي الشهيد معرفة الأسباب، ولكنّ الأمور تحتاج إلى تشخيص أخصّائي وهو ما لم ندركه في العراق أنذاك، وبقي الشّهيد إلى أن حانت ساعة دعوة ربّه له في عملية استشهاده فترك زوجة

(1) كنت من ضمن المجموعة التي تعتني بالمهاجرين واللّاجئين الذين يصلون إلى كندا من النّاحية الصحية، وكانت كندا قد وضعت في الجانب الصحي إختصاصات كثيرة منها الجانب النفسي. وقد زوّدتهم بأخصّائيين في معالجة كل الذين يصلون إلى كندا من الدول التي تسيطر عليها الأنظمة الديكتاتورية، التي تأمل كندا أن تؤهّلهم لكي يكونوا شخصيات صالحة في خدمة المجتمع الكندي للعمل والعطاء، هكذا كان على الحكومة الكندية أن تخصّص للأقطار الّتي يصل مواطنوها إلى كندا في تعريضهم إلى العلاج النّفسي، في معهد خاص أسموه معهد علاج الذين تعرّضوا إلى التّعذيب، وكانت الأقطار المشمولة في علاج مواطنيها هم العراق على رأس القائمة، والأقطار العربية بأجمعها، سريلانكا، كل أوروبا الشّرقية، معظم دول أمريكاالجنوبية، معظم الدّول الآسيوية وذلك حسب تصنيف منظّمة العفو الدّولية (Amnesty International) لشدة وقساوة التّعذيب الذي يتعرض لها المواطن في تلك البلدان، وبعد العمل مع هذا المعهد ظهرت أمامي معلومات في غاية الغرابة، ولو كان القانون الطّبي يسمح لي بروايتها لكتبت في ذلك كتاباً شيقاً مهماً لكلّ من دخل السّجن في العراق، ولكنّ الأخلاق الطّبية تمنع إشاعة أيّ مرض عن أيّ شخص للآخرين، لأنّها معلومات تخصّ المريض ذاته، في نفس الوقت لم تقتصر أعمالي في كندا على الّذين تعرّضوا للتّعذيب في مختلف أقطار العالم، بل كان ذلك جزءاً من واجبي في رعاية الجالية العراقية من النّاحية القانونية أمام الدّولة، كان لي أكثر من موقف مع أولئك الّذين تعرّضوا للسّجن والتّعذيب الصّدّامي في قساوة تعاملهم مع عوائلهم ومع أولادهم وجيرانهم، ودفعتهم إلى المواجهات القضائية وكان يجب عليّ أن أتدخّل لمساعدة أولئك الضّحايا من العراقيين الّذين كانوا قد رفضوا فكرة العلاج النّفسي على يد الأخصّائيين النّفسيين ورأوا في ذلك ذمّاً ونقصاً في شخصياتهم ومستواهم العلمي والاجتماعي، والذي انعكس بالتالي إلى المواجهة مع القضاء. وهي قضية متأخرة بالنسبة لهم في التّخلص منها.

وجنيناً في بطنها، والتحق بالباري عزّوجلّ يشكو إليه ما عاناه في السّجون الصّدامية اللاإنسانية.

وكنت وفي اليوم الذي أطلق سراح أخي زيد قد ذهبنا إلى مديرية أمن النّجف للحديث مع مدير الأمن والتّوسط لديه، لإطلاق سراحه بعد اعتقاله بتهمة قيادة مظاهرة خرجت من إعدادية النجف التي كانت معقل الأفكار الدّينية أنذاك إلى أسواق النجف، في ليلة العاشر من المحرم تردّد شعارات المطالبة بالعدالة والحرية للشّعب، والتي على أثرها اعتقلت مجموعة قليلة منهم الشهيد عبد الأمير مشكور الشّخصية الكبيرة في إيمانها وقدرتها على المواجهة[1].

وقد تم إطلاق سراحهما معاً بعد أشهر من الاعتقال وبعد أن لاقوا أشدّ أنواع التّعذيب كما رواها لي هو شخصياً وفي ساعات إطلاق سراحه، وعندما وصلنا إلى البيت فكان يقول لابي ويعاتبه: أبي لماذا تركتني أعاني في السجن. . .؟ ولماذا لم تأتِ لإطلاق سراحي. . .؟ لماذا لم تتوسّط لي هل نسيتني وأنا ابنك. . .؟ قال له أبي: يا ولدي إنّني ومنذ اللّحظة الأولى لاعتقالك لم أنفك في الانتقال من هذا إلى ذاك، أوسّط هذا وأرجو ذاك، وكنت يوميّا أذهب لرؤية مدير الأمن وكان يقول لي أنّ الأمر يتطلّب بعض الأيّام وسنطلق سراحه، وقال بأنك بحالة جيدة!، قال أخي زيد إنّهم يوميّاً يأتون، ويضربوننا بقساوة لا توصف وهم يقولون لي أليس لديك أهل، وأب، وأخ، لكي يأتوا ويأخذوك. . .؟ هل لك أن تتصّل بهم . . .؟ وقد

(1) هو الشهيد عبد الأمير مشكور ابن العلّامة الشيخ نوري ابن العلّامة المجتهد الشيخ حسين مشكور، الذي كان ذا شخصية مميزة في قوّة الإيمان وعمق التقوى، وسعة العلم والإطّلاع، فضلاً عن التّحلّي بالصّفات النّادرة التي تجدها في الإنسان، وقد اعتقل الشهيد في نهاية السّبعينيات وعذّب بطريقة غاية في القسوة إلى أن أسلم روحه بأقلّ من ساعتين، وقد سمعنا أنّهم استعملوا المناشير الكهربائية وغيرها خلال تعذيبه، وقد سُلّم جثمانه إلى أخيه الأكبر د. محمد حسن الذي كان يعمل طبيباً للأسنان في الصّليخ. ولم يصدّق ما رأته عيناه عند تسليم جثمانه الطّاهر.

اتصلنا بهم ولكنهم لم يأتوا أبداً ونحن نريد أن نطلق سراحك، ولكن أهلك ليسوا على إستعداد للقدوم إلى هنا، هل لديك الوسيلة للإتّصال بهم. . . ؟

إنه أسلوب متفرد في الخبث والمكر، غايته تحطيم شخصية هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثّماني عشرة سنة، والذي يعيش في بيئة هادئة، بيئة العلم والكرامة، وهو يستمع إلى أرذل الناس الذي يشككه في عمق علاقته بأبيه وعائلته ومجتمعه.



الطالقاني رمز التركيبة النجفية



وقد كان الشّهيد الكبير السيد وهاب الطالقاني (ت 1977) معتقلاً في نفس السّجن الذي كان السّيد زيد معتقلاً فيه، إذ أنّ حزب البعث ومنذ أن وصل إلى السّلطة لم يتوان في اعتقال الشهيد السّيد وهاب في كلّ مناسبة من المناسبات الّتي يقاوم المجتمع دكتاتورية السّلطة.

فكان المعتقل بالنسبة له حدثاً عادياً، وكان التّعذيب أمراً تحوّل إلى ممارسة عادية، ألفها في كلّ اعتقالاته، وفي فترات السّبعينيات وبعد إعدام الشّهداء الخمسة، كان البعث قد قرّر تصفية الرّموز الحسينية التي تقود فكر الثّورة والانتفاضة، وكان السيد وهاب الطالقاني الشّخصية الملهمة وهي العنوان الأوّل، وكان على السّلطة أن تعتقلة أولاً وتصفّيه ثانياً، فقد كانت تبحث عن انتمائه مع الحركة الإسلامية الحزبية، في الوقت الذي لم ينتم السّيد وهاب إلى أيّ حركة من الحركات السياسية، وإنّما كان حسينياً إلى النّخاع، كان دمه وفكره وشعاره حسينياً. وكلّ ما فيه هو للحسين.

وأذكر أنّه زار يوماً والدي الشهيد في المدرسة الشبّرية طالباً منه إحياء مجلس في دار أحد الأخوة الحسينيين، وقد اعتذر أنذاك والدي عن تلبية طلبه بسبب تعقّد الظرف الأمني في النجف، والخوف من أن تستعر المدينة ثانية، وتعمّ الاعتقالات، ولذلك كان رأيه أن يخفّف والدي مجالس الخطابة، حتى يعطي للشباب الحسيني الفرصة للملمة صفوفهم، ولكنّ السّيد وهاب كان يرى غير ذلك، وكان والدي لا يرد للسيد وهاب أمراً فيما يتعلّق بهذا الموضوع، لأنّه شخصيّة غاية في الإيمان والتّقوى والورع والعقل.

فجاء إلى والدي وكنت أنذاك عنده في المدرسة الشبّرية وكان في

المجلس مصادفة مجموعة من الخليجيين حضروا لزيارته، وجاء السيد وهاب حاسر الراس أصلع ضخم الجثه ذو لحية تأخذ معظم محيّاه، يلبس دشداشة عادية، ولا يظهر عليه صفة الصّلابة واتّساع الفكر، وإنّما يعتقد الرائي ببساطته، وسذاجته[1].

ومع الأسف فانني لم تتح لي الفرصة في مصاحبة هؤلاء، بينما كان الخطّ الحسيني خطّاً شعبيّاً فطريّاً من عوام الناس وبسطائه، ومن المستويات المختلفة، إذ أنّنا كنّا نرى في المثقّف الأكاديمي الشّخصية الّتي يجب عليها أن تقود المسيرة الفكرية للمجتمع، وهو أمر تعوّدنا عليه ونشأنا على مفاهيمه، وهو من الأخطاء الكبيرة التي ندفع اليوم استحقاقاتها.

ينقل لي أخي الشهيد السّيد زيد بأنّ المخابرات العراقيّة كانت قد جزعت جزعا كبيراً في مواجهة شخصية السّيد وهاب، الذي كان يملأ

(1) جلس وبدأ بالحديث ووالدي يعتذرعن إحياء المجلس، وكان سيد وهاب يناقش والدي بشكل هادئ ولكن بأسلوب مفحم أيضاً، وكان الضيوف يسمعون حوار الطّرفين، وفي خضمّ جولات الحوار لم يحتمل أحد الضّيوف أن يبقى على سكوته في إعجابه بشخصية السيد وهاب وعمق إلمامه بالشّعر والأدب والنّكتة والتّوسّع في مواضيع تأريخ الإمام الحسين عليه السلام والنجف، إلّا أن صاح بجزع ممّا أربكنا كلّنا، صاح بالسّيد وهاب الطالقاني متسائلاً: ألا تخبرني من أنت. . .؟ ومن أية جامعة تخرّجت. . .؟، إلتفت إليه أبي ليجيبه، ولكنّ السيد وهاب أخذ يد والدي إشارة بأنّه سوف يردّ على الضّيف، فقال له: إنّني خريج جامعة الحسين عليه السلام، بكى أبي كما أتذكر، وبكى الجالسون بأجمعهم ولم يكن أمام الضّيف إلّا أن قام من مجلسه يريد تقبيل يد السيد وهاب، ولكنّ أبي منعه، وقال له هذا هو حبّ الحسين عليه السلام، فبكى الضيف ثانية، ثم أشار إلى السّيد وهاب قائلاً إعقدوا المجلس فإنّني سأكون هناك، قبّل السّيد وهاب يد والدي وخرج، بينما ارتسم الذّهول على وجوهنا كلّنا، ونحن لا ندري كيف نتعامل مع موقف مبدأي كما رأيناه، فقد كنت أعرف السيد وهاب والتقيه في محل للصّياغة كان يعمل به، يملكه السّيد الوجيه جابر الصّائغ السّعبري، الّذي كان يقع في منتصف السّوق الكبير، وكنت أراه في زيارتي له مع والدي إنساناً هادئاً ومهذباً، هذه الشّخصية التي أتكلّم عنها هي إحدى مفاخر النّجف، وما أنتجته وهم كُثرٌ، ويحقّ لكلّ نجفيّ أن يعتزّ بانتمائه إلى المدينة التي احتضنت السيد وهاب الطالقاني، بل يجّب على مؤلفينا أن يدرسوا عمق هذه الشّخصية المجاهدة.

السّجن سروراً في نكاته وكلامه الجميل، ومرحه مع الكلّ، حتى مع الجلاوزة، وكان لا يشكو أبداً، ولا يجزع من التّعذيب بل كان قوي الجسم، والإيمان، والمعرفة، وكان على اطّلاع واسع في أمور العلم والتاريخ، وقد حاولت المخابرات إستمالته للتّعاون معها، وأغروه بالأموال والمنصب، ولكنّه كان يستهزء بهم بكلمات جارحة يعجزون أمامها عن الرّد إلّا بالتّعذيب، وكان عند ما يعذبونه لا يردّ عليهم بالويل والثبور، والاستغاثة، بل كان يضحك ويبتسم مع نكات مستمرة وأبيات من الشعر أحياناً.

وقد قررت يوماً المخابرات وبعد محاولات مستمرة في كسر شوكة بأسه، وأن تنتقم منه بشكل خسيس وذلك من خلال طريقة ما يشبه الاعتداء الجنسي بطريقة مشينة ليس من اللائق ذكرها هنا[1].

وقد أدرك السيد وهاب خبث ودناءة اسلوبهم الذي يريدون أن يستعلموه معه، فحوّل نفسه إلى شخص مخبول، مجنون تماماً أخذ يضرب رأسه بالحائط ويقفز في الهواء ويصيح صيحات المجانين بحيث أنّ الدماء غطّت المكان.

وينقل أخي السيد زيد: بأنني فعلاً شعرت بأنّ السيد وهاب أصابه الجنون، وإنّه ربما صار مجنوناً، وخفت عليه من ذلك، وعندما رأى عناصر المخابرات سلوك السيد وهاب قالوا بأن الرجل قد جنّ وهذا ما نريده، فتركوه وقال أحدهم للآخر أن السّيد قد تمشمش[2] وقد أصابه الجنون بالتأكيد.

---

(1) ادخال قناني المشروبات الغازية كان شيئاً معروفاً في معظم السّجون وهو أن يجلس السّجين على القنينة ويدخلها بطريقة كما هي وإلّا فإنّ الخيار الآخر هو كسر الرأس وإدخالها. وقد نقل لي أكثر من شاهد على تلك العملية ومنهم الحجّة الشهيد العلّامة السّيد محمد تقي الجلالي رحمه الله وكان هذا النّوع من التعذيب قد استعمل في السجون الأوروبية في العصور الوسطى، عندما كانت تُحكم الدول من قبل الكنيسة، راجع كتاب صلاح نصر (الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد).

(2) مصطلح شعبي يقال لمن يصاب بتخلف العقل.

ويستمر أخي الشهيد زيد إنه وبمجرد أن غادر المجرمون القاعة التي كنا فيها وقد اصابنا الهلع من وضع السيد وهاب، وإذا به قد التفت إلينا بحركة رجولية رائعة وهو يقول لنا بإسلوبه المعتاد: هل غادروا ..هل غادروا . . . تعجّبنا من شخصية هذا الإنسان الذي لم نتمكّن يومها من فهم قدراته العقلية والنّفسية من أن ندرك بوجود شخصية كهذه الشخصية في العالم.

عايش أخي السيد حامد ظروف اعتقال أخي الشهيد السيد زيد، وكان دائماً يشعر بالألم والحسرة على ما أصاب بيتنا من مصائب من جرّاء اعتقال أخيه الأكبر، وقد قررّ بعدها أن يكون الشخصية التي تعوّض ما تمّ تحطيمه على يد البعث وعصابته، فاتّبع طريق الهدوء في التّوجيه وفي العمل والدّعوة إلى طريق التّغيير في كيان المجتمع، وكانت تلك السنين بين عام 1970 وحتى عام 1974 أعواماً ملؤها العطاء في التّربية والدّراسة والبناء، فقد بدء بالدّراسة في الحوزة العلمية دراسة خاصة في العطل ونهاية السنة، وقد تتلمذ على يد أساتذة عمالقة كبار أمثال الشهيد الشيخ حسين معن، وقد تأثّر الشهيد السيد حامد بأسلوبه وقدراته وعلمه، وصار يقلّد شخصيته في العمل الدّعواتي وفي العمل الفكري بالرغم من آلامه وأوجاعه[1].

وتحلّ أسوأ النّكبات في تاريخ الواقع الإسلامي العراقي، عندما قرّرت السّلطة الغاشمة في العراق مواجهة التيار الاسلامي بكل ثقلها وبشكل علني. بعد ما اكتسبت السلطة الواقع العالمي في تأييدها من خلال

(1) الشيخ حسين معن قائد دعوتي، وشخصية إسلامية عصامية قلّ نظيرها، فقد قاد خطوط الدّعوة الإسلامية في أحرج الّلحظات ما بعد عام 1979 وقد ألقي القبض عليه بالصّدفة ولم تكن المخابرات العراقية تعلم بأنّه هو حسين معن الّتي تبحث عنه منذ أمد طويل، وبقي هكذا لفترة طويلة إلى أن اكتشفوه في أنّه هو حسين معن مسؤول خطوط العمل الدعوتي في العراق، فما كان أمام البعثيين إلّا ان بحثوا في قدرات هذه الشخصية الكبرى، ويقال بأنّ رأس النظام أو غيره قد التقى به لمعرفة أية شخصية هذه، وقد اعدمت هذه الشخصية فيما بعد، وللشهيد بحوث ومؤلفات كثيرة. (راجع موقع مؤسسة الشهداء).

ارتفاع أسعار النفط، والحصول على أموال طائلة وكبيرة، وقد فتحت للعراق فرصاً كبيرة للتّدخل في أحداث العالم، وخصوصاً الدول العربية وبالتحديد في لبنان حيث كانت الحرب الأهلية قد بدأت للتوّ وذلك بعد حادثة الشّياح وعين الرمّانة المشهورة[1]

وقرر نظام البعث في وقتها توسيع آمال طموحه في السيطرة على الواقع العربي ليحلّ العراق، وربما صدّام محلّ شخصية الرّئيس الراحل جمال عبد الناصر، كان ذلك الطموح دافعاً قوياً لتصفية الأعداء من الدّاخل، أعداء البعث وهم الحركات والقوى الإسلامية الّتي بدأت تزدهر وتكبر وتتضخّم بشكل لا يمكن السّيطرة عليه.

ومن الأمور التي يلاحظها المواطن أنذاك هو أنّ زيارة ميشيل عفلق إلى العراق كانت تتبعها دوماً أحداث درامية وخصوصاً ما يتعلق بمواجهة الصّحوة الإسلامية والحركات الشيعية. فقد زار في نهاية سنة 1973 ميشيل عفلق العراق وعلى أثر تلك الزيارة بدأت حملة منظمة لاعتقال الكثير من المنتمين إلى تيّار (الدّعوة) والمحسوبين عليه في جوّ غياب المرجعية ودورها، وذلك بعد إنتقال السيد محسن الحكيم رحمه الله إلى ربّه، وقد بدأت حملة البعث باعتقال العاملين في الوسط الإسلامي في محافظات العراق وبدأوا بالشخصيات العاملة الكبيرة التي كانت قد أسّست مسيرة العمل الإسلامي، كعبد الأمير علي خان والظّالمي والسّاعدي[2].

---

(1) وهي التي أشعلت الحرب الأهلية التي استمرت أكثر من عقد ونصف من الزّمن. وتفاصيل الحادثة أنّ حزب الكتائب اللّبناني الذي كان يرأسه أنذاك بيار الجميل قد هاجم دورية فلسطينية كانت تمرّ في خطّ التّماس هنالك وقتلت أكثر من عشرين فدائياً فلسطينياً في تلك المنطقة وعلى أثرها تحالفت القوى الوطنية والفلسطينيون من جهة، والكتائب والأحزاب اليمينية من جهة أخرى وتقاتلت فيما بينها وتحول لبنان إلى ساحة حرب، وعمّ الدمار كل المناطق وبدأت سلسلة المذابح الكبرى كمذبحة تل الزعتر وغيرها.

(2) وغيرهم وعلى أثرها كشفت (الدّعوة) أمام ضربات النّظام الوحشية، وتوصّل البعث الحاقد إلى أن التّيار الحسيني شيء والحركة الإسلامية المنظمة شيء آخر، وكان القرار أن تتمّ تصفية كلا التّيارين في وقت واحد، وخلط أوراق الانتماء فيما بينهما. في الوقت =

وكانت الدّيوانية مركزاً تحقيقياً ضّخماً باعتبارها من محافظات الفرات الأوسط التي تدور بها الاعتقالات، وكان اخي السّيد حامد والسيد أمين شبر أصغر المعتقلين، وقد تمّ القبض عليهما وهما في البصرة في زيارة كانا يقومان بها إلى بيت أختي الكبرى. وقد تمكّن الأمن من الدّخول عنوة واعتقالهما ونقلهما إلى الأمن، العام ثمّ إلى معتقل الفضيلية الرهيب الذي يقع في الجزء الشّمالي من بغداد.

وكان المجرمان العتيدان فاضل الزوركاني وعلي الخاقاني هما المسؤولان عن جرائم التعذيب الرهيبة التي لم يعهدها المجتمع العراقي، وحتّى لم تتعوّد المنطقة برمّتها على هذا النوع من إهدار كرامة الإنسان.

والواقع أنّ الحركة الإسلامية لم تكن خلال عملها منذ تأسيسها تتوقّع أن يصل الأمر بها إلى هذا النّوع من الإجرام، بل أقسى ما يمكن أن يحدث لمن يقبض عليه هو التّرحيل أّو السّجن لمدّة لا تطول أكثر من سنة واحدة، ولكنّ الأمر كان أشدّ وأقسى، بل كانت الإرادة الدّولية الّتي تقودها دول عديدة أهمّها السّعودية بالإضافة إلى الواقع السّياسي العربي يطالب في استئصال أيّ ظهور شيعي سواءاً أكان ذلك الظّهور في العراق أم في إيران أم لبنان أم أفغانستان، بل كانت الإرادة العربية هي الانتهاء من الملفّ الشيعي الذي بدأت بوادر انطلاقته قد ظهرت في لبنان وفي إيران وفي العراق.

= الذي كانت الدعايات البعثية لا تذكر اسم التّنظيم وإنّما كانت تقول أحياناً عنهم (الحزب الفاطمي) وأحياناً (الأخوان) وأحياناً (الرّجعيون) كي لا يدرك العراقي وجود حركة أو تنظيم عراقي يطالب بقيام نظام ديمقراطي حرّ، وتتوصّل التحريات إلى اعتقال مجموعة كبرى في العراق منهم، السيد نوري طعمة، السيد حسين جلوخان، السيد حسين الشامي، السيد عبد المنعم الشّوكي، الشيخ الصّيمري، الشيخ حسن فرج الله، الشيخ عارف البصري، السيد عماد التبريزي، السيد عزّ الدين القبانجي، الشيخ خير الله كريم، السيد الشهيد الثاني محمد محمد صادق الصدر، إضافة إلى أسماء كثيرة وعديدة يمكن للمتابع التوصل إليها في تقارير الأمن العامة التي نشرت على صفحات الانترنيت.

وكانت تلك الارادة ترى بأنّ الحركات الشيعية تلك ما هي إلّا تفرعّاً أو صدى لواقع النّجف أو لفكر النّجف، والذي يعتبر خطّاً أحمر للكثير من الدّول التي تتعارض مصلحتها مع فكر التّشيع الحرّ، الذي يدعو إلى تحرّر الشّعوب وانعتاقها من التّبعية لهذا أو ذاك.

فقادة تلك الحركات في كلّ الأقطار الإسلامية كانت قد مرّت أو درست أو تعلمت في النّجف، وكان السؤال الذي تسأله تلك الدّول عن السرّ الكامن وراء قدرات هذه المدينة المصدّرة للثّورات إلى أنحاء العالم الذي لم تسبقه مدينة قبلها، فالثّورة غالباً ما تولّد في رحم البلد نفسه وتتوسّع لتموت هناك أيضاً، أمّا فيما يتعلّق بالحركات الشيعية الإسلامية فإنّ الفكر لا توقفه حدود، ولا تؤخّره فواصل، أو حكومات. وإنه بدأ ينتقل بحرية كبيرة بين الأمم والشّعوب ومن دون عقبات، فما هو ذلك السرّ الكامن في النّجف؟ فمهما كان ذلك السرّ الذي يجب لاكتشافه مضي عشرات السّنين، كانت الإرادة الدّولية وربّما العربية أكثر تحمّساً. فقد قرّرت أن تقتل روح النجف، وفكر النجف، وذلك بتغيير طبيعة التّركيبة الفكرية والتركيبة الإدارية.

ولكنّ المشكلة هي أنّ الحاكم دوماً أعمى، بل غبيّ في فهم الأحداث، فكان يعتقد بأنّ الفكر هو كتاب أو مدرسة أو شارع أو أستاذ، ولم يكن يعلم أنّ النّجف هو أصالة لا يمكن انتزاعها من روح الإنسان الشيعي المبدئي، والعلاقة بين ذلك الفكر وبين التحرّر والكرامة كعلاقة الأوكسجين إلى الهيدروجين في الماء. من الصّعوبة جداً فصلهما، لأن الفصل بين العنصرين هو أن يتحوّل الماء إلى شيء آخر لا يسمى ماءاً.

أعتقل السيد حامد الشاب وكان عمره أنذاك لا يتجاوز العشرين من عمره مع أبطال تاريخ المسيرة الفكرية ليس الشيعية فحسب، وإنّما للفكر الإسلامي، فكلّ تلك الأسماء تعتبر علماً من أعلام الفقه والأصول والمبادئ، وقد كانت فكرة مجالسة تلك المشاعل الوضّاءة ومحادثتهم والعيش معهم في السّجن وتحمّل التّعذيب وغيرها مدرسة كبيرة اكتسبها

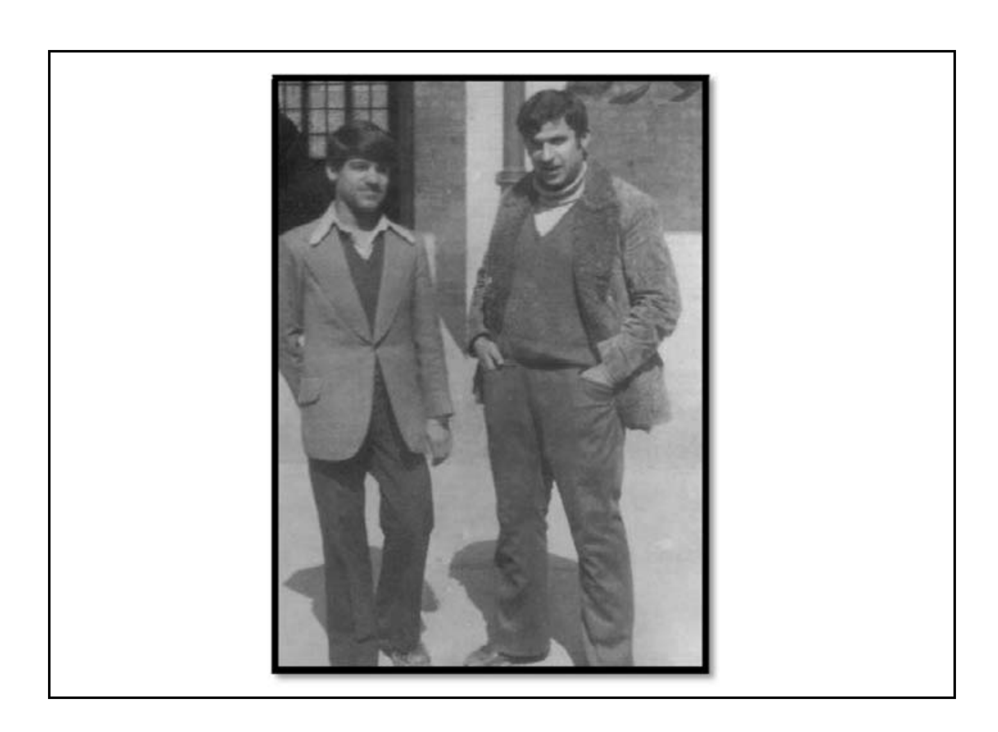
الشهيد في نيل أسس الشّخصية المبدئية، التي يجب بناؤها لكي تنطلق إلى الأمّة، لتغييرها والعيش مع مآسيها.

أفرج عن الشهيد السيد حامد مع أعداد أخرى، وبقي خمسة وهم كوكبة (قبضة الهدى) التي أعدمت في عملية غدر جبانة مارسها البعث في تلك الفترة العصيبة من تاريخ العراق[1]

خرج السيد حامد من السجن إنساناً يملك من القيادة ومن العقل ما يفسح له المجال، كي يقود المجتمع الشبابي في النّجف نحو التغيير والعطاء، وقد كنت أستنير بأفكاره وأستنير بهدوئه في الكثيرمن القضايا التي تهمّ أوضاع الأمة فيما يتعلق بالتحليل الفكري للإنسان.

وقد وجدته فيما بعد وقبل انتقاله إلى الجامعة قد بدأ في العمل المؤسّساتي في النّجف، فأسّس فريقاً لكرة القدم تمكّن فيه من استيعاب الشباب الحسيني إلى ذلك الفريق، ليحوّل مفاهيم الرّياضة إلى مفاهيم المبدء والعمل، فصار عنواناً للشاب الملتزم في مجالات الرّياضة والفكر والأخلاق.

(1) كانت العائلة وأنا أيضاً على موعد لزيارة اخي حامد وأمين في سجن الفضيلية، وكان هنالك أعداد كبيرة من العوائل أيضاً في انتظار السّماح لنا بالدّخول إلى السّجن، وبينما نحن هنالك وإذا بسيّارات كبيرة وصلت إلى باب السّجن، وما هي إلّا ساعة حتى بدأ المساجين بالخروج إلى السّيارات لنقلهم إلى الأمن العام، ومن ثمّ إطلاق سراحهم، وقد لاحظت الشيخ حسن فرج الله رحمه الله وهو في وضع مؤلم من جرّاء ألم يده، بعد أن سكبوا عليها حامض النتريك وقطعوها فيما بعد، وقد صدر أمر من مجلس قيادة الثّورة بالإفراج عن البعض من السّجناء وذلك لامتصاص النّقمة العارمة التي سادت العراق برمّته.



الجامعة مسيرة مستمرّة



كما ذكرت سابقاً كان شهيدنا السيد حامد متحمّساً بصورة كبيرة للعمل الاجتماعي والدّراسات الفكرية والفقهية، وكان لا يعير الكثير من الإهتمام للجانب الأكاديمي والدراسة، وكما أذكر فقد تأخّر في المرحلة المتوسّطة بسبب أفكاره تلك، وقد طلب أكثر من مرّة من والدي أن يترك الدّراسة، ويلتحق بالدّراسات الدّينية في النجف. وهذا ما كان يرغب به كي يكمل خطّه في الجهاد والتّوجيه والدّعوة إلى مبادئ الإنسان.

وكان والدي يرى الأمر بالمنظار -ربما نفسه- مع الاختلاف في التّوقيت، إذ كان لا يعارض في إمكانية التحاق السّيد حامد بالدّراسات الدّينية، ولكن بعد أن ينال الشّهادة الجامعية لأنّ ذلك سيعزّز من مكانته في الجانب التّبليغي وتأثيره في النّاس.

وفي السّنة الثانية بعدما تخلّف عن تقديم الامتحان النّهائي في المعهد التّكنولوجي الّذي كان يدرس فيه في الزّعفرانية إبّان أحداث الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979 وبعد أن اشّتدت أزمة الملاحقة المخابراتية له قرّر أن يترك الدراسة في المعهد، ليتفرّغ لواقع العمل الفكري للأمّة.

ولكنّ والدي كان ملتزما برأيه في أنّ أمامه سنة واحده لكي ينهيها، ثم بعد ذلك يكون للسّيد حامد الخيار في إتّخاذ هذا الطريق، ولكن أخي الشهيد كان مصرّاً على ترك الدّراسة الأكاديمية، وأخيراً صار الرأي أن يتقاضيا إلى الشّهيد الصدر الأوّل، وقد قبل كلاهما ما سيحكم به الشهيد، فذهب الوالد الشّهيد وولده العزيز السّيد حامد، وقدّم كلّ منهما قصّته أمام الشّهيد الصّدر الأول ليحكم فيما بينهما، وبعد ذلك قدّم الشّهيد رأيه في إمكانية ترك الدّراسة الأكاديمية، ولكن على شرط إقناع الأب، فرجع السيد

حامد بعد قرار الشهيد إلى الجامعة ليكمل دراسته فيها لحين الانتهاء.

في تلك الفترة كنت لا أزال في بغداد قبل سفري إلى أمريكا. وقد كنت التقى أخي الشهيد في مناسبات كثيرة، وأحثّه على الدراسة وتكملتها كعنوان آخر يضاف إلى عنوانه وهو الالتزام الفكري، وكان يستمع إلى ما أقوله وهو يهزّ برأسه مستمعاً، مع أنّني كنت أدرك بأنّه كان قد قرّر شيئاً في ذهنه لا أعرف ما هو، في الوقت الذي كنت أتحاشى إزعاجه في الإلحاح على ذلك. وقد حضر مناقشاتنا البعض من الأخوة الذين كانوا يشاركوننا السّكن في بيت استأجرناه في الأعظمية رأس الحوّاش. ومنهم الأخ الكريم السّيد صلاح الحديدي[1] والأخوان الحمّاميان د. انور[2] والأستاذ إحسان[3]، والشهيد السّعيد زهير المرهج[4]، والأستاذ الكبير الشهيد المهندس محمد الشّمري[5]، والأخ الشهيد أحمد عداي[6] والأخ الفاضل د. علي رمضان[7].

والأستاذ الكبير عادل عبد الرحيم[8] واخوه الشّهيد الكبير ماجد عبد

---

(1) كان أنذاك في الجامعة المستنصريّة وهو اليوم يعمل مديراً عاما في الإعلام، مؤلف وكاتب ومجاهد.

(2) الشهيد د. أنور تخرّج من كلّية طب بغداد، وأعدمه النّظام الجائر وهو مثال للإنسان المجدّ المثابر.

(3) البحّاثة والمؤلّف ذو القدرة الوثّابة على اكتساب الآخرين فضلاً عن إيمانه الكبير الّذي يعتبر مفخرة في الأخلاق.

(4) الشهيد زهير ممن يضرب بهم المثل بأخلاقه وأدبه وإيمانه، وكان طالباً في دراسات الماجستير في كلّية العلوم وقد أعدمه النّظام بطريقة غاية في الوحشية.

(5) أستاذ في جامعة بغداد كلّية الهندسة يحمل شهادة الماجستير في الهندسة المدنية وهو من اللّامعين في مسيرة العمل الإسلامي اعتقل وأعدم من قبل النظام في بداية الثمانينيات.

(6) شخصية إيمانية متميّزة. كان له قدرة كبيرة في العمل الاجتماعي. اعتقل ثمّ أعدم في بداية الثمانينيات.

(7) الأستاذ والباحث المعروف وهو الآن يعيش في بريطانيا.

(8) المجاهد الكبير والشخصية المعروفة وهو الآن مدير عام في وزارة التربية في بغداد.

الرحيم[1]، والشهيد الأستاذ الفاضل كاظم الحديدي[2].

وأذكر أنذاك كيف كانت نقاشاتنا تأخذ طابع الإقناع من قبل الآخرين أيضاً، وأذكر بأنّ السيد الحديدي قد قال لأخي الشهيد بأنّه يملك تجربة معي (كاتب السطور) في تقدير الأمور وأنّه يعرف بأنّ القول الذي أقوله أو أقرّره لم يصدر إلّا عن معرفة ودراية، ولذلك فإنّه لمن المصلحة أن تستمع إلى رأي أخيك الكبير فإنّه ناصح لك وأنّ نصحه مصدره الخبرة والتّجربة.

لم أكن على معرفة بوضع أخي السيد حامد في الجامعة وبأنّه في موقع المتابعة المستمرّة من قبل عناصر المخابرات، وأنّه كان يعدّ العدّة لشيء أكبر ممّا كنّا نتوقّع.

كانت لقاءاته دوماً مع المجاميع الجهادية الحسينية التي تركت النجف وهربت إلى بغداد حيث يصعب على المخابرات الصدامية ملاحقة المطلوبين، لأن الإنسان يضيع في زحمة الفوضى التي كانت تسود الواقع الاجتماعي البغدادي، كان يجد المأوى للمطلوبين الهاربين من الاعتقال من المجاهدين في الخطّ الحسيني والتّنظيمي، وكان دوماً يجمع الأموال التي يحتاجونها لتدبير أمور معيشتهم.

كانت الفترة الواقعة بين سنة 1976 وحتّى بعد إنتصار الثورة الإسلامية في إيران، فترة حرجة في تفكير الإنسان العراقي الملتزم الذي كان يطمح إلى التّخلص من نظام قاسٍ تمكن في قدراته الإعلامية والمالية من أقناع المواطن العراقي بأنّه باق في الحكم، وأنّ محاولات المعارضة التي تقاوم النظام هذه ما هي **إلاّ** محاولات يائسة، لأنّها لا تمتّ إلى الواقع العراقي بصلة، وأنّها بالأصل غير عراقية.

وقد أثارت هذه الأفكار في نفوس الناس حالة اليأس من الاستمرار

(1) شخصية متميّزة في العلم والأخلاق. توفاه الله بحادث سيّارة في عام 1977.

(2) من العاملين المعروفين في محيط كربلاء اعتقل ثم أعدم في الثمانينيات.

في مقاومة النّظام الصّدامي، في الوقت الذي كان الغرب قد توصل إلى صيغة ثابتة في أنّ الشّعب العراقي أو أيّ شعب آخر يجب عليه أن يقود بنفسه العملية التغييرية للنّظام الديكتاتوري المتسلّط، قبل أن يطلب المساعدة من الشّعوب الأخرى، وهو مبدأ عام التزمت به الدّول الكبرى، ولكنّ (الحرب الباردة) التي كانت مستعرة بين الاتّحاد السوفيتي والغرب كانت المنفذ لتغيير هذه السّياسة، وهو المبدأ الذي تمكّن به النظام العراقي من البقاء، وإقناع الدّول الكبرى في ضرورة مساندته في التوازن الذي تتطلّبه المنطقة.

لم تكن القوى المعارضة بعموميّتها الإسلامية والوطنية تدرك أهميّة التّوجه إلى القوى الكبرى، وتوضيح مواقفها ومبادئها التي تتمحور في العمل على تطبيق الواقع الديمقراطي للشّعب العراقي، وقد كانت تلك القوى ترى بأنّ شعوب الدّول الكبرى كانت تقف مبدئياً في صفّ النّظام الصدّامي. وذلك للأسباب الأيديولجية للخلفيّة البعثية، من خلال مؤسّسها المسيحي ميشيل عفلق، أو من خلال المعاداة التي تكنّها لها تلك الدّول، في الوقت الذي لم يحمل الغرب في أجندته إلّا الفكرة النّفعية البعيدة عن المبادئ الأيديولوجية.

المشكلة التي كانت تواجه القوى الجماهيرية الوطنية والإسلامية خصوصاً. هي أن منظارها كان مقفلاً على أنّ التغييرالنّاجح يجب أن يكون من الخارج: إمّا بانقلاب عسكري، أو بمؤامرة نزاع بين دولتين متنافستين على ثروات العراق. وهذا التّفكير أدّى بنا إلى أن ندفع الكثير من التّضحيات أمام انتظارنا للآخرين في تغييرنا والرّحمة علينا، ولم نكن أنذاك ندرك أنّ الشّعوب هي فعلاً أقوى من كلّ القوى وكلّ الأسلحة، وأنّ صدّاماً لم يكن أقوى وأشرس من حكاّم أوروبا الشّرقية، الذين سقطوا فيما بعد تحت ضربات الشّعب الأوروبي الشّرقي، فالشّعوب السوفيتية التي تخلّصت من أنظمتها، كانت المبادرة من ذات شعوبها، وليس من الخارج.

نعم قد تقف هذه الدّولة أو تلك موقفاً مخالفاً لتوجّهات شعوبها في

إعطائها حرّية التّعبير في الأسلوب الديمقراطي، ولكنّ ذلك لا يقدح في الموقف المبدئي للغرب في وجوب التّحرك من قبل الشعب ذاته وليس التحرك من الخارج.

كان العراقيون أنذاك يعتقدون يأساً بأنّ التّغيير يجب أن يكون من الخارج لأنّهم لا يملكون القدرة، ولا القوة على إحداث أيّ تغيير في العراق، أو في شكل النّظام، بل كانت المعارضة العراقية متأكّدة من أنّ النّظام قائم على أساس المساندة الأمريكية للواقع العراقي، وأنّ الولايات المتّحدة قد اتّخذت هذا الموقف بسبب الأصول الفكرية للجذور اليهودية، أو الجذور الصليبية التي تتحكّم في السّياسة الأمريكية، وكانت الحركة الإسلامية في كل أدبياتها تطعن بالموقف والسّياسة الأمريكية وتعتبره إمتداداً للفكر الصّهيوني والفكر الصّليبي، وأنّ معاداة الحركة الإسلامية لها منطلقة من مواقفها الصّهيونية التي في مساندة النّظام العراقي، باعتباره حزباً صليبياً يقترب فكرياً من التوجّهات الصّهيونية، وهو الشيء الذي جعل الولايات المتحدة مع الغرب وبالتّعاون مع الصّهيونية العالمية والنّظام الصّدامي أن تقف موقفاً معادياً للعراق وللحركة الإسلامية انطلاقا من هذه الفلسفة الفكرية، ولكن هذه الفلسفة مع أنّها لازالت متحكّمة بجذورها عند البعض من الحركات الإسلامية العراقية، ولكن الواقع هو أنّ الولايات المتّحدة ليست دولة فكرية أو مبدئية، وإنّما دولة تعتمد بالأساس على فكرة المصالح لا على فكرة المبادئ وشتّان ما بين الفكرتين.

من الخطأ الكبير الذي وقعت فيه الحركات الإسلامية هو فقدان القدرة على الرؤية الحقيقية لواقع التغيرات في العالم، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثّانية وفي مطلع السبعينيات عندما تنحّت المبادئ عن تأثيراتها في السّياسة، وتحولّت إلى واقع براغماتي هدفه تحقيق المبادئ الاقتصادية الجديدة، وقد ظهرت بعد ذلك التاريخ فلسفة (الحرّيّة) وفلسفة (الديمقراطية) التي تغيرت وأصبحت فلسفة لها إطارها ومفكّروها، علاوة على مدارسها المنشرة في كلّ العالم، وأصبحت هاتان الفكرتان مبدأين

كبيرين بنيت عليهما القوانين الشّخصية، والقوانين الدولية في الغرب وفي أمريكا بالذّات.

وتم من خلالهما تحرير الإنسان كلّ الإنسان، ودخلت الأمم المتّحدة كعامل آخر من عوامل الفكرة العالمية التي ساندت تلك الفكرتين، وبدأت الأمم العالمية تنضم إلى ذلك بشكل أو بآخر. وهو ما أجّج الشّعوب ودفعتها إلى المطالبة بالفكرتين الفطريتين وهما (الحرية) و(الديمقراطية)، فتحرّر العالم اليوم وارتفعت قدرات الإنسان وتعمّق الوعي وتقاربت الشّعوب، كلّ ذلك هو الفكرة الفلسفيّة التي كانت قد انطلقت من أصول (الحرّية) الشّخصية التي كان الإسلام قبلاً قد دعا إليها ولكن على شكل (مبدأ) وهذا المبدأ لا يمكن له النّهوض إذا لم يتحوّل إلى فلسفة، ومادة يفهمها النّاس بكلّ أصنافهم: العالم والفيلسوف والمفكّر والاجتماعي وغيره، ولم تتوجّه الشّعوب الإسلامية منذ أن نزل القران الكريم الذي ينادي بمبدأ الحرّية المنفتح ﴿لا إكراه في الدّين﴾ [البقرة: 256] ﴿وأنّ ليس للإنسان **إلاّ** ما سعى﴾ [النجم: 39]، ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ [مريم: 95] وغيرها من المبادئ التي جاءت في أصول الآيات، كما أكّدها أئمّتنا المعصومون عليهم السلام في أحاديث ومواقف كثيرة جداً، ولم نر من سلوكهم فرضاً على حرية أيّ من التّابعين لهم أو حتى عبيدهم، وبقوا في مسيرتهم الكبرى التي امتدت منذ اليوم الأوّل لوفاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين غياب المهدي المنتظر في سنة 260 هجرية.

وقد تطوّر الفكر الإمامي اعتماداً على هذه القاعدة، ونمت المبادئ التي أوصلت التشيّع إلى ما وصل إليه من القدرة والشموخ الذي يعدّ الآن ربما بأربعمائة مليون منتم ينتشرون في كلّ العالم إلّا من خلال فكرة (فتح باب الاجتهاد) والذي يعني (الحرّية) بمعناها الفكري والفلسفي، ولكن الفرق هو أنّ الغرب حوّل مفهوم (الحرية الشخصية) إلى فلسفة، بينما -نحن المسلمين- لم نفلسفه أو نضعه في إطار قانوني إنساني.

والسّبب في ذلك ربما واضح، ذلك هو الوضع السياسي الذي جاء

بعد وفاة الرّسول الأكرم ﷺ وكان هدفه السّيطرة السياسية على النّاس، وفرض روح التأزّم والدّيكتاتورية على الكيان الفكري، لكي لا يتعامل العلماء والمفكرون وأصحاب الرّأي مع فكرة (الحرّية) من المنظار الفقهي والأصولي، ويتحوّل عندئذ إلى مبدأ عام فلسفيّ وعقليّ كما وضع (عمانوئيل كانت) نظريّته التي كانت انطلاقة للعقل الأوروبي، كي يسود ويتحرّر من فكر الكنيسة الذي كان يشبه إلى حدّ كبير الفكر الذي فرضه الخلفاء والحكّام الإسلاميّون الذين جاؤوا بعد فترة الرّسول ﷺ. في الوقت الذي كان هو أي الرّسول ﷺ قد أعد خطة خاصّة لتبنّي مفهوم فكرة (حرية الإنسان) والتي كان يرى أنّها يجب أن تبتدأ من خلال مراحل يتبع بعضها بعضاً، وتنمو فكرياً في عقول المجتمع المدني، أو المجتمع العربي تدريجياً، كما هو الجنين الذي ينمو في بطن أمّه، وكما هوالطّفل الذي تتكامل عقليته في نموه العمري.

وكانت خطة الرّسول ﷺ تتبلور في مفاهيم بسيطة أهمها هو مفهوم (القيادة) وهو القضية الجوهرية في كلّ مشروع يتبناه الإنسان، وبغيابه فإن ٱلفكر -أيّ فكر- لا يمكن له أن يحيا أو يستمرّ، بل يموت كما ماتت أفكار كبرى في العالم.

ولوتابعنا التطوّر الفكري في العالم اليوم لوجدنا أنّ القائد الذي نادى بأفكار مبدأ الحرية وفلسفتها غالباً ما يقتل على يد شعبه، لأنّ التّغيير له آثاره الكبيرة على المنتفعين وعلى المجتمع بصورة عامّة، وهكذا تمّ قتل (إبراهام لنكولن)[1]، وتمّ قتل (مارتن لوثر كنغ)[2] وقتل (مالكولم

(1) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية للفترة من 1861 إلى 1865. يعدّ من أهمّ رؤسائها على الإطلاق، إذ قامت في عهده الحرب الأهليّة الأمريكية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية، وإعلانها تكوين دولة مستقلة سمّيت (الولايات الكونفدرالية الأمريكية) فتمكّن لينكولن من الإنتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزي بقوّة السّلاح، كما كان لينكولن صاحب قرار إلغاء الرّق في أمريكا عام 1863. (Merille, Lincoln in American Memory).

(2) قتل في 4 أبريل 1968، زعيم أمريكي من أصول إفريقية، قس وناشط سياسي إنساني، =

أكس)[1] زعيم فكرة تحرير المسلمين في أمريكا، وقتل الكثيرون لأنّهم أرادوا تحرير الإنسان وتثبيت فكرة (الحرّية الشّخصية) لدى شعوبها.

فلو تعمّقت بشكل كبير في دوافع مقتل الشّهيد الصّدر الأول لم تجد سبباً جوهرياً لمقتله إلّا السّبب الذي ذكرته آنفا. ذلك وهو (اطلاق مفهوم الحرّية الفكرية والشّخصية) لإنسان اليوم وإشاعتها في المجتمع العراقي.

ومن الخطأ أن نعتقد بأنّ الشهيد كان له أن يتمكن من أن يقود ثورة شعبية (في ذلك الظّرف) كما هي ثورة السّيد الإمام الخميني في إيران، أو الثورة المصرية كما يصفه الكثير ممن كتب عن شخصيته، لأنّ الظّروف والاختلافات بين الشعب العراقي والشعبين الآخرين كبيرة جداً، ومتباينة بشكل لا يمكن لها أن تتطابق في أداء الدّور ذاته.

وأنّ مقولة أن يتحوّل الشهيد الصّدر إلى خميني العراق هي مقولة لا يتقوّل بها إلّا البعيدون عن مسيرة الأحداث -عن غير قصد- أو المحبّون عن غير فهم، فلم يعلن هو شخصياً -الصّدر- من خلال عمقه في فهم حركة الشعوب، وحركة الأفكار بأنّ الشعب العراقي كان له أن يقود ثورة

= من المطالبين بإنهاء التمييز العنصري، في عام 1964 حصل على جائزة نوبل للسّلام، وكان أصغر من يحوز عليها، اعتبر من أهم الشخصيات التي دعت إلى الحريه وحقوق الإنسان.

(1) أو الحاج مالك شهباز قتل في 1965، يعدّ من أشهر المناضلين السّود في الولايات المتحدة وهو من الشخصيات الأمريكية المسلمة البارزة في منتصف القرن الماضي. وقد أثارت حياته القصيرة جدلاً لم ينته حول الدين والعنصرية،" حتى أطلق عليه (أشد السود غضباً في أمريكا)، وهو مؤسّس كل من (المسجد الإسلامي) و(منظّمة الوحدة الأفريقية الأمريكية)، كما أن حياته كانت سلسلة من التحولات حيث انتقل من قاع الجريمة والانحدار إلى تطرف الأفكار العنصرية، ثم إلى الاعتدال والإسلام، وبات من أهمّ شخصيات حركة أمة الإسلام قبل أن يتركها ويتحوّل إلى الإسلام الذي نلتزم به في الشرق، وعندها كتبت نهايته بست عشرة رصاصة في حادثة اغتياله.

(West, The Paradox of the Afro-American).

في ذلك الوقت بكلّ أطيافه من عرب وأكراد وسنة وشيعة وطوائف أخرى، ضد حكم كحكم صدّام[1].

وحتى لو انطلقت تلك الثورة -فرضاً- أنذاك، فإن عوامل نجاحها ضئيلة جداً، وحتى لو نجحت فإنّ قدرتها على الاستمرارية تكاد تكون معدومة، خصوصاً ونحن نتكلّم في الوقت الحالي ما بعد عشر سنوات على التغيير الذي أسقط صداماً من خلال قوّة دولية وليس قوة وطنية، ولكن مع ذلك فإنّ العراق لازال يعيش تبعات التّغيير في وضعه المتأخّر من النّاحية الإدارية والناحية الاقتصادية وغيرها.

نقول ذلك ليس بلحاظ السّلبية، وإنّما بلحاظ الواقعية في التّفكير، فالشّهيد الصّدر الكبير رحمه الله كانت رسالته لا تختلف عن رسالة الأبطال التأريخيين الآخرين من أمثال (مالكولم أكس) و(نيلسون مانديلّا)[2] و(إبراهام لنكولن) وقبله (المسيح عليه السلام) وفي مقدمتهم (الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) ولو تستقرئ أفكار اولئك المغيّرين في التّاريخ (أقولها جدّيا وأعني أن نقرأ تاريخهم كلّنا) لوجدنا بأنّ الأفكار الأساسية التي تميّز عقلياتهم هي واحدة، سواء أكانت تلك الأفكار صادرة من شخصية إعتنقت الإسلام، أو المسيحية، أو أيّ ديانة أخرى.

فالأفكار في عقلية القائد المحرّر هي واحدة سواء أكانت في فيتنام أم في النجف أم في أمريكا، وهذه الفكرة لو يتمّ التّعمق فيها ودراستها بأكثر

(1) الثورات في العالم تنضج كما هو الإنسان أو الطفل الذي تسنه قوانين النمو، ولكل من ذلك من مستلزمات وعوامل يجب توفرها في الشعوب أهمها هو الوحدة الثقافية وهذه الوحدة كانت غير موجودة في عام 1979 ولا زالت غائبة إلى الوقت الحالي ولذلك فإن احتمال حدوث ثورة شعبية في العراق في هذا الظرف مستبعد مهما كانت الوقائع السلطوية.

(2) توفي في شهر ديسمبر عام 2013، وهو الرّئيس الأسبق لجمهورية جنوب إفريقيا وأحد أبرز المناضلين، والمقاومين لسياسة التّمييز العنصري التي كانت متبعة في جنوب إفريقيا، دائماً كان مانديلا يعتبر أنّ المهاتما غاندي المصدر الأكبر لإلهامه في حياته وفلسفته حول نبذ العنف، والمقاومة السلمية ومواجهة المصائب والصّعاب بكرامة وكبرياء.

مما في هذه الكلمات من معنى، لفهمنا حقيقه (شيعية)[1] مهمّة، تلك الحقيقة هي (الفكرة المهدوية) وفكرة (حكومة العدالة المهدوية) التي سيقودها المهدي المنتظر، التي هي متأصّلة في أخبارنا بأنّه سيقيم حكومة عالمية تسود كلّ أرض الإنسان.

(1) لم تقدّم المذاهب الإسلامية الأخرى منهجاً فقهياً أو فكريّاً بما يخص الحرّية الشّخصية، حتى الأحزاب المتفرّعة الحديثة من الفكر العام للمذاهب الإسلامية لم تناقش هذا الأمر، واحسب أنّ السّبب في ذلك هو غياب التّراث الّذي تمتلكه تلك التّوجهات الفكرية العامة، وخصوصاً فيما يتعلّق بالخلفية الحاكمة التي كان التّسنّن الفكري هو المسيطر على مسيرتها.



العنف أم الرّبيع الثّوري..؟



إنّه لمن المؤسف ممّا نقوله، فقد دخلت الحركات الفكرية الإسلامية في العراق أنذاك في طريق قد كانت تعرف بدايته ولكن بالتأكيد لا تعرف نهايته، ولم تخطّط للكثير من المفردات للإستمرار في العمل، فالسّلاح أبداً لم يخدم الفكر في يوم من الأيّام، ولم يحرّر الإنسان في زمان ما، وإنّما بقي السّلاح والعنف والقتل طريقاً أعمى ينبع من المفردات الشخصية لذات المخطّط[1].

وهذه هي ثورات الرّبيع العربي أمامنا قد انطلقت بلا سلاح، وخصوصاً في دولة كبيرة كمصر التي أثبتت مجريات الأحداث فيها بأنّ الحضارة الفكرية والسلوكية هي معادلة للفكرة المستقبلية والادائية، ومع أنّني أشعر بأنّ مصر لا زالت في بداية المرحلة الأولى من مشروع الدّولة المتحرّرة، ولكنّني أعتزّ بأن ينجز شعب مثل الشعب المصري إنجازاً سيكون مثالاً للشّعوب الأخرى التي ستتحرّر من عبودية (إرهاب الفكر) إلى فكرة (الحرّية الشخصية) التي هي أساس القدرة الإبداعية للشّعوب والدّول. وربما كانت ثورة 30 حزيزان 2013 المصرية قمة الفكر الإنساني الثوري المتحضر والتي لم تسبقها ثورة على مستوى الإنسان الحديث في مجرياتها وحضاريتها.

لقد حرص أئمّتنا عليهم الصّلاة والسّلام على أسلوب الفكر والتّحضّر في مقاومة أيّ باطل، ومقاومة أيّ انحراف، ولم نر في خطّهم ما هو

---

(1) فكرة تغيير معتقدات الشعوب بالقوة أو بالغزو هي فكرة بدوية متأصلة في الشعوب العربية التي اوحي إليها الدين الجديد الاسلام، وقد بني كل تراث تغيير وحروب الامم على فكرة القوة وفكرة الحيازة.

مخالف لذلك، في الوقت الذي يرى البعض أنّه لولا ظلم الحكّام لقادوا ثورة كبرى كثورة الحسين، ولتمكنوا من السيطرة على مقاليد الحكم في العالم الإسلامي.

هذا القول فيه الكثير من الخطأ وعدم الفهم لدور أئمّتنا في نظرتهم الفكرية لبناء كيان دولة الإنسان. فلقد سنحت فرص كثيرة لأئمّتنا في أن يستلموا الحكم، ولكنّهم كانوا زاهدين في ذلك. ليس حبّا في الزّهد العبادي فحسب، ولكنّهم كانوا على علم من أنّ التّغيير إلى فكرة (الحرية الشّخصية) كان طريقاً وعراً لا يتمّ من خلال التّغيير في كيان الحكم، وإنّما يتمّ من خلال الآليات الفكرية التي تترعرع فيها تلك الأفكار، وتساندها الدّولة، وبغياب هذين العنصرين (وعي الفرد، ووعي السّلطة) فإنّه لن تتمكن أفكار الخير وتحرير الإنسان من أن تجد طريقها، فقد تستغرب أنت أحياناً عندما تلتقي بالشعوب الأخرى التي حرّرت الإنسان[1] وتكتشف عمق الرّوح الوطنية لدى شعوبها، مع اختلافها معها في الكثير من مسارات القوانين التي وضعتها تلك الحكومات، أو ممارساتها اليومية، ولكنّها تبقى تلك الشعوب تحمل الرّوح الوطنية حتّى في أشدّ حالات المواجهة ما بين الفرد وبين الحكومات، وهذه الرّوح الوطنية هي التي تبني الوطن وتبنّي المستقبل. فقد يخجل الكثير من مواطني الغرب من أن يقوم بأيّ عمل مخالف للقوانين، حتى وإن كان ذلك العمل في الخفاء[2].

---

(1) الدّول التي يسود فيها مبدأ حرية الإنسان Chartere of Human Right

(2) فقد استدعيت يوماً مصلح الثلاجة لاصلاحها في بيتي في الغرب، وعندما فتح المولّد قال إنّ فيه القليل من غاز الهيليوم وعليّ أن أسحبه من الماكنة لأنّه لو ترك في الهواء فسوف يؤثر على طبقة الأوزون التي في الغلاف الجوي للأرض، ويوسع من حجم الفجوة التي أحدثتها الثّورة الصّناعية في العالم، سألته ماحجم الهيليوم في الثلاجه أشار لي بأصبعيه يعني أقلّ من مليمتر واحد، فقلت له وهل سيوثّر علينا نحن، أم على أولادنا أم أحفادنا ..؟ قال لا، قلت: اذن في ذلك الوقت سيتقدم العلم وبعد 700 سنه على الأقل سيكتشفون ما يمنع هذا التأثير على الأرض. فاسمح لهذه الكمية من الغاز بالخروج وابدأ باصلاح الثلاجة. . . قال: لا. . لأنّني يجب أن ألتزم بما تقرّره قوانين البلد.

وإذا تعمّقنا في فهم أسلوب أئمّتنا من خلال دراسة سلوكياتهم، لا من خلال ما كُتب عنهم خلال القرون المنصرمة التي كانت في مرحلة التدوين عنها في مرحلة التحليل، لوجدنا أنّ هنالك الكثير من المبادئ الإنسانية الّتي تتلازم مع فكرة التّغيير والعمل التغييري الهادئ، وفكرة نبذ العنف، وتحرير عقل الإنسان، وبناء فلسفة (الحرية الشخصية)، ولو كنّا قد تعمّقنا في كلّ ذلك لكان لنا في أعقاب حكم البعث، أن يكون لنا طريق آخر يختلف عن الطريق الذي اعتقدنا بجدواه وبقدراته، وأقمنا مشاريعنا على أساسه.

ولكن وحتّى اليوم كان يجب علينا أن نراجع ما مارسناه في تلك الفترة من الزمن، فهل راجعنا ذلك، وهل أعطينا لأنفسنا المجال لمعرفة أين كانت أخطاؤنا...؟ وأين كانت تسرّعاتنا في الوصول إلى الأهداف...؟ أعتقد بأنّ التغيير لن يحدث إلّا بعد أن تتبدل عقلية القيادة التي قرّرت أنذاك الطّريق التي رسمته وهو الطّريق الوحيد أمامها[1].

من الصّعوبة جداً على الحركة الإسلامية الآن أن تبقى تقاد بنفس رموزها السّابقة، لأنّ زمن الصّراع السّلبي غيّره زمن الصّراع البنائي، وعقلية أعوام الستينيات في القرن الماضي، هي غير عقلية العقد الثاني في الألفية الثانية.

فقد وجدنا الكثير من أولئك الشخصيات التي قادت الحركة الإسلامية في عصور الستينيات لا يملكون أيّ معلومات عن واقع التطوّر التكنولوجي في الاتّصالات، وفي التّواصل وفي تقارب الشعوب، بل إنّ الكثير لا

(1) إنّ الإنسان عندما يعيش في وسط الشيء، فإنّه لا يرى ما هو في خارجه من تغيرات وأحداث، ولذلك يبقى يدور في نفس الفلك والأسلوب. معتقداً وبأمانة وعفويّة وصدق بأنّه الطريق الصحيح لعلمه وتخطيطه، ولذلك فإنّ الشّركات العملاقة الطّامحة في العالم تقوم بتبديل (بورد الشركة) دورياً لكي لا تعيش الشركة في أخطاء لا تتمكن من إدراكها أو تشخيصها، بعد أن تتحوّل إلى أمراض مستوطنة من الصّعوبة ملاحظة تأثيراتها السّلبية على مسيرة الشّركة أو مسيرة الدّولة.

يعرف كيف يستعمل الإنترنيت أو يستعمل مواقع التواصل الاجتماعي[1] ولذلك فإنّه أمام الحركة الإسلامية اليوم أن تفكّر جدّياً في إيجاد قيادة تقود الجماهير إلى الأفكار التي تتناسب مع روح العصر، كما سلك الحزب الحاكم في تركيا اليوم (حزب العدالة والتنمية) ليحوّل تركيا من المرتبة 111 إلى المرتبة ربما ضمن العشرة الأوائل عالمياً في قدراتها العملية التكنولوجية والإدارية، وذلك بعدما وجد المؤسّس الكبير نجم الدين أراباكان[2] بأنّ عطاءه سوف لن يستمر، وهكذا كان الزعيم رجب طيب أرودوكان[3] الذي قدم أسلوباً ونموذجاً رائعاً كان على سياسيينا في الحركة الإسلامية في العراق أن يتبنوه، وأن يستفيدوا من التجربة المتحرّكة التي أفرزت أهمّ تجربة سياسية لحزب إسلامي في التّاريخ القريب، هذا بغض النظر عن الاخطاء السياسية القاتلة التي مارسها الحزب في تركيا وخصوصاً في اواسط عام 2012.

إنّه قد آن الأوان لكلّ الأحزاب العراقية التي انطلقت بعد 2003 أو التي ما بعدها أن تفكّر بعقلية الزّمن الحالي لا بعقلية الأفكار التي كانت سائدة في العصور التي سبقت الحرب العالمية الأولى والثّانية، التي كانت في معظمها يتمّ تخطيطها على أساس الواقع الذي كان يتّسم بالصّراع بين الامتداد الإسلامي المستند على الغزو العسكري، والقوّة التي كانت الدّول الإسلامية تملكها كالدّولة االعثمانية وبلاد الأندلس ودول شمال أفريقيا

---

(1) مع كامل إعتزازنا بمساهماتهم وعملهم وتضحياتهم في الوصول إلى ما وصلت إليه تلك الحركة.

(2) الزعيم التاريخي للحركة الإسلامية التّركية الّذي تمكّن من أن ينتزع وفي فترة حكم العسكر الفوز بقيادة الجماهير التّركية المسلمة، وأن ينقل تركيا من دولة علمانية سلوكاً إلى دولة متميّزة في التزام شعبها. في الوقت الذي تمكن من أن يفوز في الإنتخابات ليكون أوّل رئيس وزراء إسلامي يصل إلى الحكم ما بعد سقوط الدّولة العثمانية.

(3) هو رئيس الوزراء الحالي لثالث دورة انتخابية وزعيم حزبه الذي أثبت بقدراته الفكرية والإسلامية انّ الإسلام دين له من القدرات ما يتمكن من خلالها في أن يستوعب حركة التطوّرات التكنولوجية والعملية والدّولية. وهو الرئيس الوحيد الذي فاز بثلاث دورات إنتخابية بأغلبية مريحة في الوقت الذي أعطى شعبه لحزبه أيضاً رئاسة الجمهورية.

وغيرها من الدّول المنتشرة في المحيط الإسلامي، وبين الدول الغربية التي كانت أنذاك تعيش فترات التّوحد والقوّة، في الوقت الذي كان العنصر الحاكم في ذلك الصّراع هو القوّة العددية وقوّة السّلاح وكانت تعتقد تلك الدّول بأنّ التّجمع الديني الذي تصطبغ به تلك الدول (مع أنّها لا تلتزم بمبادئه) ما هو إلّا كيان يستغله الحكّام (المسلمون) لاستمرار فرض سيطرتهم على الشّعوب، تماماً كما كان الأمر مع المبادئ الكنسيّة التي تحكم أوروبا، التي سيطرت على العالم الغربي بشعارات (الله) و(الدّين) وكانت في الواقع شعارات هدفها هو الاستمرار في السّيطرة والاستمرار في إبقاء البرقع الشّرعي الدّيني لكي لا تفكر الأمة برفع صوتها ضدّ أولئك الحكّام باتّجاه تحرير العقل من أولئك الحكّام، الذين هم في الواقع من أشدّ النّاس ابتعاداً عن الدّين.

وفي الواقع فإنّ الدّول الدّينية التي سادت أوروبا في ذلك الوقت، تشابه إلى حدّ كبير تلك الدّول الدّينية التي سادت العالم الإسلامي عموماً الدّولة الأموية والعباسية ثمّ العثمانية والسلاجقة وغيرها من الدّول التي مرّت على بلداننا بعد وفاة الرّسول الّاكرم ﷺ التي كانت أبعد ما يكون عن مفاهيم الدّين وعن روح المبدأ الذي ينادون به. وهو واقع عام، بل قانون شامل لكلّ الدّول الدّينية التي قامت ربما في تاريخ الكرة الأرضية، أو التي نقلها لنا التّاريخ في المدوّنات. وهو العامل الحاسم الذي كان الدّافع للغرب في منع قيام أيّ دولة دينية تقام في أيّ بقعة من العالم سواء أكانت تلك الدّولة دينية مسيحية، أم دينية إسلامية أم دينية كونفوشية أو يهودية.

هذا الفهم منطلق من مفهوم عام وأساس تؤمن به الدول الديمقراطية الحديثة منبعه هو فكرة (الحرية الشخصية) باعتبار أنّ الدّين أفكار (ثابتة) ليس للإنسان أن يغيّرها، بينما قيادة الدّولة وقوانين الحكم هي قوانين (متحركة) تتبدّل بتغيّر الواقع الجغرافي والتّاريخي. وقد يتعارض المفهومان: مفهوم الدّين مع مفهوم (الدّولة) بهذه النقطة الجوهرية من مسيرة قيام الحكومات.

وعلى هذا المفهوم ترك الغرب للدّين مجاله في علاقته مع النّاس لتحديد الرّبط بين الإنسان والسّماء كما هي الأمور الحسبية، والأمور التشريعية، من الحلال والحرام وغيرها من المفاهيم وأحكام الدّين التفصيلية.

أمّا أمور الحكم فهي تتغير حسب الواقع الاجتماعي والواقع السّياسي. وذلك على حسب ظروف وحاجات الناس وتوجّهاتهم، وعلى المشرّعين السياسيين أن يتحركوا بحركة الناس، لأنّهم هم من ينتخبهم الناس، وبعكسه فإنّ هنالك تناقضاً كبيراً بين العهد مع الناخبين وبين التطبيقات، وهذا لو كان يرتبط بالأمور الدينية، فإنّنا نرى عدم جدوى وجود حاجة للمشرّعين السياسيين في مجلس التشريعات، وفي مجلس النّواب وغيرها. وذلك بسبب وجود قوانين دينية سابقة معدّة سلفاً، وما على الفقيه **إلاّ** استنباطها وتقديمها إلى الدّولة. وهو في هذا المنظور يعني إلغاء دور الإنسان والمواطن في مسيرة بناء الدّولة الحديثة[1].

هذه المعادلة الجدلية في دور الدين في مسيرة الدولة فرض على دول العالم وعلى الأمم المتّحدة، وعلى قوانين الدّول المتحضرة أن تجعل لكل من الّدين ومن السّياسة أو الدّولة مساحة خاصة. في الوقت الذي يكمل كلتي المساحتين إحداهما الأخرى، فالإنسان أيّ إنسان لا يمكن له أن يفكّر بغير وجود رابط مع السّماء، ولا يمكن له أن يتحرّك في الحياة من دون توفّر قانون أرضي لا يتعارض مع مبادئ فطرة السّماء، وهي أمور

(1) هذا هو المفهوم العام الذي يؤمن به الكثير من المشرعين الدينيين، مع أنني وإن كنت أخالف ذلك من باب أصل النظرة، لانني أعتقد بأن الدين ينظر إلى الجانب التشريعي من منظارين: الاول هو القواعد الثابتة وهي ما نسميها أصول الدين، والثاني: هو الجانب الاستنباطي الذي يملأ منطقة الفراغ. وهو الذي يجب ان يتحرك فيه القانونيون في مساحته سواء أكان أولئك القانونيون دينيين ام غير دينيين، وهذا معناه أن عملية استنباط أو اكتشاف التشريع عملية جُهديّه وليس هنالك ما هو ثابت في الدين إلّا الاصول التي هي خمسة في الفكر الإمامي. (كتاب خلافة الإنسان، وشهادة الأنبياء، محمد باقر الصدر).

أدركتها الدول العلمانية التي تحكم العالم اليوم، ووجدت نفسها أنها مهما عانت من مأساة السّطوة الدينية السّابقة، والكنيسة وعمق المذابح التي ارتكبت باسم الدّين، فإنّ الدولة تبقى بحاجة إلى قوانين الدّين وفطرته، لكي تحدث حالة التوازن بين السّماء والارض. وهو أهمّ مفهوم ممكن أن تحقّقه الدّولة الحديثة في هذا العصر.





فلسفة الدّولة الإنسانيّة ...



لقد اكتشف الشهيد الصّدر الأوّل هذا الأمر بدقّة متناهية. وربّما هو الوحيد الذي أتى على ذكر معظم ما يخصّ بحوث الدّين والدّولة، واكتشف مصطلح (منطقة الفراغ) التي يتحرّك فيها المشرّعون من كلتي الجهتين، إتّجاه بناء كيان الإنسان وتلبية حاجته في الحياة.

إنّ الأفكار التي سادت كتبنا القديمة، التي كتبت ربّما في عصور ما قبل الحرب العالمية الثّانية كان لها الأثر الأكبر في صياغة مفاهيم المسيرة الإسلامية في العراق، وعلى ضوئها وضعت المفاهيم في بداياتها في فترة نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، التي لم تتغير بإطارها العام ولم تتطور، وإنّما بقيت مقدّسات تتناقلها الأجيال من دون التّفكير في إشباعها بحثاً وتنقيباً، ولم ينبر لهذه المهمّة من العقليات الكبرى خوفاً من الواقع المهلهل الذي يتحكّم بمسيرة النّاس والشّعوب.

وقد بدأت تلك الصّيحات التجديدية في مصر في بداية الخمسينيات من القرن الماضي على شكل بحوث وكتابات متطوّرة مثل كتاب محمود أبو رية وأبو زهرة وكتابات رشيد رضا وطه حسين وكتابات الجيل الحديث من أمثال نصر حامد أبو زيد، وغيرهم كثيرون أزهريون والبعض الآخر من الأكاديميين، وكانت تلك النهضات واقعاً قادت مصر إلى الدّرجة التي توجّت محلّها في التّاريخ، لكي يكون لها أول رئيس عربي منتخب[1] في

(1) بغضّ النّظر عن شكل التّوجه الذي يعتنقه في التزامه بما يؤمن به، أو أخطائه أو طريقة عمله أو نظرته إلى حالة السلطة، والذي أثبت فيما بعد بأنه كان لا يعيش إلى الشعب فتم إزاحته بطريقة غاية في الدقة من قبل الشعب في 30 حزيزان 2013.

التّاريخ العربي على الاطلاق وربّما بعد العراق التي كانت انتخاباته في 2010 عنواناً آخر لمفهوم الدّيمقراطية في العالم العربي.

وهكذا احتلّت مصر -لان الزعيم انتخب بشكل مباشر من الشّعب- وتفوّقت على العراق مع الفرق الكبير بين الإثنين الذي يذهب في عمقه من أنّ مصر صنعت تأريخها بنفسها، أما في العراق فقد كان التحرير ناقصاً، لأنّه لم يكن قد قام به أبناؤه بشكل كامل[1].

وثمّة شيء مهمّ علينا أن نعيشه ونبادر إلى مصارحة جماهيرنا به وهو عنوان من عناوين الثّقة بالنّفس. . . ذلك هو مناقشة أخطاء الماضي، وأخطاء المرحلة التاريخية التي عشناها في مسيرة قيادة الجماهير منذ تأسيس الحركة الإسلامية في العراق في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي ولحين بداية الثمانينيات باستشهاد الشّهيد الصّدر الأوّل، لقد آن الأوان لكي نصارح أنفسنا ونصارح جماهيرنا بعمق ما كنّا نعتقد بصحته آنذاك، فقوّة الحركة الجماهيرية هي شجاعتها في انتقاد ذاتها، وانتقاد مسيرتها، ومراجعة حساباتها التي أدّت إلى النّتيجة التي هي عليها الآن.

في فترة بين سنة 1977 إلى حين انبثاق الثّورة الإسلامية في إيران كان هنالك تردّد في فهم دورالحركة من قبل الكثير من الشّباب الحسيني، الذي كان أخي السيد حامد ينتمي إلى كليهما، هذا من الجانب التّنظيمي وهذا من الجانب الاجتماعي الثوري، وكان التّوجه الثّوري في عقليات الشباب الحسيني قد انطلق لأسباب كثيرة منها: اليأس من الأمل في وجود قيادات حركية تستوعب النّاس وآمال الجماهير، في الوقت الذي كان التيار الديني المتمثّل بالحوزة العلمية قد أعلن وبكلّ صراحة عن موقفه الذي سار عليه منذ أن تأسّست الحوزة. لنقل بعد الشيخ الطّوسي (ت 1039م)، أو بالتّحديد بعد ابن إدريس الحلي (ت 1117م) بأنّ الحوزة العلمية هي مدرسة تهتمّ بالدّراسات الدينية والبحوث اللّاهوتية، ولم يصدر من تلك

(1) بغضّ النّظر عن الظّرف الذي تمت به عملية التّحرير أو شكلها أو اهميتها أو ما إلى ذلك، هذا بالإضافة إلى شرعية التّغيير وشرعية الإستعانة بالآخرين.

الحوزة أيّ بحث أو كتاب أو مناقشة تهمّ جانب الدّولة إلّا من بعض البحوث التي هي بحوث قانونية تشريعية موجهة إلى من يهتم بقيام الدّولة، كبحث الشيخ النائيني (ت 1936) في (وصاية الأمة على نفسها)[1] وبحوث العلامة الكركي (ت 1519)، وبحوث الشهيد الصّدر أخيراً، ولم نر أنّ هنالك من توجّه حوزوي فكري لمناقشة فكر أو تشريعات الدولة التي تقام أو الدولة المقترحة فيما إذا كانت دولة دينية، إلّا بعد أن يتمّ ذكر قول (و لكنّ ذلك من اختصاص المعصوم).

هذه الحالة من المجادلة الفكرية لم تخلق تيّاراً شعبياً آخر بجانب التيار الحوزوي في التّصدي لأفكار الحكم، وإنّما كل الافكار التي كانت تنطلق إمّا أن تكون دينية حوزوية، أو أفكاراً وضعية شيوعية قوميّة (تعلن مقاطعتها لأفكار الدين ابتداء)، فالمغيّرون الاجتماعيون والمهتمّون بشؤون واقع الدّولة والحكم لم يحاولوا أن يفكّروا إلّا بمفاهيم (حكم المعصوم) أو (الحكم الديني بديلاً) أو (الافكار المستوردة)، بل لم نجد أبداً من جاء بمفاهيم (إنسانية) تستمدّ من الدّين معينها، تنطلق إلى الأمّة، لكي تعيد ثقتها بنفسها في التّغيير وفي قيادة مستقبلها.

لم نجد ذلك في مسيرة العمل الجماهيري ربما بعد ثورة عبد الكريم قاسم في 1958 وإلى حين سقوط البعث في 2003 وهي الفترة التي كانت ربّما أخصب فترة من تأريخ العراق الحديث.

فقد أكدّت الأحزاب الإسلامية التي تشكّلت في العراق. مفاهيمها في أدبياتها التي كانت مفاهيم أقرب إلى الجانب الثيولوجي الأكاديمي منها إلى الجانب العملي لإنقاذ الأمّة من مأساة الواقع المرير، فمثلاً لم تناقش الحركات الإسلامية واقع:

❖ الفقر المدقع الذي يعيشه النّاس

---

(1) كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) وهو أول أحد أهم كتاب يتحدث في الفقه السياسي لدى الإمامية.

- غياب فرص العمل
- غياب الحرّية الشّخصية
- غياب حرّية التعليم
- التمثيل المتساوي للناس في المجالس البلدية
- غياب الخدمات الأساسية للإنسان كالصّحة والسّكن
- غياب الضّمان الاجتماعي للمعاقين والمرضى والمسنّين
- غياب الانفتاح الدّولي على العالم الإسلامي والعالم الغربي
- مشكلة التّصنيع ومشكلة الزّراعة
- الاستلاب الحضاري
- واقع المرأة المتردي

واشياء كثيرة كانت هي الشاغل الأوّل للفرد العراقي وتهمّ حياته اليومية وتهمّ عائلته. وإن كانت قد ذكرتها في أدبياتها فإنّها تذكرها من الجانب المعيب على السلطة البعثية، لا من جانب علاجها أو مبادئها في التعامل معها، وعندها وفي الحالة الأولى تتحول إلى شعارات سياسية، بينما في الحالة الثانية تتحوّل إلى مبادئ فكرية تنطلق من معاناة الناس، ومن معاناة قيادات الحركات الإسلامية تلك، بل كان جل إهتمام تلك الحركات هو الجانب السياسي[1].

وكان الصّراع هو صراع من يمتلك كرسي الحكم، ولكن بأسلوب آخر

(1) اصدر حزب الدعوة الاسلامية ربما دراستين في هذا المجال (البيان السياسي لحزب الدعوة) كما اصدرت بقية الحركات بما يشبه المضمون نوقشت في الدراسات تلك المفاهيم العامة في نظرتهم إلى واقع الحكم فيما بعد سقوط صدام وكانت كما ذكرت هي دراسات نظرية لانها لم تكتب من قبل اخصائيين في أمور بناء الدولة وانما كانت سياسية أكثر مما هي واقعية بنائية.

يُظهر أمام الناس بأنّ الشرعية الدينية والتاريخية هي حق الحركات الإسلامية تلك، وليس مع النظام القومي أو النّظام الصدّامي البعثي، وعندها وفي مثل هذه الحالات تتحوّل الصّراعات إلى صراعات تدور حول من يملك الشرعية ومن له الحقّ في الانتصارعلى الآخر.

لقد كتبت جماعة العلماء في الأضواء مواضيع مهمة في بداية السّتينيات. وكأنّها وفي ذلك الوقت كانت تتّجه تلك البحوث إلى أهليّة الإسلام في المشاركة في الحكم أو القدرة على الحكم، ويتبيّن من ثنايا مفاهيمها هو أن البديل هو البديل الإسلامي بقيادة علماء الدين أي كاتبي المقالات تلك.

وكتبت الحركات الإسلامية أيضاً نشرات داخلية وبحوث للأمّة كان مجملها هو نزع الشرعية عن الحاكم أنذاك. سواء أكان ذلك الحاكم قومياً (قاسم وعارف وأخوه) أم بعثياً (صدام ورهطه) ولكنهم في ذات الوقت لم يقدّموا البديل الذي تراه الجماهير والناس في الأفضلية التي يتحدّثون عنها، ولماذا كان يجب على الأمة العراقية أن تستبدل حاكماً موجوداً حالياً بحاكم لا تعرفه، ولا تعرف اسمه وشكله وطريقته ومفاهيمه وخطّه في العمل[1] وكان الدّين هو العنصر القويّ الذي استعملته الحركات الإسلامية لإقناع الناس في الانتفاضة على الحكاّم[2] وهذا في رأيي ممكن، ولكن على شرط أن تقدّم تلك الحركة برنامجها العملي الواقعي العلمي في حلّ تلك المشكلة، وبدون ذلك فإنّه لمن الصّعب أن يقتنع الناس بقدرة تلك الحركة على استلام الحكم وإدارته.

هذا الشيء كما اعتقد لا زال قائماً ولا زال الناس ينتظرون من

(1) كما هو الامر مع الواقع المصري في رفض النظرة الشمولية للرئيس فيما بعد انتخابه.

(2) يرى الكثير من المحلّلين السياسيين أنّ الحركات الإسلامية في العالم عموماً وفي العراق خصوصاً كانت قد ربطت مسيرتها الفكرية ومستقبلها بالدّين، وبالطريقة التي تريد أن تنقل الرسالة التي تقول بنقاء الحركات تلك من مفهوم نقاء الدين. وكأن التّلازم هو تلازم شرطي كما يربط المسوّقون التجاريون بضاعتهم بصورة جميلة أو منظر مريح للنّفس.

الحركات الإسلامية سواء أتلك التي تشترك في العملية السّياسية، أم تلك التي خارجها أن تقدم برنامجها في معالجة مشاكل مجتمع العراق التي يعاني منها وعلى رأسها غياب العمل، السّكن، الفقر، الصّحة التي عالجتها بعض الحركات في البلدان الأخرى المجاورة. مثل: حركة حزب الله في لبنان وحركات أخرى في فلسطين وفي تركيا.

في العراق لم تبادر أي من الحركات في وضع تصوّراتها ودراساتها فيما يخصّ حاجة المواطن، كما لم تضعها سابقاً في أوقات النضال السّلبي، وعندما ظهرت بوادر الأمل في قيام نظام، لنقل (إسلامي) في العراق ما بعد الثورة الإسلامية في إيران، أو إبان انطلاقتها ربّما في تاريخ 1975 أو ما قبلها، عندما بدأت المواجهات من بيت (شريعتمداري) (ت 1987) المرجع رحمه الله، بل بقيت حالة السّلبية مسيطرة على تفكير الحركة الإسلامية في العراق بما يخصّ مبادرة تقديم حلول لمشاكل، معاناة المواطن من الخدمات وغيرها من المشاكل الاجتماعية النّاجمة من الحكم القائم آنذاك[1].

كان الشباب الحسيني في تلك الفترة يرى في نفسه أنّه في حلٍّ من المشاريع التي يقدمّها الآخرون من الحركات الإسلامية، أو حتّى من الحوزة ذاتها. وهو ما يفسّر العزوف لدى الكثيرين منهم عن الإصغاء لنداء الحوزة، ولم يستمع إلى رأيها في أيّ من التّحركات التي كانت تنطلق في

(1) كان المرجع السّيد فضل الله (ت 2009م) رحمه الله أثناء زيارته أمريكا في بداية الثّمانينيات وعندما اجتمع إليه طلاب من السعودية والبحرين وعمان والكويت واستشاروه في موضوع التّحرك ضدّ الأنظمة المتسلّطة في تلك البلدان، فكان جوابه بأنّني لا أرى من حلّ عملي في أيّ مشروع أو تحرك ثوري في تلك الأقطار، بل أرى أنّ الحلّ البديل هو المبادرة إلى تقديم الحلول والتّعاون مع اولئك الحكّام في شأن تنفيذ تلك الحلول، فإذا فشلت في تنفيذها فإنّ الشّعب عندئذ سيدرك عدم قدرة تلك الدّولة على توفير حاجات الشّعب، وكذلك حثّهم على تبنّي مشاريع كبيرة في المناطق التي حرمت من خدمات الدّولة، مثل فتح مستوصفات وطرق وخدمات أخرى، لكي يشعر الشّعب بأنّ الحركة الإسلامية تنطلق من حاجة الشّعب وليس طمعاً في سلطان.

مواجهة السّلطة، وحتى عندما زار الشهيد السيد محمد باقر الحكيم (ت 2003) في خان النّخيلة قادة الانتفاضة، كان الكثير منهم كما أخبرني أخي السيد حامد، وأخبرني آخرون بأنّ الاستياء بدا واضحاً على المشاركين في الانتفاضة بل قال البعض منهم بأنّنا لا نراهم إلّا في أوقات الهروب وهو تعبير ربّما فيه الكثير من التّجنّي، ولكنّه لا يخلو من واقعية إلى حدّ ما[1] وكان أولئك الشباب أي الحسينيون يعترفون في قرارة أنفسهم بأنّهم غير قادرين على قيادة بلد مثل العراق، ولكنهم يجب أن يستثيروا بحركتهم هذه الآخرين من المتصدّين للقيادة في إيجاد حلول للوضع العراقي المعقّد القائم آنذاك، كما أنّهم يعتقدون بأنّ الحوزة لا يمكن لها أن تتحرّك إلّا أن يأتي التأثير من الخارج أي بالضّغط الاجتماعي، وبعدمه فإنّ الفهم الثّوري غائب عن تفكيرهم، فالحوزة لم تصنع شيئاً في تأريخها إلّا من خلال الحركات الشعبية[2].

كذلك ينظر الخطّ الحسيني إلى الحركات الإسلامية بنظرة فيها بعض التّشكيك[3] في نقاء نظرتهم إلى القضية بالعموم، فهم ينظرون إلى السياسيين بمنظار واحد مع الاختلاف بعض الشيء في كبر وصغر هذا التّشكيك.

هذه الرؤى لدى الحسينيين لم تتأتّ من فراغ، وإنّما جاءت بعد معاناة

(1) كان العوام من النّاس والحسينيون منهم وربّما الكثير من المثقفين أيضاً يرون في موقع الحوزة بأنّه المدافع عن مظلوميتهم وعن مطالبهم. وهذا التّصور قد يكون فيه الكثير من حسن النية غير الواقعية التي ترى في الحوزة بأنّها الجهة الشرعية في تحمّل مسؤوليتها تجاه النّاس، وأنا أرى أنّ الدّافع لهذا التّوجه هو الحاجة إلى الإحتماء بجهة ما من سطوة السّلطة.

(2) لانّها في حقيقة الأمر هي عبارة عن مدرسة فكرية، وليست مدرسة ثورية أو سياسية.

(3) كانت الحركات الإسلامية تعيش همّ استقطاب المثقفين من الطّلبة، من خرّيجي الجامعات ومن المتموّلين وغيرهم، ولم تكن تهتم بالطّبقة الشّعبية من البسطاء من النّاس ومن العوام. وهو ما ولّد حاجزاً من التّفاهم بينهم وبين الحركات الفكرية مع إلقاء بعض التّصورات على نقاء الإنتماء ونصاعة الهدف.

مع الواقع الّذي يعيشه النّاس، ومع عمق الظّلم الذي تسلّطه الحكومة البعثية في ممارساتها، ومن دون أن تقوم أي من الجهات السّياسية الإسلامية، أو الحركات التي ترى في موقعها بأنّها الجهة المرشّحة إلى أن تقود الجماهير في مقاومتها، أو الاعتراض عليها لا نظرياً ولا حركياً، فلا ترى منها أية مبادرة باتّجاه الخلاص، وهذا ينطبق على الحوزة العلمية أيضاً، ما عدا حوزة السيد الشهيد كما يقولون هم، ولذلك فإنّهم أي الحسينيون لا يمثل وجودهم في المجتمع النجفي في نظر كلتي الجهتين إلّا إثارة المشاكل، وتعقيد الساحة ممّا يسبب في ارتفاع وتيرة المواجهة والعنف من قبل السّلطة.

هذه الآراء كنا نسمعها ونتناقش بها مع الشهيد السّيد حامد، ونعرضها على البعض من قادة الانتفاضة، وخصوصاً أولئك الذين لهم حظّ من التّقوى والعلم والمعرفة، مع أنّ الكثير منهم هم من الطّبقات الشّعبية العامّة التي ترى الأمور بالمنظار البسيط الذي يختلف عن المنظار التي تراه الحركات الإسلامية المثقّفة أو خطّ الحوزة العلمية.

لم تظهر على أخي السيد حامد خلال عمله في العمل الإسلامي، ولا في سلوكه العام أو الخاص ما يقدح بقياديته، ولا في استمراره في التصاعد نحو الفضائل والمعرفة، وقد كنت ألتقيه في مناسبات كثيرة في بغداد ومعه مجموعة من الشباب الذين وضعوا أولى خطواتهم على الطّريق نحو التّديّن، حيث كان يرى هو -كما يروي لي- بأنّه يرى بأنّ الواجب يلزمه في أن يتربّى المجتمع ليس فقط على الأفكار التنظيمية، أو الفكرية التي تلتزم بها الحركات الإسلامية في أدبياتها، وإنّما يجب أن يكون للأفكار الحسينية دور لا يقل عن دور تلك الأفكار، وكان يقول لي إنّنا إن لم نعلّم الإنسان الشيعي مبادئ الحسين، فإنّنا سنكون في طريق لا يختلف عن (الأخوان المسلمين) في نظرتهم إلى الإسلام[1].

---

(1) كان يرى في الخطّ الحسيني عنواناً كبيراً للفقه الشيعي، وكان يأخذ على =

ولذلك فإنّ الإسلام إن لم يتعاشق مع الحسين ومبادئه فإنّه إسلام عام. وهو إسلام معظم المسلمين في العالم، وهم الغثاء الذي قيل فيهم كغثاء السّيل، فما لم يتكاتف الفكر الإسلامي المبدئي مع الخطّ الحسيني وأفكاره وعمق تضحيته، فإنّه لن يتمكّن من الاستمرار في العطاء.

ويضيف لي: بأنّه كان أولاً يزرع في نفوس من يلتزمهم مبادئ يوم عاشوراء السّامية، ومبادئ الثورات التي تلت ثورة الحسين عليه السلام الكثيرة، ثم بعدها يجد ذلك الشّخص نفسه بأنّه صار في المستوى الذي يتمكّن من أن يتقبّل الأفكار الأخرى التي تبثّها الحركات الإسلامية، مثل: مبدأ الدّولة الإسلامية والقيادة الشرعية وغيرها من الأفكار التي على المسلم الواعي تعلمها والتي معظمها موجود في كتابي السيد فضل الله[1]، بالإضافة إلى أفكار القادة الكبار من أمثال الشيخ العلّامة الكبير عبد الهادي الفضلي (ت 2013) (في انتظار الإمام)، و(من هنا نبدأ) للشمّري فضلاً عن الأدب الدّاخلي للحركة الإسلامية في النّشرات الخاصّة للحزبيين كما جاء في نشرة (الأدب الرّسالي) ونشرة (الأمراض الحزبية) ونشرة (من نحن).. إلخ من النّشرات التي كتبت في السّتينيات ثم تمّت طباعتها في كتاب صدر اسمه (ثقافة الدّعوة الإسلامية) التي كانت المنهج للتّربية الفكرية لكلّ من ينتمي إلى الحركة الإسلامية.

= (الاخوان المسلمين) بأنّهم حركة خالية من العواطف ومن مفاهيم آل البيت عليهم السلام وليس من باب الاختلاف المذهبي أو الطائفي، وفي الواقع لم يكن هو ولا الخط الديني في العراق يدرك مفاهيهم الحداثة المهمة مثل مفهوم (الثقافة) وأن الفكرة الحسينية هي ثقافة قبل أن تكون عاطفة وبغياب تلك الثقافة يفتقد الجامع الذي يحوي أطياف المجتمع العراقي.

(1) "قضايانا على ضوء الإسلام"، و"خطوات على طريق الإسلام" التي اصدرهما قبل عقود مضت من الزمن.





إمتحان عسير



وابتُليت الحركة الإسلامية العراقية بظرف لم يكن في صالحها من النّاحية الأمنية والفكرية، في الوقت الذي كان العراقيون يتطلّعون إلى جهة ما، لها القدرة على بناء مستقبلهم السّياسي والاقتصادي في بلد تزداد نسبة الفقر لتصل ربّما إلى أكثر من 50% من عدد السّكان[1].

وكذلك إنتشار الأمّية لتصل إلى نسبه أكبر من تلك النسبة، إذ إن البعض من التّقارير -غير الموثّقة- تقول بأنّها أرقام كبيرة ومخيفة، لا مثيل لها ما بين دول الجوار، وبوجود عوامل مثل الفقر والأمّية وانعدام الحالة الصّحية الجيّدة، والسّكنية والاستقرار العائلي، فإنّه لمن الصّعب جداً أن تتمكّن الحركة -أي حركة- كانت من التأثير المبدئي في كيان المجتمع، لأنّ الحركات الفكرية تنمو في جوّ تسوده عوامل معينة، أهمّها هو الحالة الاقتصادية والاجتماعية اللّائقة.

لقد قاومت الشعوب في زمن من الأزمان الاستعمار بدوافع دينية بحتة، وانتشرت إلى أن صار الدّين صنواً لرفض الاستعمار، وأعني بالاستعمار هو الاستعمار المباشر كما كان في الهند وفي العراق ما قبل سنة 1945، والاستعمار في الخليج وجنوب إفريقيا وغيره، ولكنّ الاستعمار المباشر قد زال بصورة نهائية من العالم، وذلك حسب مقرّرات

---

(1) رقم غير موثّق لعدم توفر الاحصائية العلمية التي يستند عليها، ولكن هكذا يقرر المطلعون على الواقع العراقي. مع إن تقارير الأمم المتحدة ترى نسبة 23% وذلك اعتماداً على إحصائيات غير دقيقة لا مجال لمناقشتها هنا، يمكن مراجعة ما يخص الموضوع على الموقع التالي:

Iraq Facts & Figures, Poverty & Unemployment UN, (http://iq.one.un.org/Facts-and-Figures).

الأمم المتّحدة التي أنهت تلك السّيطرة المباشرة، واعطت للشعوب حريتها في اختيار النّظام الذي تريده (حقاً أو باطلاً)[1].

نعم هنالك صراعات كبرى تستعر بين القوى الكبرى على خيرات بلد ما، ولكن كلّ تلك الصّراعات هي صراعات ليست مباشرة، وإنّما صراعات نفوذ مثل تلك التي تقوم بها الدّول الكبرى والضعيفة أحياناً (الحرب الباردة) وحسب موقع هذا أو ذاك.

في العراق أبتليت الحركة الاسلامية بظروف صعبة، وعلى أثرها لم تتمكّن من أداء رسالتها التي كان لها أن تؤدّيها، في الوقت الذي لم يكن المجتمع العراقي يدرك المعنى الحزبي بالصّورة الّتي تراها الدّول العالمية المتقدّمة التي تهتم بالتحزّب من أبواب الحصول على مطالب الجماهير من خلال البطاقة الانتخابية.

أمّا في العراق فإنّ المفهوم الحزبي ما هو إلّا عبارة عن حالة من ردود الفعل التي تجعل العراقي ينخرط بحزب ما، إمّا لأنّه ينتمي إلى مذهب معيّن، أو طائفة أو قومية معينة، وأحياناً من أجل الاستناد على جهة قويّة قادرة على تحقيق وجوده في الحياة.

هنالك ربّما ولكي لا نهدر حق الناس كلهم، هنالك النادر من يفكر بعقلية الحزبي الغربي الذي يكرّس الانتماء إليه، ليس لهذا ولا لذاك وإنّما لتحقيق مطلب معين في انتخابات معينة، أو لمشروع معين بغض النظر للحالة الانتمائية القومية أو الدينية أو الاقتصادية. وهكذا هي فكرة الحزب في العالم الغربي والعالم الشرقي، وفي معظم الأحزاب في الدّول التي تبنّت الأسلوب الدّيمقراطي في العالم اليوم.

(1) إلّا إذا كانت الشعوب تنادي ببقاء الدّولة المستعمرة على أراضيها بطريقة معيّنة، وترى تلك الدولة بأن العمل مع الدّولة المستعمرة هو عمل تكاملي وليس عملاً تقاطعي كما هو الحال في البعض من الدول التي لا زالت ترفض الخروج من فكرة الإستعمار المباشر.

في العراق الانتماء للحزب هو فكرة مسبقة[1] لدى الإنسان العراقي والتي غالباً ما تقوم على مبدأ الانتماءات العرقية، القومية، المذهبية. . . الخ، هذا النّوع من الانتماء لا نسمّيه انتماءاً حزبياً، بل هو انتماء إيديولوجياً، إذ تستغلّ قيادة تلك الأحزاب الظّرف السّياسي، لكي يزدادوا تعلّقاً بالحزب بسبب غياب الأمان (Security) لدى الناس وتفرض عليهم أن ينتموا إلى جهة قوية لحمايتهم من سطوة الآخرين. وما لم تتبدّل فكرة المجتمع العراقي عن أصل الفلسفة الحزبية، فإنّه من الصّعب أن تنمو المسيرة الحزبية العملية المنتجة في العراق كما هي مسيرة العمل الحزبي في الغرب.

ولقد أدرك الشّهيد الصّدر ذلك متأخراً. وربما بعد أحداث 1974 بسنة أو سنتين والتي على أثرها فكر في خطوة غريبة على مسامع الحزبيين في العراق، وخصوصاً الإسلاميين منهم، تلك الفكرة هي العمل على رفع (مستوى الأمّة) قبل العمل على (فكرة التحزب)، أي خلق كيان (ثقافي) جامع لواقع الأمة العراقية أكبر من واقع الفكر (الحزبي) الايديولوجي، باعتبار أن الأمة العراقية لم تتملك يوماً كيان (ثقافي) منذ أيام صدر الاسلام والى الآن.

وكانت فلسفته هي أن الأمة ما لم ترتفع إلى تلك الدّرجة التي تتفهّم معاني الدولة والتي أهمّها كانت هي فكرة (الحرية الشخصية) وفكرة (الديمقراطية) فإنّ الحزب يتحوّل إلى وبال على المجتمع، لأنّه يحمل في طياته عوامل النّزاع، ويكون دوره في المجتمع كدور الفكرة الطّائفية تماماً،

(1) تسمى في المصطلح السّياسي الفكرة الأيديولوجية ويسمّى الحزب هنا الحزب الأيديولوجي أو في بعض الأحيان الأصولي، وهذه الاحزاب غالباً ما تبحث عن تحقيق فكرة دينية أو اجتماعية أو سياسية، كالحزب القومي السّوري الاجتماعي في لبنان الذي يدعو إلى فكرة سوريا الكبرى، وبعض الاحزاب التركية التي تدعو إلى الفكرة الطورانية في مسيرة الدّولة التّركية، وكذلك الامر مع بعض الأحزاب الفرنسية التي ترمي إلى إعادة الأمجاد الفرنسية السّابقة.

ولكن بوجه آخر. كما رأينا الوضع اللّبناني الحزبي والحرب الأهلية الدّامية إبّان السبعينيات من القرن الماضي.

وكانت فكرة الشّهيد الصّدر في تفهّم العلاقة الحزبية الاجتماعية قد ولّدت في نفسه روح العمل على رفع مستوى ذات الفرد العراقي من ناحية تحسيسه بأهمية الوجود الثقافي للامة، وخصوصاً المثقّف الحزبي منهم وبالذّات الشيعي، فكتب من أفضل ما كتب في عالم رفع مستوى الإنسان في الجانب العبادي في كتابه (نبذة في العبادات والمعاملات) وبحق لم أجد من ناقش تلك الفكرة من المفكّرين الإسلاميين أعمق مما ناقشها الشّهيد الكبير، كما كتب في مواضيع التّحرّر الفكري (الحرّية الشخصية والفكرية) أيضاً كأفضل ما يمكن أن يكتب في عالم الفكر. وذلك في كتاباته القيّمة (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) (التفسير الموضوعي للقرآن) وبقية كتبه التي كتبها بعد ذلك التاريخ التي كانت فعلاً تحفة من تُحف الفكر الإنساني.

ويبدو أنّه رحمه الله كان له أن يخلق كياناً ثقافياً للمجتمع يتبنى هذه الأفكار وبصورة عملية لا بصورة نظرية، وعندما بحث لم يجد في ذلك من له القدرة أو الخلفية على تقبّل هذه الأفكار، وذلك لأنّ هذه الأفكار لا تتأتىّ من القراءة، أو المحاضرات، وإنّما هي أفكار يكتسبها الإنسان من المجتمع، ثمّ يطبقها ويتعلّم الناس منها، كما هي حال المجتمعات الغربية، أو أن يقفز الإنسان بعقله ويتحرّر من قيود الأفكار التي تربطه بالموروث، ثم يبني عليها الأفكار الجديدة التي تحمل عوامل التّطوير تلك، وفي كلتي الحالتين فإنّ الظّرف السّياسي والاجتماعي لا يسمح للعاملين السابقين من منتمي الحركة الإسلامية من تفهمّه أو تحقيقه على أرض الواقع.

فالمجتمع هو مجتمع شرقي لا يمارس تلك الأفكار على أرض الواقع ابتداء، كما أنّ التحرّر من الأفكار الموروثة التي يقرأها الإنسان المسلم النجفي أو الشّيعي، لا يمكن التحرّر من جذورها أبداً في ظلّ الظّرف

السّياسي لنظام البعث الحاكم، وعليه كان الشهيد الصّدر في مرحلة ما بعد الهجمة الشرسة التي ضربت فيها الحركة الإسلامية، يراهن على دماء جديدة للفكرة الجديدة، وكان يعتقد بأنّ الخطّ الشّبابي الحسيني النّاهض الجديد من الممكن له أن يستوعب ويكون المرشح لتفهم تلك الأفكار، ولكنّه أيضاً اكتشف أنّ هذا الخطّ يعيش في مساحة مشحونة بالعواطف والولاءات، ممّا يعيقها عن استلهام الجانب الفكري الجديد في فكرتي (التحرّر الدآخلي) وفكرة (الحرّية الشّخصية والديمقراطية).

الفكرة الحزبية النّمطية تتبلور في خلق حزبيين مبدئيين، مع أن المبدئية في العمل الحزبي ليست بالضرورة أن تكون هي المطلوبة في واقع العمل الجماهيري، وإنّما المبدئية الفكرية لها مجالها في طريقة علاقة الفرد أو المواطن مع فكرة الوطن والدّين، وفكرة الله، والإنسان... هذه المبدئية هي التي يقام عليها الادب الحزبي، ويستثمرها الفرد الحزبي (المواطن) في تحقيق أهداف حاجة الشعب.

فالحزبي في العرف الاسلامي الواقعي هو ذلك الإنسان الذي يحقق قدرة الفكرة (النظرية) في تحويلها إلى نتاج واقعي، أما المبدأي المسلم، أو الداعيّة فان مساحة عمله هي أكبر من تلك المساحة، وهي ليست محصورة بواجبات الشّخصية الحزبية فقط، وإنّما هي فكرة عامّة يسأل عنها كلّ أفراد المجتمع وربّما الحوزة أيضاً كما هي الآية الشّريفة التي تحدّد مسؤولية طالب العلم[1].

ويبدو أنّ الشهيد العظيم أخيراً وجد من الحوزة العملية طريقاً آخر لتفهم دور الإنسان المبدئي (و ليس الحزبي السّياسي) لأنّه كان يرى أنّ هنالك ضرورة لخلق (الثقافة) قبل خلق (الحزبي)، ولم يجد أسلم وأفضل من الحوزوي الذي يحمل المبادئ المعرفية والعلمية في الحياة، في الوقت

(1) ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

الذي كان يرى الشّخصية الحوزوية هي من انعتق من الأفكار الموروثة القديمة المتشرّبة بمبادئ الذّات أكثر من مبادئ الفكر، فتوجّه لها ليخاطبها بشكل معين وبأسلوب معين كان يرمي من خلاله الابتداء بالمشروع الكبير: مشروع بناء الإنسان العراقي استناداً على قاعدة ثقافية اجتماعية جامعة، فكان يقول دوماً: إنّ فكرة البكاء على الحسين عليه السلام هي فكرة معطاءة وإيجابية إذا كان البكاء لتحرير النفس، بينما تتحوّل إلى فكرة سلبية إذا بقيت في حدود الموروث من النّدبة والأسى وغيرها وهكذا.

ولو قرأنا مفاهيم الشهيد الكبير الصدر لوجدنا المنعطف الذي توصّل إليه في مرحلته الجهادية في بناء الإنسان الوطني، في الوقت الذي ترك الآخرين في مهمتم البنائية التي تتمازج مع ما يريدون بناءه في واقع الظّرف السّياسي الجديد. وهو البناء الذي يليق أكثر ما يليق ويتناسب مع المثقّف الجامعي وأوساط المتعلّمين والموظّفين وغيرهم من الطّبقات التي تميل أكثر ما تميل إلى الأحزاب السياسية، المتشربة بالمفاهيم الفكرية والدينية والوطنية وهذا تماماً ما ينطبق على الحزبيين الذين غالباً ما وجدهم الصّدر وقد تحوّلوا إلى نخبة وليسوا إلى امتداد جماهيري.

وكان يرى إنّ الامتداد الشّعبي المكثّف الذي يضغط على الحوزة، وعلى الحكّام هو المد الجماهيري العام من العمّال والفلّاحين والطلبة والعسكريين وغيرهم، وهكذا كانت تمتدّ الفكرة الحسينية عميقاً في وجدان أفراد تلك الطّبقة، وهم الطبقة التي كان يعدّها الشهيد الصدر للثورة المستقبلية، لرفع الحيف والظّلم عن كيان المجتمع على شكل مسيرات وحركات جماهيرية، كما حدث في بلدان الربيع العربي، أو كما حدث في إيران قبل الانتصار الإسلامي، مع أنّ الشهيد كان يرى في النّموذج العربي أقرب إلى الواقع العراقي عمّا هو الواقع الإيراني، حيث كان للمرجع دور كبير ومؤثّر في عمق المجتمع الإيراني وسيكولوجيته.

حصلت الثورة الإسلامية في إيران فكان للشهيد أن يغيّر من خطّته

اعتقاداً منه في أنّ له من الإمكانية أن يعتمد على دولة لها قدراتها وطاقاتها في تنفيذ البرنامج لبناء الإنسان في العراق[1]، الإنسان المتحرّر ذو العقلية الدّينية المنفتحة التي تحمل شعار الوطنية مبدأً لها، وعندما بدأ التحرّك الذي كان -كما أعتقد- أنّه لم يكن أبداً برنامجاً يحوي عنصر المواجهة مع السّلطة، لأنّ المواجهة مع السّلطة عملية خاسرة على الأّقلّ من ناحية بناء البرنامج، ولكنّ السّلطة عاجلته في عملية لا أعتقد إنّها من أفكار صدام بالذّات كما يعتقد الكثير منّا، وإنّما هي أفكار مجملها نابع من جهتين وهما: نفس الجهتين اللتين تقودان العملية الإرهابية العالمية اليوم وهما: الصّهيونية العالمية[2] والثانية هي الجهة الدينية السّياسية (الإسلامية)[3].

ولكنّنا نؤكّد أيضاً بأنّ صدّاماً كان قد شارك تلك القوى في رأيه بالتخلّص من الشهيد الصدر، ولكن الفكرة الأساسية كانت من عنديات تلك القوى العتيدة التي بدأت تطغى في العالم، بل بدأت تتحالف وبشكل لم يتوقّعه أحد مع القوى الأخرى التي تنظر إلى نفس هدف الحرب على فكرة (الدمقرطة الاسلامية العربية) و(الحرية الشّخصية) التي كانت عنوان مبادئ الشهيد في الابتداء بحركته الاجتماعية والدينية، مع أنّ البعض كان يرى أنّ

---

(1) أهم ما يميز الشعب الايراني عن العراقي هو أن الاول يمتلك ثقافة جامعة تتشكل من الدين، المذهب، القومية، التاريخ، الادب، بينما لم تتوفر لدى الشعب العراقي من ثقافة جامعة.

(2) ليس بالضرورة ان تكون إسرائيلية أو يهودية.

(3) أسمّيه التّسنّن السّياسي. وهي الفكرة التي لا تختلف في أدبياتها عن القاعدة وبقية الذّيول المرتبطة بها، التي تنتشر في زوايا الدّول العربية المحيطة بالعراق وفي مصر وفي الباكستان وغيرها من دول العالم التي كانت سوريا تمثّل الثّقل الأكبر من ناحية الحرية في الحركة. في الوقت الذي كانت السعودية تمثّل المركز المالي والاقتصادي لها، ولقد كان هنالك الكثير من التحالفات التأريخية ما بين الخطّين السياسيين أعلاه بعد وفاة الرّسول ﷺ واستمرّ إلى ما يقارب أكثر من قرن ونصف، وللمزيد في ذلك لابأس بمراجعة كتاب عبد الله العلايلي المسمّى (سمو المعنى في سمو الذات) وكذلك كتاب (اليسار واليمين في الاسلام) الذي يشير العلاّمة الكبير العلايلي في كتابه إلى تحالف الحزب اليهودي مع الحزب الأموي في إيصال البعض من الخلفاء إلى الحكم.

التحالف الصّهيوني (التهوّد السياسي) مع (التسنّن السياسي) كان تحالفاً أيديولجياً لضرب (التشيع السياسي)[1] مع أنّني لا اعتقد بوجود تيّار فاعل للتشيع السّياسي أنذاك[2] ولكنّ المشكلة هي أنّ القوى الكبرى، وخصوصاً القوّتين اللتين ذكرتهما كانت تقيس التشيع السّياسي في إيران على الوضع العراقي، وكانت تعتقد بأنّ الدولتين العراق وايران مع اختلافهما القومي فإنّهما تتشابهان في ظروف العمل السياسي وهي من الأمور التي خدعت الكثير من سياسيي العالم بسبب الفهم الخاطئ الذي زرعته أدبياتة وتقارير الدول العربية وبريطانيا أيضاً في فترة استعمارها للعراق بأنّ التشيع العراقي هو امتداد للتشيع الإيراني من حيث الرؤى السياسية والرؤى الاجتماعية، وهو ما حدى بالكثير من المحلّلين السياسيين وصنّاع القرار الغربيين إلى الوقوع في خطأ التقييم وخطأ التنفيذ... وهو الخطأ الجسيم الذي وقعت بهما القوتان السابقتان اللتان ذكرناهما، وخصوصاً قوّة (التهويد السياسي) لأنها كانت أسيرة لتقارير مضلّلة كانت قد وصلتها خلال عقود طويلة من الزّمن.

هذا التبدّل في نظرة الشهيد الصدر إلى واقع الأمة هو الذي يهمّنا

(1) نعم هنالك تشيع سياسي ولكنّه لم يكن له دور في العراق يذكر أنذاك... نعم كانت هنالك بوادر ولكنّه لم يكن مما يمكن أن نجد له أسساً مبدئية أو تشريعية أو فقهية، كما هي مبادئ القاعدة الآن، ولكنه كان يسير بخطى حثيثة تتخفى في الكثير من الأحيان ما بين الحزبيين الشيعة، وبين التكتّلات الطّامحة إلى الحكم، ولكنّها تماماً كانت غير موجودة في أجندات الحوزة أو المدرسة الفكرية الشيعية وأفضل من ناقش المفهوم في الواقع الشيعي هو الشهيد علي شريعتي في أهم كتبه (التشيع الصفوي والتشيع العلوي).

(2) إنّ الفرق الإسلامية المتبرعمة من الشيعة كانوا في السابق يعيشون المفهوم بصورة واضحة، وكان ذلك طاغياً على تحركاتهم كالإسماعيلية والزيدية وعلى ضوء ذلك أقاموا دولا عدة كالفاطمية والبويهية والحمدانية، والزيدية، أمّا الواقع الحالي فإنّ التشيع الذي يمثّله الجسم الكبير وهم الاصوليين الآن فإنه لا يؤمن بقيام دولة (فكرية) إلّا بحضور المعصوم مع بعض الإختلافات كالإمام السيد الخميني وغيره (نظام الحكم في الإسلام، شمس الدين).

هنا، وهو الذي قيل به القليل وتجنّبه الكثيرون، وذلك لكي لا تخدش مشاعر البعض من محبّي الشّهيد الصّدر، ولكنّنا هنا لسنا في مجال الخوض في هذا الجانب أكثر من التفهّم الذي نحتاجه في إدراك معنى القفزة الفكرية، التي يحتاجها المجتمع العراقي في مسيرته التي يجب أن يبنى على أساسها مستقبله، والتي كنا نعتقد بأنّ التّحولّات الفكرية لشخصية عملاقة مثل الشهيد الصّدر لم تكن بغائبة عن فهمه، خصوصاً في ظلّ التغيرات العالمية التي رافقت العالم والتطوّر التكنولوجي على المستوى الفكري والأكاديمي.

فقد أثار الكثير من المتابعين لمنهج الشّهيد الصدر ممّن أحاط بفكره، والتحوّلات التي حدثت في طريقة أدائه في تعامله مع الواقع العراقي تظهر مدى عمق التأثير في التغيير على مستوى ما بدأه في شبابه من الإيمان بالخطّ الحزبي (العراقي الفهم) ومحاولة التغيير إلى تسويق المفاهيم الإنسانية الكبرى التي ذكرتها (خلق ثقافة اجتماعية جامعة) (الديمقراطية) و(الحرّية الشخصية) وهو ما أكدّه المتابعون الذين كانوا قد اكتشفوا بأنّ المقرّبين من الشهيد الصدر لم ينتموا إلى التيارات الحزبية، لا قبلاً ولا بعداً، بل إنّ الذين انتموا في السابق قد وجدوا لهم طريقاً في الانتقال من تلك المرحلة إلى المراحل الأخرى التي تتوسّع دائرتها إلى المفاهيم الإنسانية الكبرى، من الّذين تركوا العمل الحزبي في حياة الشّهيد نفسه وبدأوا يخطّطون لمستقبل إنساني للإنسان العراقي.

وليس هنالك أكبر مثالاً من الشهيد الثّاني السّيد محمد محمد صادق الصّدر (ت 1999) الذي انطلق ليحقّق أفكار أستاذه الشهيد الذي لم يتمكّن من تنفيذها في حياته، بعد أن عاجله الظالمون في القتل، فانبرى لها هو بقدراته وطاقاته وبأسلوب لا يعوزه التّخطيط والدّقة في تقديم المفهوم الإنساني ذلك إلى أمّة العراق، وبشكل كان للتيار الحسيني الذي أسّسه النجفيون الأبطال وهو الجيل الثالث منهم لأنّ الجيلين الأولين قد انتقلا إمّا إلى الباري عزوجلّ أو غادروا العراق. وهو ما وجد نفسه بأنّ عليه أن يبدء

خطته التي كان هدفها هو تحرير داخل الإنسان أولاً، وتأسيس مبدأ الحرية الشخصية ثانياً.

وفي بدايات التسعينيات من القرن الماضي، وبعد حرب الكويت توجّهت الأمة بجلّها إلى القيادة التي كانت مجهولة في معناها وشخصها، وكان الحسينيون في ذات الوقت قد وجّهوا طاقتهم إلى السّيد الشهيد الثاني، الذي كان أثناء فترات السّبعينيات من ذلك القرن يتّسم بصفات أكثر ميلاً إلى أن يكون متحفّظاً في معارضته للنّظام، بل كان له رأي خاص بمسيرة الحركات الإسلامية عموماً، وهذا التحفّظ منبعه ليس من رفضه لفكرة الحركة الإسلامية، لأنّ الكتب التي كتبها في الستينيات، التي تخصّ بحوث (الغيبة الصغرى) و(الغيبة الكبرى) كانت تتّسم بالجانب الحركي الواضح، وتتّسم بإيمانه بقدرات الجماهير في تغيير النّظام عن طريق التّنظيمات والتشكيلات الشعبية، لا التشكيلات الحزبية النّخبوية، وإنّما كان تحفّظه وكما يبدو على شكل ذلك التنظيم أو هذا التنظيم.

وقد كانت فترة السبعينيات أثناء وجودي في العراق أرى أخي السيد حامد الشهيد يحتفظ مع الشهيد الثاني بعلاقة خاصة، مع أنّه -أي الشهيد رحمه الله- كان من نوع الشخصيات من الصعوبة أن تقيم علاقات مع الآخرين، لأنّه كان رجل علم وبحث يحسب للوقت حساباً كبيراً، بالإضافة إلى الحذر الشّديد من السّلطة، ولكنّه كان ينتقي البعض من الشّخصيات والشباب يتعرّف عليهم ويواصل معهم العلاقة، حتّى وإن كانوا في أعمار مختلفة، وقد كان أخي السيد حامد يقدّر من هو الشهيد الثاني. في الوقت الذي لم يكن المجتمع النجفي على اطّلاع في قدراته وقابلياته، إلّا البعض القليل من الحسينيين من أبطال الانتفاضات التي انطلقت في النّجف، ولم يكن لي علم مفصّل عن طبيعة الأحاديث أو طبيعة الزّيارات التي كانت تجري بينهم وبينه، بل كنت أرى أنّ هنالك علاقه مميّزة يوليها الشهيد الثاني بالبعض من مجاميع الخط الحسيني الملتزم.

والشهيد الثاني في كتاباته كان يرى ويعتقد بأنّ القدرة في الأمة هي القاعدة الثقافية الشعبية العددية، وأنّ الخطاب يجب أن يكون دوماً لها، وأنّ النّخب الفكرية هي نخب خاصة لا تغير من كيان الأمة بشيء إلّا القليل، ولذلك فإنّه كان دائماً حذراً في تقييم النّخب التي تمثّل الحركات الإسلامية، وقد اختلف أكثر من مرة فكرياً مع البعض من القادة الفكريين، والقادة الحركيين في دور الحركي ودور العالم والحوزة، وأيّهما يعطي لأيّهما. في الوقت الذي كانت الأمّة في السبعينيات لا تريد الخوض في مثل هذه الأمور لأنّها أمور ليس من إختصاصها، باعتبارها تتطلّع أولاً وأخير إلى قيادة تقودها في عصور سيطرت الأنظمة المتسلّطة الحاكمة التي كانت تحكم العراق.





الوداع الأخير



في يوم سفري إلى الولايات المتّحدة الأمريكية للدّراسة هنالك قبل 34 سنة تماماً وفي السّنة التي اعتلى صدام فيها الحكم في العراق. وكانت من أشدّ السّنوات قساوة على العراقيين، وجدت هنالك أخي السيد حامد ينتظرني مع والدي المرحوم في يوم تأريخي لا يمكن لي وصف قساوته على نفسي في الوقت الذي كان أمل العبور من المطار ومن تفتيش الأمن محفوفاً بالمخاطر ومن سابع المستحيلات إذا صحّ التعبيرّ!

وكنت أعلم بأنّ أمر إلقاء القبض عليّ كان سارياً، وإنّهم غالباً ما يعتقلون المطلوب خلال عبوره من المطار، وكان أبي الشهيد قد جاء مع أخويّ السيد أمين وحامد لتوديعي وربما للمرّة الأخيرة التي كان لي أن أراهما فيها. . . . إقتربت من أخي السيد حامد وسألته عن نظرته إلى الّاحداث والأمور ومستقبله في العراق، لم يجبني بوضوح، فقلت له: أخي الكريم أنا أخوك الكبير فاسمع لي، لما فيه صالح العائلة وصالح المجتمع، هذه العصابات سوف لن ترحمك أبداً، فاخرج وبأسرع وقت من العراق، ثم أعطيته بعض المال وكما أذكر 120 دينار وكانت أنذاك مبلغاً كبيراً، وقلت له: أرجوك أن تغادر العراق وبأسرع وقت، لأنني كنت على علم بأنّه في طريقه إلى الدخول في صراعات مسلّحة مع السلطة، وبسبب طيب روحه وسماحته. فإنّه قد يكون هدفاً سهلاً للاغتيال عاجلاً أو آجلاً.

أجابني وبسرعة: بأن السيد الصدر قد حرّم الخروج من العراق، قلت له: لا أعتقد بذلك، بل إنّ البقاء في العراق هو لأناس خاصين ترتبط مصالحهم وعوائلهم بعدم ترك وطنهم، أمّا أنت فإنّ عائلتك قد قدّمت الكثير من التضحيات، وأنّ أباك يحتاجك في هذه الظّروف المريرة، ولا يجوز أن تجعل نفسك لقمة سائغة بيد هؤلاء الأوباش، وأن العمل

الجهادي ليس بالضرورة أن يكون جهاداً بالسّلاح والقتل، ثم أخبرته بأنّ الكلمة أحياناً أمضّ من السيف، وأنّ العقل دوماً أبدع من الرّصاصة. لم يجبني، بل كان أبي يستمع لي وهو أيضاً صامت أمام لحظات تراجيدية لا يمكن من السهولة إختيار الكلمة للتعبير.

وكان أبي الشهيد يعرف قيمة تأثيري على أخي السيد حامد، لانني كنت من فتح له آفاق العمل والإيمان، وإنّما كنت في الواقع السّبب لسلوكه هذا الطريق، طريق العمل والتضحية والتغيير، وكان يرى أنّ قدرتي وتأثيري ربما يكون أكبر من تأثيره هو على السيد حامد، فكان مسروراً من كلماتي التي كان أبي نفسه قد نقلها لي في بعض اللحظات، ولكنّني وبسبب قساوة الظّروف التي مرّت على عائلتنا والتي أحياناً لم تتمكّن والدتي من معرفة من هو المعتقل من أولادها، ومن هو خارج السّجن. . .

فالعائلة غالباً ما يكون الكلّ من أفرادها هاربين خشية من سطوة عناصر المخابرات، وازدادت الأزمة باعتقال أبي مرتين متتاليتين إحداها في سنة 1978 والثانية في سنة 1979. وقد خرج للتوّ من المعتقل من سجون الأمن العام من الشّعبة الخامسة الرهيبة. وقد خرج وهو في وضع صحّي مؤلم جداً لنا نحن أبناءه، وقد اعتقل كلّ من في البيت من الرّجال وقد لاقوا ما لاقوا من قساوة التّعذيب وشدّته، وهو ما أضاف لتفكيري -و في تلك الظّروف- شعوراً في أنّ المقاومة المسلّحة مع النّظام الصدامي ليست بذات جدوى وبالطّاقات التي عندنا وبالقدرات التي نتملّكها، وبطبيعة التّخبط في التخطيط في المواجهة، ولذلك فإنّه يجب علينا أن نعيد التفكير ثانية بالطّريقة الفضلى للمواجهة، فالشّعوب قد سلكت أكثر من طريق للتغيير كان أحدها هو السلاح، ولكنه ليس هو الطريقة الوحيدة التي نمتلكها، فليس من الشّجاعة أن يواجه أعتى الابطال طفلاً يحمل بندقية صغيرة في الوقت الذي تتمكن أيّ بندقية يحملها جبان أن تقتل الإنسان.

إنّنا نواجه صداماً أنذاك بطاقات وقدرات أقلّ من القدرات اللّازمة لإسقاطه، وقد أثبتت الحرب العراقية الإيرانية فيما بعد صحّة المقولة تلك

فصدام ونظامه لا يسقط إلّا إمّا بثورة شعبية عارمة كبرى، وإمّا بتدخّل خارجي وكلا الخيارين كانا غير متوفرين في تلك الظّروف، وكان على الحركات التي تقاوم صدّاماً إمّا أن تعمل على النطاق الاجتماعي الواسع لحشد الأمّة للخروج بمظاهرات، أو القيام باعتصامات ضخمة على الطريقة الإيرانية (أنذاك) أو بأية طريقة كانت، كما بقية الشعوب التي انتظرت إلى اليوم حتى تمكّنت من أن تحضّر مستلزمات النّجاح والثّورة، أو أن تقنع القوى الكبرى بخسارة المراهنة عليه والعمل معاً في إسقاطه، ولكن من خلال ثورة شعبية مساندة من الخارج.

غادرت العراق بعد عناء طويل ووصلت إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، وصرنا هناك نواجه النّظام بأسلوب آخر، أسلوب التحشيد الإعلامي والفكري، وتغيير عقليات السياسيين الأمريكان والصحفيين نحو طبيعة النّظام الصّدامي، في الوقت الذي كنا نعدّ العدّة للقيام بمشروع كبير لإعادة ثقة العراقيين بالمقاومة العراقية التي بدأت تنضج في الدّاخل، وكنت في ذلك الوقت على اطّلاع وبصورة غير مباشرة على وضع أخي السيد حامد الذي تّحول في عمله إلى المواجهة المسلّحة في شطر الرصافة من بغداد، بالإضافة إلى النّجف وكربلاء.

كانت التشكيلات التي تقود العمليات الجهادية معظمها من الشباب الحسيني، ومن المنتمين إلى الحركات الإسلامية الذين تشرّبوا بمبدأ عاشوراء والحسين عليه السلام، وقد أدركت فيما بعد بأنّ السيد حامد كان قد اهتم بالجانب الجهادي الواسع في المعهد التكنولوجي، وضمّ الكثير من الطلبة والأساتذة والعاملين، كما أنّه تمكّن من أن يجعل من مركز ذلك المكان قاعدة له في تحركّه الجهادي، وكان ممّن عمل معهم من المجاهدين وعرفتهم فيما بعد الشهيد الكبير مظهر العزّاوي[1]، والشهيد

(1) وهو من اهالي منطقة (الكصيريين) في ديالى خرّيج جامعة السليمانية وكان يعمل في المختبر الكيمياوي في بغداد، وهو شخصية جهادية يفتخر بها.

الكبير حامد الخليلي[1] الشهيد السعيد أحمد صاحب[2]، والشهيد السعيد علوان جخر[3]، واسماء كثيرة كلّهم غابوا عن الحياة بعد أن قدّموا دماءهم ذكرى لنا نحن الذين كان لنا أن نقيم على دمائهم مستقبلنا.

خرج السيد حامد من بيتنا في قطيعة شبه نهائية بعد أن كان وجوده في البيت خطراً على الجميع، لأنّ النّظام قد حذّر كل من يأوي المجاهدين من مغبة عقوبة الإعدام للعائلة بأجمعها، فمن العقل له أن يترك البيت ويواصل عمله الجهادي، والوالد والوالدة كانا على علم بتوجّهات ولدهما، ولكنهما كانا في حالة من الألم والشعور بالواجب من أن يوقفوا اندفاعه وتضحياته تجاه ما يطمح إليه من الشّهادة في سبيل الدين والحسين عليه السلام.

غاب السيد حامد عن بيته قرابة السنة في زمن كانت الحرب العراقية الإيرانية مستعرة على أوجها، وفي وقت كانت المخابرات العراقية وبذريعة الحرب تقتل المجاهدين بشكل لا مثيل له من الإجرام والاستهانة بحياة العراقيين. . . .

في ذلك الوقت أصدر صدام قانونه الجائر في إعدام كل من ينتمي إلى حزب الحركة الإسلامية (الدعوة) أو من يروّج أفكارها وبأثر رجعي وهو تطوّر طبيعي في مسيرة المواجهة التي بدأت بشكل دمويّ سافر لا مثيل له في التاريخ.

إنتقل السيد حامد إلى بيت كان يقع في شارع النّضال وهو شقة قديمة كان قسم منها مخزناً من المخازن التّجارية، هذا بالإضافة إلى قربه من مناطق إنتشار المخابرات هنالك من مديرية الأمن العام، والشّعبة الخامسة، وكان في مخطّطه أن يقود الشهيد عملية هجومية على مقرّات المخابرات وبالتّحديد مركز التّدريب الذي يتدرّب المنتمون إلى هذا السلك المشؤوم،

---

(1) الشهيد ذو الوجه الملائكي المعروف بإيمانه وتقواه وهو شبيه السيد حامد في السلوك.
(2) شخصية كبيرة من الشّخصيات الإسلامية خرّيج الجامعة التكنولوجية
(3) أستاذ علم الرياضيات في جامعة البصرة شخصية مميزة في الصّبر والهدوء.

وكان في ذات الوقت يلتقي به المجاهدون في أطراف الكاظمية في بعض أزقة محلة النوّاب.

كانت المعلومات تصل إليّ والى العارفين بالشهيد بشكل متقطّع، وبصورة يشوبها الغموض بسبب السرّية العالية التي كان من المفترض أن تحيط هذا النّوع من الأعمال.

غادرت الكثير من الشخصيات الحركية العراق بسبب قساوة الظّرف وصعوبة الاستمرار في المواجهة مع النّظام الصّدامي، في الوقت الذي كان أخي الشهيد يهيئ نفسه لعملية نوعية مع مجموعة من المجاهدين. وهي ضرب واغتيال مدير الشعبة الخامسة النقيب زهير التكريتي الذي كان يتحرّك بحرّية في بغداد، وينتقل من مكان إلى آخر وخصوصاً في النجف وكربلاء.

كمن له المجاهدون في النجف وهو في طريقه إلى بيوت أحد عملاء النظام، فأطلقوا عليه خمس رصاصات أصابت أحدها جسمه ولكنها لم تكن قاتلة فهرب المجاهدون في سيارة تمكّن النّظام من معرفة مالكها وهو مجاهد من أهالي البصرة بعثوا إليه بالخبر فتمكّن من الهرب إلى الكويت.

ولكنّ السيد حامد كان له رأي في أنّ العمليات الموجعة للنظام يجب أن تبتدأ من شخصيات النّظام الرئيسة وضرب أماكن المخابرات المعلوماتية، وقد تمكّن من أن يخطّط ويعمل لضرب خمس مقرات من مقرات المخابرات وبيوت الحزب في حي العدل وفي الكاظمية وفي كربلاء وبغداد الجديدة والبيّاع، وقد حاولت أجهزة المخابرات ملاحقته في كلّ مكان، ولكنها لم تكن على علم بأن المجاهد هو سيد حامد، بل كانت تعتقد بأنّ منفّذي العملية عناصر من أقارب مجموعات عسكرية كان النّظام قد أعدم العديد من أقاربهم، وقد لاحقت أجهزة المخابرات أكثر من مرّة المجموعة الجهادية، ولكنّها كانت في كلّ ذلك تصل إلى طريق مسدود بسبب الدّقة التي كان السيد حامد ومجموعته يتبعونها في تحركهم.

وقد تفتق عقل البعث الشّجاع إلى اعتقال الجانب النسائي وملاحقته

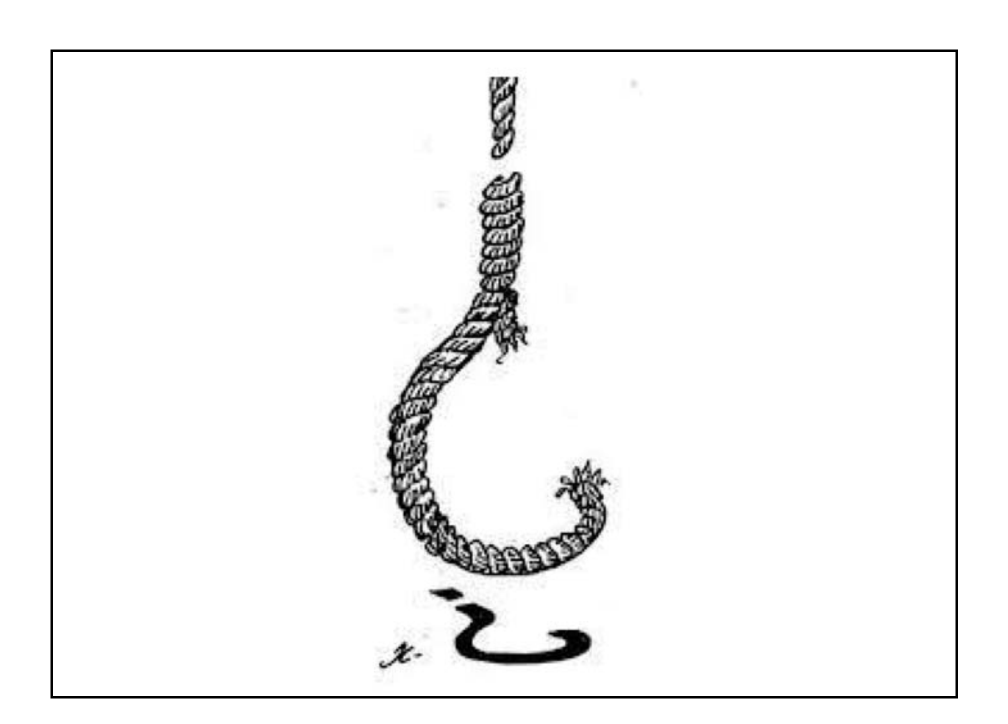
لتخويف المجاهدين من السيد حامد، ومني ومن أخي الآخر السيد أمين فقرّرت اعتقال النّساء، وهكذا فقد قام الجلاوزة بملاحقة الأخوات[1]، ولكنهم أصرّوا على اعتقال الوالدة المرأة العجوز التي كانت تعاني من مشاكل صحية وأمراض العظام والمفاصل فرموها في سجن النجف أكثر من سنة ونصف رهينة لحين عودة أولادها وتسليم أنفسهم، وخصوصاً السيد حامد، ولكنّها وككلّ الأمّهات في العالم فإنها لو تموت ألف مرّة أهون عليها من أن تسلّم إصبعاً واحداً من أصابع أولادها، بقيت الوالدة مع خمسين إمرأة أخرى من أمهات المجاهدين الهاربين من ظلم النّظام وكان الكثير منهن مع أولادهن الصغار وحتى الرّضّع منهم، وكانت الكثيرات من بيوتات العلم والنسب قد شملهنّ السّجن[2].

كان سجن الوالدة له أثر نفسي كبير علينا كلّنا، وكان منبع الألم هو الجبن في هذا الأسلوب، ولكنّه كان هنالك ما هو مسر للنفس بأنّهنّ شاركن كل المجاهدات في العالم، وشاركن بنات الرّسالة في جهادهنّ بعد مقتل الحسين عليه السلام فليس أمهاتنا وأخواتنا بأعزّ علينا من بنات الرّسالة وبنات الوحي.

---

(1) أختي الكبيرة العلوية أمّ حرّاء هيفاء شبّر وكانت معلّمة في مدرسة في البصرة، وكذلك الأخت العلوية الحقوقية نداء أم سجى، ثم العلوية سلوى أم محمّد وكانت في بداية زواجها ولكنّ الضّغط الاجتماعي الكبير والتوسّط لدى وجهاء الناس قرّر أن تستقيل الأخوات من وظائفهن بعد ملاحقات لامجال لذكرها هنا.

(2) كانت -كما ذكرت- عائلة الخطيب المجاهد السيد حسن القبانجي مع زوجته المحتسبة، إضافة إلى السّيد المجاهد نفسه، والعلوية أم علاء بنت العلّامة المرجع الكبير السيّد جواد التبريزي الذي كان من مراجع النجف في بداية السّبعينيات، كما كان هنالك الكثير من الأسماء التي توقّفت عن أن أذكرها في هذا الكتاب بسبب عدم تمكّني من الحصول على إذن في ذلك. في الوقت الذي اعطيت لنفسي الحقّ في ذكر عائلة السيد القبانجي لأنّني أعتزّ بأنّني أنتمي إليها كما هو ذكر والدتي.



الاستشهاد



وفي أحد أيّام الجمعة من عام 1983 وبينما كان السيد حامد خارجاً للقاء المجاهد (عودة صيّاح) من البصرة وكان من المفترض أن يصل إلى الكاظمية لإنقاذ زوجةٌ قُتل زوجها المجاهد توّاً، وخشي الأخ حامد على تلك الزوجة من عناصر الأمن، فقرّر ترحيلها إلى البصرة مع المجاهد (عودة) الذي وصل صباحاً إلى مكان اللّقاء، ولكن السيد حامد كان مراقباً بدقّة وهو في وضع لا يتمكن من أن يترك المرأة يوماً آخر من دون أن ينقلها، خوفاً من وصول عناصر الأمن إليها، وكانت تسكن مدينة الحرية في ذلك الوقت.

توجّه السيد حامد إلى منطقة باب الشرقي بعد أن ترك شقته في شارع النّضال ثم ركب سيارات الأجرة إلى الكاظمية، وبعد وصوله إلى منطقة (الشوصة) هاجمت مجموعة جهادية مدير أمن الكاظمية أو نائبه فقتلوه بالقرب من تلك السّاحة، وعند اقتراب السيد حامد من المكان وجد الأمور معقدة، فقد اعتقل المجاهد (عوده) ولم يُعرف مكانه أو مصيره إلى الآن، فغيّر السيد حامد وجهة طريقه إلى المخبأ في محلة (النوّاب)، ودخل البيت ولكنه لم يكن يعلم بأنّه كان مراقباً من قبل عناصر الأمن، وفي الليل جاء عناصر المخابرات إلى البيت لتفتيشه ولكنهم لم يجدوا أحداً، فتركوا البيت بعد أن تمكّن السيد حامد من الهرب والخروج إلى منطقة أخرى.

بقيت عناصر المخابرات تراقب البيت شهراً، وبعدها قرّر السّيد حامد أن يعود إليه لينقل بعض القطع من السّلاح، فكان أن وصله مع ثلاث من المجاهدين في حوالي منتصف الليل على أمل أن يغادروه صباحاً فجراً مع القطع ومع الفايلات والمعلومات.

وفي الساعة الرابعة صباحاً ضرب البيت بقاذفة ثم قنبلة يدوية، ثم هجوم مباشر من عناصر المخابرات، قاومهم السيد حامد بشكل غير متكافئ، وكانوا في غاية الشراسة فضربوا البيت مرة ثانية بقنبلة حارقة، إشتعلت النار فيه فخرج المجاهدون وهم في الرمق الأخير، فألقي القبض عليهم، ثم أخذوهم إلى المستشفى بعد ان اصيبوا بحروق كثيرة، وبعد ذلك كانت الغيبة الكبرى ولم نسمع بما حلّ بهم، وكيف اختفوا ولم نعرف عن مصيرهم أي خبر حتى وقتنا الحاضر[1].

(1) لم نجد لاخي الشهيد أياً من الرفات في المقابر الجماعية التي ظهرت ما بعد عام 2003، أنا شخصياً أعتقد أن أخي السيد حامد قد مات من جراء الاصابة في معركة المواجهة، وأنه ربما دفن في قبر عادي في أطراف الكاظمية.



خاتمة



لا تقاس أبداً الحياة التضحوية في مسيرة الأفكار بما تحمله من مبادئ، فالأفكار كلّها التي مرت على الناس في مسيرة الخلق، كان أمامها خيار الدماء وخيار التضحية، وهو أمر معادل لواقع الإيمان بالفكرة. . .

فلئن كان العامل الثّابت في معادلة الصّراع هو القتل، فإنّه لمن الجهة الأخرى هنالك عامل الإنسان، وعامل اعتلاء الرّوح وهو الجزء الاكبر في تلك المعادلة من قبل الكثير من الناس، بل إنّها لغة يتناغم بها أولئك العاشقون للشهادة، والمحبون للخلود وقد عصيت وبشكل كبير عن تفسير أحداث كبرى مرّت على الإنسان في مسيرته الحضارية.

فقد أصيب حاكم روما بالجنون وهو ينظر إلى حوارييّ المسيح عليه السلام وهم يتقدّمون أمام مذبح العقيدة لتنهش السّباع لحومهم أمام أعين الناس، ولم يفق فرعون من غطرسته إلى أن سقط في جنون ابتسامة زوجته آسيا، وهكذا هو كما يسمونه (الجنون) وهو جنون العظماء، عظماء صانعي التاريخ الذين يتصايح بهم النّاس: أجننتم في لحظات المعركة..؟ فيجيبون نعم جُننّا، لأنّ حبّ الحسين عليه السلام جعلنا هكذا. . . بل حبّ الفكرة والعقيدة هو الذي تجسّد في حبّ ابن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. . .

وهكذا هي الحياة ترتفع دوماً بكبريائها وعنفوانها مستمرة، لكي ينعم بها الكلّ: الفاسق والمؤمن، والصّالح والطّالح، لأنّها تمتلك أوتاداً كبرى تستقرّ عليها الأرض وتستقر عليها لغة الإنسان.

وهكذا نحن بين زحمة التّاريخ وتسارع عالم التكنولوجيا نكتشف أنّ الإنسان هو الإنسان، وأنّ المبدأ كما كان منذ أن كرّم به أولئك الناس،

فلم تختلف دماء التضحيات إلّا من طبيعة عنفوانها، كما تغيرّ تسارع الأمم في تقدمّها وعطائها.

أبداً لن تتوقّف المسيرة التي تأخذ طوراً آخر في عالم التكنولوجيا، لأنّ الفكر سيكون له الدّور الفيصل في ترتيب عقول البشر، جنباً إلى جنب مع الأصول العقائدية والأخلاقية. . .

وهنالك في الأفق وعدٌ لهذا الإنسان في أن ينعم يوماً ما بأن يكون له عدالة، في ذلك اليوم سيغادرنا (مهديّ) هذه الأمة وسيقول لنا لقد حقّقت العدالة عدالة الإنسان.

المصادر العربية

1. الإمام الحسين شاغل الدنيا، سعيد رشيد زميزم، مؤسسة البلاغ 2010.
2. الإعلام السياسي في مدرسة النجف الأشرف، خطيب الأمة السيد جواد شبر أنموذجاَ، الدكتور خليل الأعسم، المركز الإسلامي لأبحاث السلام و الدبلوماسية، 2011.
3. التغيير الآمن، مسارات المقاومة السلمية من التذمر الى الثورة، عمار علي حسن، دار الشروق، 2012.
4. الثورة العراقية الكبرى، عبد الرزاق الحسني، بيروت، 1991.
5. الشهيد الصدر سنوات المحنة و أيام الحصار، الشيخ محمد رضا النعماني، المطبعة العلمية قم 1966.
6. القران الكريم.
7. المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية، دراسة في التطور السياسي و العلمي، د. جودت القزويني، دار الرافدين، بيروت 2005.
8. المهدي المنتظر عند الشيعة الإثنى عشرية، جواد علي، دار الجمل، 2005.
9. الهويات القاتلة، امين المعلوف، دار ورود للطباعة والنشر، سوريا 1999.
10. اليمين و اليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1973.
11. أدب الطف، أو شعراء الحسين، الخطيب السيد جواد شبر، دار المرتضى، بيروت 1969.
12. أوكار الهزيمة، هاني الفكيكي، دار رياض الريس بيروت 1993.
13. تفسير القرآن الكريم، السيد عبد الله شبر، القاهرة 1975.
14. ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية و آثارها الإنسانية، مؤسسة دار الكتاب الإسلامية بيروت 2006.
15. ثورة النجف، حسن الأسدي، وزارة الإعلام بغداد 1975.
16. حكومة القرية، طالب الحسن، دار أور للطباعة والنشر، 2002.
17. خطباء المنبر الحسيني، حيدر المرجاني، مطبعة القضاء، النجف، 1977.

18. خطيب الأمة، السيد جواد شبر،السيد أمين شبّر، طهران، 2000.
19. خلافة الإنسان و شهادة الأنبياء محمد باقر، سلسلة الإسلام يقود الحياة، دار التعارف بيروت 1990.
20. دراسة تحليلة للشخصية الإرهابية في ضوء نظرية التحليل النفسي، د. حيدر الحبيب، 2011 (أطروحة ماجستير مقدمة إلى الأكاديمية الأمريكية العراقية، كلية العلوم والتربية النفسية).
21. رولوماي، البحث عن الذات، ترجمة، د. عبد علي الجسماني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993.
22. سلام عادل سيرة مناضل، ثمينة ناجي يوسف، نزار خالد، دار المدى 2011.
23. سموّ المعنى في سموّ الذات أو الإمام الحسين الشيخ عبد الله العلايلي، دار الجديد، بيروت 1996.
24. علم النفس و تطبيقاته التربوية و الاجتماعية، مكتبة الفكر العربي، بغداد 1984.
25. التشيع الصفوي والتشيع العلوي، علي شريعتي، مراجعة د. إبراهيم دسوقي شتا، دار الأمير، 2002.
26. ماضي النجف و حاضرها، جعفر محبوبة، دار الآداب، النجف 1958.
27. محمد باقر الصدر حياة حافة فكر خلاق، محمد طاهر الحسيني 2010، دار السلام بيروت.
28. محمد باقر الصدر، السيرة و المسيرة في حقائق ووثائق، أحمد عبد الله ابو زيد العاملي، دار التعارف 2008.
29. محمد باقر الصدر، المواجهة والشهادة، محمد أمين شبر، قم، 2001.
30. محمد جعفر ابو التمن، دراسة في الزعامة السياسية العراقية، د. خالد التميمي، دار الوراق، 1996.
31. مدينة النجف: عبقرية المعاني و قدسية المكان، د. محسن عبد الصاحب المظفر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 2011.
32. معجم الخطباء. السيد داخل حسن، دار الهادي بيروت، 2008.
33. نظام الحكم في الإسلام للشيخ شمس الدين، المؤسسة الدولية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الثانية 1991.
34. نهج البلاغة، خطب الإمام علي، تأليف الشريف الرضي، مركز الأبحاث العقائدية، قم 1998.

المصادر الاجنبية

1. Andrew Scott Cooper. The Oil Kings: How the U.S., Iran, and Saudi Arabia Changed the Balance of Power in the Middle East. Simon Schuster, 2011. ISBN 1439155178.
2. Fernand Braudel, "The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II" (Berkeley: University of California Press, 1996).
3. Hamid Algar, 'Development of the Concept of velayat-i faqih since the Islamic Revolution in Iran,' paper presented at London Conference on vilayat al-faqih, in June 1988, quoted in "The Rule of the Religious Jurist in Iran" by Abdulaziz Sachedina, p.133 in Iran at the Crossroads, Edited by John Esposito and R.K. Ramazani].
4. Iraq Facts & Figures, Poverty & Unemployment UN, (http://iq.one.un.org/Facts-and-Figures).
5. J. B. Quinn, "Strategies for Change: Logical Incrementalism" (Richard D. Irwin, 1980).
6. John W. Kiser, Commander of the Faithful, the Life and Times of Emir Abd El-Kader: A Story of True Jihad, Monkfish Book Publishing Company, 2008.
7. Malise Ruthven, Islam: A Very Short Introduction, by, Oxford University Press, 2000.
8. Merrill D. Peterson (1995). Lincoln in American Memory. Oxford U.P. p. 110.ISBN 978-0-19-988002-7.
9. Neil Spurway, Theology, Evolution and the Mind, Cambridge Scholars Publishing, 2009.
10. The relationship between somatic and PTSD symptoms among Bhutanse refugee torture survivors: Examination of comorbidity with anxiety and depression. Journal of Traumatic Stress, 15(5), 415-421.
11. Van Ommeren, M., Sharma, B., Sharma, G. K., Komproe, I., Cardena, E., & de Jong, J. T. V. M. (2002). The relationship between somatic and PTSD symptoms among Bhutanese refugee torture survivors: Examination of comorbidity with anxiety and depression. Journal of Traumatic Stress, 15(5), 415-421.
12. West, Cornel (1984). "The Paradox of the Afro-American Rebellion". In Sayres, Sohnya; Stephanson, Anders; Aronowitz, Stanley; Jameson, Fredric. The 60s Without Apology. Minneapolis: University of Minnesota Press. p. 51. ISBN 978-0-8166-1336-6.
13. www.alshuhadaa.com مؤسسة الشهداء في العراق
14. www.amnesty.org/en/region/iraq منظمة العفو الدولية
15. www.en.wikipedia.org/wiki/Rodney_King انتفاضة لوس أنجلوس

المحتويات



تفكير الإنســــــــان و تعامله مع
أحداث الحياة عبارة عن مسيرة استقرائية و
قـدرات تراكمية، و التفكير تصنعه الأحـداث، و الأحـداث
يفرزها الإنسان و ثقافته و مدى قدرته على النظر إلى المستقبل.
أحـداث النجف و طريقـة نمو أفكار الثورات التي انطلقـت منها و ظهور
الشخصيات المغيّرة خلال عقد السبعينيات و إشعاعاتها على المسيرة الفكرية في
العراق و في العالم حـاولت أن أقـرّب من فواصله الفكرية و الزمانيّة في تسلسـل هذا
الكتاب الذي وضعته بشكل يختلط فيه دور أخي الشهيد حامد شبر مع عمل المغيّرين الكبار
من العلماء و الثوار. فقد مررت على أحداث بداية مجيء البعثيين إلى الحكم في العراق ثم نمو
الوعي الثوري بعدها الانطلاقة في التوجه الثوري الحسيني الذي أنتج جيل ما بعد التسعينيات
في الوقت الذي كاد أن يضمحل بعنوان ثورته الى أن جاء الشـهيد الثاني الصدر ليكمل مسيرة
أستاذه الصدر الأول و لكن بطور مختلف و علم متناسق. كل ذلك جاهدت أن أتناوله بشكل قريب
من التحليل السياسي إلى الانتقاد الاجتماعي ثم دور الحركات الفكرية المغيّرة حتى مرحلة تحليل
النتائج.
أخي الشهيد حامد شبر كان لي في أن أعيشه مع هذا الكتاب بفترة متحركة اكتشفتها و أنا أتصفح
مسيرة العظماء في محاولتي لقراءة أفكارهم. فتمكنت من التوصل الى عملية مزاوجة الفكرة
الاستشهادية بالأصل الديني في أن أنقل تاريخ لحقبة أثنى عشر سنة من الصراع الذي
استعر في النجف و العراق كانت جديرة أن تكتب بشكل يستفيد منه المؤرخ و الثوري و
العالم و المثقف و المغيّر في زمن التغيير ما بعد نيسان ٢٠٠٣ ليس للعراقي فحسب
و أنما لكل من يعيش هم الإنسان في كل زمان و مكان.
هذا الكتاب هو قصة علم من أعلام الإبداع الاستشهادي الذي احتوته هذه
المدينة الكبرى النجف في أروع ملحمة من ملامح التعامل ما بين
العقل و الفكر.. إنها قصة الشهيد أخي السيد حامد جواد
شبر.

